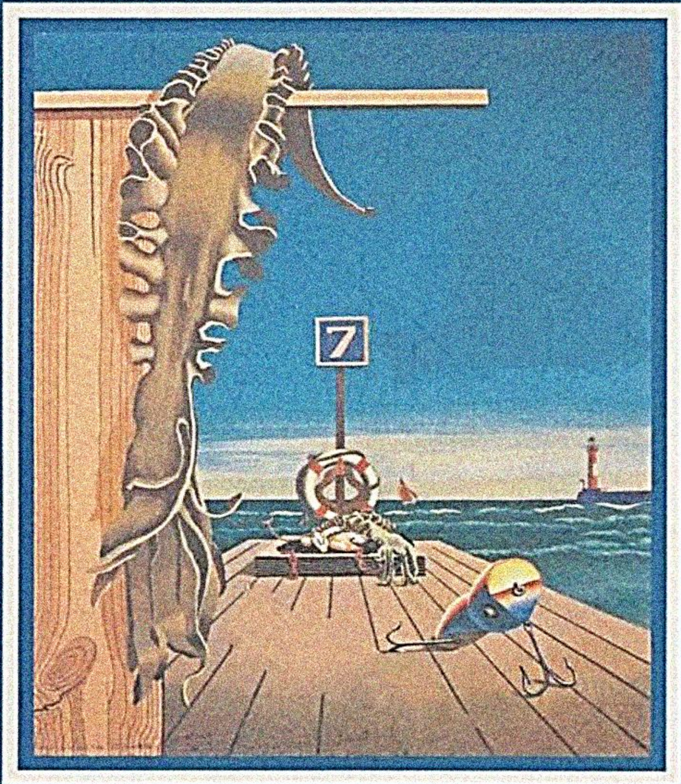
غازي عبد الرحمن القصيبي

٧



علي مولا

دار الساقي

غازي عبد الرحمن القصيبي

٧

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي

- العصفورية.
- من هم الشعراءالذين يتبعهم الغاوون؟
- العودة سائحاً إلى كاليفورنيا.
- هما.
- واللون عن الأوراد.

وجه الغلاف: لوحة «صبيحة الغد»

للفنان البريطاني ادوارد وادزورث

ظهر الغلاف: المؤلف بريشة المهندس: باسم الشهابي

الطبعة الأولى ١٩٩٨

ISBN 1 85516 520 1

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 0171-221 9347; Fax: 0171-229 7492

المحتويات

الصفحة

الإهداء

إلى الإنسانة

التي استطاعت أن تتعايش

مع شطحات الشاعر

وكوابيس الروائي

ولؤم البيروقراطي

إيضاحان

أولاً ـ عربستان X تعني كل دولة عربية... ولا تعني أيّ دولة عربية.

ثانياً ـ أي وجوه شبه بين شخصيات الرواية وبين شخصيات حقيقية قد تكون مصادفة.. وقد لا تكون.

المدخل

ومَنْ عَرِفَ الأيام معرفتي بها
وبالناسِ.. روّى رمحه غير راحمِ

المتنبي

الجزيرة

أنتِ منّا. . . فتنتِ نفسكِ لكنك
عُـوفـيـتِ مـن ضـنـى واشـتـيـاقِ
المتنبي

أنا ورجالي السبعة. «في ميدوسا». الجزيرة الصغيرة الجميلة. مع نجوم برنامجي «عيون العالم عليك». مع صفوة الأمة العربستانية. رجالي الذين يشتهونني بعنف. الذين لم يوافقوا على المجيء إلى الجزيرة إلاّ طمعاً في جسدي. قلت لهم، بصراحة، إنني لا أستطيع أن أكون امرأة مشاعاً. لا بد أن أختار واحداً منهم، واحداً فقط. ولا بُدّ أن يكون الأكثر إثارة. ولكي أستطيع أن أختار هذا الرجل لا بُدّ أن يحدثني كل منهم عن أكثر الأسابيع إثارة في حياته. وسأستمع. وفي الليلة الأخيرة سأتخذ القرار. وكان لا بُدّ أن يبدأ الشاعر(١).

(١) من دفتر يوميات جلنار.

١

الشاعر

مـا نـال أهـل الـجـاهـلـيّـة كـلّـهـم
شعري.. ولا سمعتْ بسحريَ بابلُ
المتنبي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: شحته كنعان أبو القسايم فلفل

اسم الشهرة: كنعان فلفل

المهنة: شاعر ورئيس تحرير

العمر: ٤١ سنة

الثروة: لا تكاد تذكر

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: عربستان X

المؤهلات الدراسية: ليسانس في الأدب الإنجليزي جامعة نوتنجهام

الحالة الاجتماعية: متزوج

الأولاد: بدون

السبت

العاصمة. عربستان X

البقرة! هذه البقرة السمينة غير الحلوب. كيف يمكن لشاعر أن يعيش مع بقرة؟ شاعر حسّاس مرهف المشاعر مثلي. تبلّور غضبي المتزايد على زوجتي/البقرة ليصبح قصيدة. كتبتُها، أمامها، في المطبخ هذا الصباح وهي تثرثر كعادتها. لم يخطر ببالها أني أكتب قصيدة عنها. ولو خطر ببالها أن تقترب وتنظر لما فهمت شيئاً. منذ متى يفهم البقر الشعر؟ قال شاعر محنّط، لا أذكر اسمه، شيئاً عن البقر والشعر. يبدو أنه كان، بدوره، متزوّجاً ببقرة. مثل ت. اس. إليوت الذي تزوّج بقرة سرعان ما جُنّت. جنون البقر! هل توجد بقرة غير مجنونة؟

أكملتُ الرتوش الأخيرة في المكتب. لم أسمّ القصيدة «البقرة»، بطبيعة الحال. لو فعلت ذلك لكان هناك احتمال، واحد في المليون، أن تعرف زوجتي/البقرة أن القصيدة عنها. أنا أرفض أن يعرف أحد التجارب التي تتناولها قصائدي. أرفض من حيث المبدأ. أرفض بشدة. هذا شأني، شأني وحدي. وأنا أحتقر الشعراء الذين يفسّرون شعرهم. وأحتقر، أكثر وأكثر، الشعراء الذين يؤلّفون الكتب ليتحدثوا عن التجارب التي مرّت بهم وجعلتهم يكتبون ما يكتبون. يعوّضون عن رداءة شعرهم بنثر أردأ. النصّ وحده هو المهم، كما قال شاتو بريان. شاتو بريان قال ذلك؟! لا أظن. ولكن البقر الذين يقرأون لي لا يعرفون شيئاً. لا يعرفون أني أخترع معظم الأسماء التي تتضمّنها مقالاتي النقدية. ومعظم المقولات. لا تخلو مقالة واحدة من كاتب وهمي. ومن مقولة وهمية. لم يكتشف البقر هذه الحقيقة حتى الآن. وأشكّ أنهم سيكتشفونها في المستقبل. هل سمّيتهم البقر عبثاً؟ وأفعل

الشيء نفسه في قصائدي. الاختراع. أخترع كلمات لا تُوجد. وأشير إلى أساطير لا تُعرف. وأكتب تعبيرات لا معنى لها. هذه القدرة الإختراعية النادرة هي التي جعلتني رئيس تحرير «النَفَس الشعري الجديد». وأوجدتْ لي جيوشاً من المعجبين والمريدين. صغار العجول! عندما تظهر قصيدة البقرة في العدد الجديد من المجلة ستظهر على النحو التالي:

مازارين

ـ في جزر الهاواي أسطورة قديمة عن مازارين
إلآهة العقم التي تسبّب موت المحاصيل كلّما
عبرتْ بها متقمّصة شكل فراشة سوداء ـ

عيون مازارين آبار منقربه
تؤدّي إلى عالم أسفل/أعلى
تسكنه أشباحٌ يفترعها سلّ الشهوة
فتتقيّح دماً أسود
يتطاير من عيون مازارين

●

رفيف أجنحة!
رفيف أجنحة!
اسمّعلتْ الفراشة السوداء
فليتبربخ صانعو الملح في كل مكان
ولتُقرع الفوانيس
ولتُشعل النواقيس
وليُقبّل الفلاّحون مناجلهم

●

هذه الفراشة
لم تأكل منذ قرون
أحضروا طعامها المُقدّس
سرّة الجنين

مردخة العذراء
وتاج الببغاء القرمزية
وليتبربخ صانعو الملح في كل مكان

•

عيون مازارين تتأمل المائدة
والنواقيس تضيء
والفوانيس تتزملح
والمناجل تطعن أكباد حامليها
السحر الأسود!
السحر الأسود!
فليتبربخ صانعو الملح في كل مكان
في كل مكان!

لا توجد أسطورة عن مازارين في جزر هاواي. ولا في أي محلّ آخر. ولم يسمع أحد، قبلي، كلمة يتبربخ. ولا مردخة. ولا تتزملح. إلاّ أن هذا لا يهمّ. المهمّ أن القصيدة متخمة بالإحتمالات. متخمة حتى البعجنة. سوف يجيء مريد يقول إنها تلخّص المأساة الإنسانية. وسوف يرى مريد آخر فيها نهاية المجتمع الزراعي. وسوف يقسم ثالث أنها رمز لتخلف العالم الثالث. أمّا أنا فلن أقول شيئاً. سأكتفي برؤية صانعي الملح يتبربخون في كل مكان.

جاءت سكرتيرتي/البقرة تعلن وصول حمّاد سحلاوي، محرّرالصفحة الثقافية في «البشائر». حمّاد واحد من أنبغ المعجبين بشعري، وهو يحرص على أن يجري معي مقابلة جديدة كل شهر. دخل يحمل أوراقاً وأقلاماً وفي عينه تلك النظرة التي أعشقها: نظرة الكلب الصغير إلى صاحبه. بدأت المقابلة بسؤال عن آخر ديوان قرأته. قلت: «"أوهام المداخن" للشاعر السوفيتي سابقاً، الروسي حالياً، نيقولا إشماتشوف. في هذا الديوان يتحدّث الشاعر برمزاوية مستطعبة عن إنهيار الحلم الماركسي. للأسف، لم يُتَرجم الديوان بعد». بريق إعجاب نفّاذ في عين الكلب الصغير. «وآخر الكتب النقدية يا أستاذ كنعان؟». أتنحنح وأقول: «آخر كتاب نقدي انتهيت منه هو "احتضار المونولوج" للبروفسور أرنولد إشبختك أستاذ الألسنيات بجامعة دارمشتات. يتحدّث إشبختك عن الظاهرة الأدبية القادمة:

النصّ المُكبسَل. للأسف، لم يُتَرجم الكتاب بعد». نظرة إعجاب أخرى في عين الكلب الصغير. «وماذا عن الإنتاج المحلي الجديد؟». أتنهّد، وأنظر إلى سقف الغرفة وأردّ ببطء: «ثمّة أمل! ثمّة أمل! ثمة أمل يا عزيزي. الشعر، في جوهره الهيولائي، هو زرنخة. زرنخة الأشياء. خلخلتها. وشخبلتها. هو معركة إنبثاقية ضد الإستبقار والإستحناط. هو قنبلة متماهية تنفجر في وجه كل ما هو منطقي. ومن هو منطقي. الشعر الحقيقي هو انقلاب على الشعر الحقيقي. انقلاب يلد نفسه وهو يؤكل. ويلد مع نفسه أشياء ضدّ نفسه. أشياء واعدة تحترق بمجرد أن تتنفس. ثمّة أمل، يا عزيزي، ثمة أمل. أرى جيلاً صاعداً من الشعراء الزرانخة، المتمرّدين على الشعر الحقيقي». تلمع نظرة إعجاب ثالثة، وربما رابعة، قبل أن يطوي المُحرّر الثقافي المزرنخ أوراقه ويغادر المكتب.

سألتُ سكرتيرتي/البقرة، للمرة العاشرة، إذا كان قد جاء شيء من الوزارة بشأن لقاء الحمراء الشعري. وأكّدت سكرتيرتي البقرة، للمرة العاشرة، أن شيئاً لم يصل. البقر أولاد البقر!

الأحد

لا أدري لماذا طلب السيد وكيل الوزارة مقابلتي هذا الصباح. ليحدّثني عن لقاء الحمراء؟ أم أن هناك محاولة جديدة لإزاحتي من «النفس الشعري الجديد»؟ لم يكفّ الوشاة والحسّاد عن المحاولة. أبناء الحرام! يريدون شاعراً مُحنّطاً. شاعراً يكتب كلاماً مفهوماً. شاعراً يبول في الأطلال مع ناقته التي تبول. وهو يبكي. ويطلب من كل الناس أن يقفوا ليبكوا معه. ويبولوا إن أمكن. لتبتلّ الأرض بالماء. يريدون شاعراً يصف الغزال والشاة والذئب. أبناء الحرام هؤلاء لا يفهمون شيئاً في الشعر. والسيد وكيل الوزارة، بدوره، لا يفهم شيئاً في الشعر. إلا أنه يعرفني من أيام الدراسة الثانوية. ويقدّر موهبتي حق قدرها.

قلتُ:

ـ صباح الخير يا أستاذ صابر.

كان رد الأستاذ صابر حاير ابتسامة عريضة تبعها تدفّق لفظي:

ـ أهلاً! أهلاً! أهلاً! اشتقتُ إليك يا رجل. ألا تعرف أنني اشتقت إليك يا رجل؟ أينك يا رجل؟ منذ فترة لم نسعد بطلعتك. أين كنت؟ أين اختفيت؟ حرام كل هذا الهجر يا كنعان. اشتقنا يا رجل.

الذين يعرفون السيد وكيل الوزارة كما أعرفه يدركون أن هذا الترحيب الحار لا يمكن أن يكون لوجه الله. ولا لوجه الشعر. ولا لوجه الزمالة القديمة. هناك مطبّ قادم، بلا ريب ولا شك.

قلتُ بحذر:

ـ المشغول لا يُشغل يا أستاذ صابر. مسئولياتك كبيرة.

ـ صحيح. صحيح. ولكن هل يُعقل أن أنشغل عنك؟ أستغفر الله! أنت المشغول عنا. يبدو أن شياطين الشعر لا تترك لحظة واحدة من وقتك لأصحابك القدامى.

ـ شياطين الشعر، يا سيّدي، شياطين.

ـ وأنا في حاجة إلى خدمات شيطان من هذه الشياطين.

آه! جاء المطَبّ وبأسرع مما توقعت. قلتُ:

ـ عفواً؟!

ـ أريد أن أستأجر خدمات شيطان من شياطين شعرك.

ـ تستأجر؟!

ـ أستأجر خدماته لفترة قصيرة. وبإيجار مغر.

ـ ولكنك يا أستاذ صابر تعرفني جيّداً وتعرف أني شاعر ذو مبادىء.

ـ بالتأكيد! بكل تأكيد! وأنا أقدّر هذه المبادىء. الحقيقة أنني اخترتك لهذه المهمة إحتراماً لمبادئك.

ـ مهمّة؟ تريد أن أكتب لرجل آخر قصائد ينسبها لنفسه مقابل مال؟

ـ لا! لا! لا أتحدّث عن رجل. أتحدّث عن طفل. طفل نابغة.

ـ تريد مني أن أكتب قصائد لطفل؟

ـ نعم. من باب تشجيع المواهب الناشئة.

ـ ولماذا تريد تشجيع هذه الموهبة الناشئة؟

ـ بصراحة، بكل صراحة، لأن والده من أعز أصدقائي. كان زميل الدراسة في أمريكا.

ـ وكم عمر الطفل/المعجزة؟

ـ يوشك أن يبلغ العاشرة؟

ـ وما اسمه؟

ـ محارب حربي الحرايبيبي.

ـ اسم عسكري عدواني.

ـ هاه! هاه! هاه!

ـ ولماذا لا يكتب قصائده بنفسه ما دام موهوباً؟

ـ هذا شاعر ناشىء. في بداية الطريق. يحتاج إلى من يحتضنه. يحتاج إلى دفعة من شاعر عملاق. عملاق مثلك. دفعة تساعده على المضيّ في الطريق.

ـ ولكني لا أكتب سوى الشعر الحديث.

ـ والطفل لا يكتب سوى الشعر الحديث.

ـ أستاذ صابر! مع تقديري الشديد. . .

ـ لا تستعجل يا كنعان. تذكّرْ الإيجار.

ـ نعم؟

ـ هناك مكافأة رمزية.

ـ هل تعتقد أن مبادئي للبيع؟

ـ ١٠,٠٠٠ دولار.

هذه ليست مكافأة رمزية. هذه ثروة صغيرة. ولكنني مضيت صائحاً:

ـ قلت لك: هل تعتقد أن مبادئي للبيع؟

ـ أعوذ بالله! أعوذ بالله! أعرف أن كنوز سليمان لا تستطيع شراء مبدأ واحد من مبادئك. ولكني أعرف أيضاً أنك لا تستطيع أن تردّ طلبي، أنا صديقك منذ الطفولة.

ـ كم قصيدة تريد؟

أخرج سيادة الأستاذ صابر حاير ورقة من درجه وبدأ يقرأ:

ـ المطلوب قصيدة عنوانها «دفتر الواجب». وقصيدة عنوانها «المدرّس وأنا». وقصيدة عنوانها «خطوط الطول والعرض». وقصيدة عنوانها «في دورة المياه». وقصيدة. . .

صرخت:

ـ يكفي! يكفي! لن أكتب سوى ٤ قصائد.

ـ أنا عاجز عن شكرك.

ـ متى تريد القصائد؟

ـ أريدها منشورة بإسم الشاعر الصغير في العدد القادم من «النَفَس الشعري الجديد» مع مقدمة صغيرة منك بإعتبارك مكتشف الموهبة.

ـ سأحاول. لا أستطيع الإلتزام. ولكني سأحاول.

ـ أنا واثق أنك لن تجد أي صعوبة. كنتَ طفلاً ذات يوم وتعرف كيف يفكّر الأطفال.

ـ سأبذل جهدي.

ـ قد نحتاج إلى المزيد.

ـ لا أعد بالمزيد.

ـ سوف يقيم الطفل النابغة أمسية شعرية. وما لديه من حصيلة قد لا يكفي ولا . . .

ـ أمسية شعرية؟!

ـ نعم.

ـ أين؟!

ـ هنا.

ـ ومتى سيكون هذا الحدث العظيم؟

ـ السيد الوزير يبحث الموعد الآن مع السيد رئيس الوزراء.

ـ رئيس الوزراء؟! ما علاقة السيد رئيس الوزراء بأمسية شعرية يقيمها طفل/ معجزة؟

ـ يا أستاذ كنعان! أنت تعرف أن السيد رئيس الوزراء قضى معظم حياته في سلك التعليم. لن تجد أحداً أحرص على تشجيع المواهب الناشئة من سيادته.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن الأمسية الشعرية سوف تتم برعاية السيد رئيس الوزراء.

ـ تعني أنه سيحضر شخصياً؟

ـ نعم.

ـ هل تمزح معي؟

ـ لا أمزح. يجب أن يسرّك الخبر. في تشريفه رفع لمقام الشعر والشعراء.

ـ والأطفال النوابغ.

ـ والأطفال النوابغ. قد نحتاج إلى مزيد من القصائد حتّى تظهر الأمسية بالمظهر اللائق.

ـ لا أستطيع أن أعد بشيء.

ـ حسناً! في الوقت الحاضر لن أطلب منك سوى القصائد الأربع.

أدخل سيادة الأستاذ صابر حاير يده في درج مكتبه وأخرج ظرفاً قدّمه لي وهو يقول:

ـ المكافأة الرمزية.

قلت على الفور:

ـ لن آخذها.

رفع سيادة الأستاذ صابر حاير حاجبيه مدهوشاً وقال:

ـ من أجلي يا كنعان. من أجل الصداقة.

ـ أقبلها بشرط واحد.

ـ ما هو؟

ـ أريد أن أشارك في لقاء الحمراء الشعري.

ـ لا شيء يسعدني أكثر من تحقيق رغبتك. إلاّ أن الوفد تمّ تشكيله بالفعل.

ـ أضفْ اسمي إلى الوفد الذي تمّ تشكيله.

ـ ولكن الوفد سوف يسافر بعد غد. لا يوجد متّسع...

ـ أعرف ذلك. ولهذا يجب أن تتخذ القرار فوراً. الآن!

تنهّد السيد وكيل الوزارة وهو يقول:

ـ كنعان! كنعان! أنت تعرف أني لا أستطيع أن أرفض لك طلباً. سوف تكون ضمن الوفد. اعتبرْ الموضوع منتهياً. ومن يدري فقد يكون في أجواء اللقاء ما يحرّك شياطين الشعر ويدفعها إلى كتابة قصائد شاعرنا الناشىء. لا تنسَ الظرف يا كنعان!

عندما عدت إلى مكتبي في المجلة وجدت فتاة حسناء جالسة في مكتب السكرتيرة/البقرة. حسناء في «النفس الشعري الجديد»؟! هذه نهاية العالم. لا يوجد هنا، عادة، سوى بقر. شعراء/بقر، وناقدات/بقراتِ، وقارئات/بقرات، وأمّ البقر جميعاً سكرتيرتي/البقرة. دخلتُ مكتبي واستدعيت السكرتيرة/البقرة وسألتها عن الزائرة. قالت إنها طالبة في السنة النهائية بكلّية الآداب، وأنها تودّ أن

تجري معي مقابلة تستفيد منها في بحث التخرج. لم لا؟ لم لا أعطي هذه المخلوقة الحسناء رحلة قصيرة في عوالم عبقريتي؟ طلبت من سكرتيرتي/البقرة إدخالها بعد ٥ دقائق. أخرجت الظرف، ووضعته في كتاب مهترىء، ووضعت الكتاب المهترىء في الدرج وأقفلته بالمفتاح. لو رأت زوجتي/البقرة الدولارات لالتهمتها، كما تلتهم البرسيم، في ثانية واحدة.

دخلت الطالبة الحسناء وجلست أمامي. لم يَبْد عليها أيّ مظهر من مظاهر الاضطراب الشديد التي تنتاب المعجبين والمعجبات في حضرتي. كانت رابضة الجأش. باردة. مثلّجة. ابتسمت لي وقالت:

ـ أستاذ كنعان! أشكرك على وقتك.

تعبير غربي! فكرة غربية! شُكر الناس على أوقاتهم عادة غربية. في الشرق ليس للوقت أي قيمة ولهذا لا يشكرك أحد إذا أعطيته نصف وقتك، أو وقتك كله. من أين جاءت هذه الحسناء الشرقية بهذا المفهوم الغربي؟ كان لا بُدّ أن أتنبّه إلى الخطر القادم ولكنني، للأسف، لم أتنبّه. قلت:

ـ العفو يا آنسة...

ـ أمواج. أمواج عيسى.

ـ أمواج؟!

ـ أمواج.

ـ هل هذا اسمك الحقيقي؟

ـ والوحيد.

ـ هل أبوك شاعر؟

ـ أبي رجل أعمال.

ـ من أين، إذن، جاء هذا الاسم الشاعري؟

ـ ألا تستطيع أن تخمّن؟

ـ وُلِدت في باخرة؟

ـ نعم.

ـ حقاً؟

ـ حقاً.

واو! مخلوقة حسناء بحرية. مدّ وجزر. شطآن ورمال. عواصف وأعاصير. سفن تتحطّم. وسفن ترسو. مواقف وداع. ومواقف لقاء. غناء بحّارة. نشيج ملاّحين. قراصنة. أسماك قرش. كنوز مطمورة. حوريّات. أصداف. رمال. صخور مرجانية. جزر بعيدة. أمواج!

يبدو أني شردت بعض الشيء. جاء صوتها بارداً كالنسيم:

ـ أستاذ كنعان! أستاذ كنعان؟!

ـ نعم! نعم! عفواً! أنا تحت تصرّفك. تفضلي.

ـ هل تسمح أن أسجّل المقابلة؟

ـ بكل سرور.

أخرجت المخلوقة البحرية الحسناء جهاز تسجيل مُقزّماً ووضعته بيننا. وجاء الصوت المثلّج:

ـ أستاذ كنعان! هناك من يقول إن قصيدتك «أشباح الميناء» مأخوذة من قصيدة الشاعر المكسيكي هوزيه تكيلا المعنونة «مزرعة الأشباح». ما رأيك؟

أخذني السؤال اللئيم على حين غرة. على حين غرة تماماً. طعنة من الخلف. جاءت بلا إنذار. كيف سمعت هذه المخلوقة البحرية الحسناء بشاعر مكسيكي مغمور مات منذ قرن؟ هل هناك مؤامرة لتشويه سمعتي؟ ومن الذي يتزعّمها؟

ـ أستاذ كنعان!

ـ نعم! نعم! التناصّ، يا آنسة أمواج، التناصّ. سمعتِ بالتناص؟

ـ سمعت بالتناص. ولكن ألا ترى أن الأمر، في هذه الحالة، تجاوز التناصّ؟

ـ هناك تناصّ محدود وهناك تناصّ مفتوح.

ـ في هذه الحالة هناك أكثر من التناصّ المفتوح.

ـ لا يمكن حصر التناصّ لأن. . .

قاطعني الصوت المثلّج:

ـ اسمع يا أستاذ كنعان. اسمع رجاءً. يقول تكيلا:

في الظهيرة

أقف تحت الشمس المحرقة

أنبش التراب

بحثاً عن البذور التي وضعتها بيدي
في موسم الحصاد الآفل
أنبش التراب
ولا أرى البذور
أرى جماجم بشرية
تحدّق فيّ.. وتبتسم
وتقول أنت:
في الفجر
أركف تحت الأشعة الباردة

ـ بالمناسبة، يا أستاذ كنعان، ما معنى أركف؟
ـ أنا لا أفسّر شعري.
ـ بحثت عن الكلمة في كل المعاجم ولم أجدها.
ـ هذه كلمة لم تولد قبلي. لن تجديها في معاجم اليوم. ستجدينها في معاج الغد.
ـ ولكن ماذا تعني؟
ـ قلت لك إني لا أفسّر شعري.
ـ حسناً فلنعد إلى القصيدة. تقول:

في الفجر
أركف تحت الأشعة الباردة
أبحث عن الزوارق التي أطلقتها بيدي
في موسم الصيد الراحل
ولا أرى الزوارق
أرى جماجم بشرية
تنظر إليّ... وتقهقه

ـ ألا ترى، يا أستاذ كنعان، أن المسألة قد تجاوزت التناصّ؟
ـ آنسة أمواج! يا عزيزتي! عليك أن تفهمي حقيقة كبرى من حقائق الأدب. زلت طالبة والطريق أمامك نحو أسرار الأدب المستبطنة ما زال طويلاً. التجار البشرية ليست ملك تكيلا، ولا ملكي أنا، ولا ملكك أنت. ولا ملك أساتذ

العظام في الكلّية. تجارب البشر تراث البشر أجمعين. لا يستطيع أحد منعي من الحديث عن تجربة ما لأن غيري تحدّث عن التجربة ذاتها. هذه فاشية أدبية. ديكتاتورية بغيضة يا آنسة أمواج. أنا أتحدّث عن تجربة إنسانية معروفة. قديمة قدم الإنسان نفسه. ديالكتيكية الخير/الشر.

ـ ولكن تكيلا سبقك. بقرن كامل.

ـ صحيح! صحيح! وسوف يأتي بعد قرن كامل من يكتب قصيدة تتناصّ مع قصيدتي.

ـ هل تقصد أننا بصدد الظاهرة التي كان نقّاد العرب يسمّونها «وقع الحافر على الحافر»؟

بدأت هذ المخلوقة البحرية الحسناء تنرفزني. تنرفزني جداً. قلت بانفعال لم أحاول إخفاءه:

ـ نقّاد العرب؟ هاه! هل كان عند العرب نقّاد؟ هل كان المحنّطون الذين ألّفوا الكتب الصفراء المسجوعة يفهمون ألفباء الشعر؟ كانوا مبهورين بالألفاظ. «أرى قدمي أراق دمي». «فلمّا كلّ متني كلّمتني». ألفاظ. فقاعات صابونية لفظية. لو حدثتهم عن تجربة شعرية لما فهموا معنى «تجربة».

ـ عفواً يا أستاذ كنعان! كان نقّاد العرب القدامى يسمّون التجربة «المعنى» ويسمّون الشكل «المبنى». وكانوا يرون...

بدأت هذه المخلوقة تقطّع أعصابي تقطيعاً بصوتها المثلّج. ليتها غرقت في الباخرة التي وُلدت عليها. ليتها غرقت ولم يبق منها سوى جمجمة بشرية صامتة. استمرّ الصوت المثلّج يلخّص سخافات المحنّطين. قاطعتها بحزم:

ـ مبنى؟ من كم دور؟ معنى؟ اشمعنى؟ يا آنسة أمواج! لا يوجد نقد في التراث المحنّط. لا توجد سوى أحكام قراقوشية. مزاجية. «افرنقع فأنت أشعر العرب». «إجريْ يا بنت فأنت أشعر ذات ثديين»..

بدون أن أحس وجدت عيني تتسلل إلى صدر المخلوقة الشامخ تحت البلوزة. تلاحظ الخبيثة. وتبتسم. قلت على الفور:

ـ عفواً! عفواً! كنت أقصد...

ـ كنت تقصد الإشارة إلى ما قاله النابغة للخنساء عندما أنشدته في سوق عكاظ.

ـ بالتأكيد! المهمّ أن أصدقاءك هؤلاء كانوا يطلقون أحكاماً جزافية لا تعني شيئاً. فكّري قليلاً. كيف يستطيع إنسان لم يدرس البنيوية أن ينقد نصاً أدبياً؟ قال روبرت لاسيه..

ـ عفواً! تقصد جوزيف لاسيه؟

بدأت هذه البقرة الجميلة تغيظني. تغيظني بالفعل. قلت بصوت حاولت تحميله أقصى نبرات السخرية:

ـ جوزيف لاسيه. لا داعي أن أكرر ما قاله لأنك تعرفين كل ما قاله لأنك، على ما يظهر، تعرفين كل شيء.

لا يبدو أنها لاحظت السخرية. قالت بهدوء:

ـ أستاذ كنعان! كتاب جوزيف لاسيه «موت الشاعر» تجاوزه الزمن. تجاوزه الزمن فور صدوره في الخمسينات. أمّا كتب النقاد العرب الصفراء فلا تزال حيّة تنبض بالحياة. يكفي أن الجرجاني سبق كل نقاد العالم...

قاطعتها بحدّة:

ـ آنسة أمواج! أرجو المعذرة. دعي الكلام عن الجرجاني والأجزخاني للكلّية. وقتي مزدحم بعض الشيء. هل لديك سؤال آخر؟

ـ لديّ أسئلة كثيرة.

ـ لا يوجد لديّ وقت إلاّ لسؤال واحد.

ـ حسناً! أنا أرى في قصيدتك «ظل المرآة» ظلالاً كثيرة من قصيدة «أسئلة المرآة» للشاعر الإيرلندي سكوت ماكجريجر...

القشّة التي قصمت ظهري. دون أن أشعر وقفت وصرخت في وجه البقرة الجميلة:

ـ وأنا أرى أنك خرجت عن حدود الأدب الذي يجب أن تتحلّى به طالبة وهي تتحدّث مع أستاذ بوسعه أن يدرّس أساتذتها في الكلية وأرى...

قاطعني الصوت المثلّج:

ـ أشكرك مرة أخرى. سأرسل لك نسخة من البحث عندما ينتهي.

أخذتْ المُسجّل المُقزّم بهدوء. وقامتْ بهدوء. وعندما وصلتْ إلى الباب نظرتْ إليّ وابتسمت. صفعتني هبّة باردة من هواء ممتزج بعطر غامض. عليها اللعنة! وعلى التناصّ اللعنة! في فورة الغضب بدأت أكتب:

«في دورة المياه»

أجلس في دورة المياه
وأكتب على الحائط
أسماء جميع النقاد
وأسماء جميع الأساتذة
وأسماء جميع القراء
ثم أمسح الجدار
بورقة بيضاء
تتمسطع
وأضع الورقة في البالوعة
وأرقبها تتحول إسماً إسماً
إلى أمواج صغيرة
تطفو قليلاً
ثم تشربها البالوعة

اللقيطة المولودة على باخرة! باخرة/ مبغى! أرجو أن تقرأ القصيدة. أرجو أن تعرف أنّي حولتها إلى أمواج طافية على بالوعة. وأرجو أن تعثر على قصيدة هنغارية تتناص مع «في دورة المياه». اللقيطة بنت اللقيطة! أرجو ألا تقرأ القصيدة. وتكتشف أن كاتبها ليس الطفل/ المعجزة. أرجو أن تقرأها. أرجو أن تموت وأرتاح منها. أمواج البالوعة المنتنة!

الاثنين

قضيت معظم الصباح أحضّر للسفر. روتين لا ينتهي. عالم غريب مُعقّد. حتّى الشعراء يتعرّضون للإجراءات الروتينية. شأنهم شأن الجزّارين والحمّارين والقوّادين والمقاولين الفاسدين. الشعراء مخلوقات رقيقة. لم تُخلق للجوازات والتأشيرات. خُلقتْ للحسان والقصائد. عالم عربستاني تعس. لا تخرج من بلدك إلا بتأشيرة خروج. أخرج الله أرواحهم! ولا تزور بلداً عربستانياً شقيقاً إلا بتأشيرة دخول. أدخلهم الله جهنم! أمة عربستانية واحدة. بألف تأشيرة وتأشيرة. لو كنت ذاهباً إلى حمراء إسبانيا لفهمت معنى التأشيرة. أما في الحمراء العربستانية

فالتأشيرة شيء بذيء. شيء عاهر. وفي لقاء شعري! ألم يقل نزار قباني إن العصافير لا تطلب تأشيرة دخول؟ أليس الشعراء، أعني بعض الشعراء، أروع عصافير العالم؟ من حسن الحظ أن سكرتيرتي/ البقرة تولّت معظم الترتيبات. بقرة لا تخلو من فائدة، بخلاف زوجتي/ البقرة التي تضرّ ولا تنفع.

اتصلت، هاتفياً، برئيس الوفد، السيد وكيل الوزارة المساعد، لأتأكّد أن اسمي دخل القائمة. أكّد الوكيل المساعد أنني انضممت إلى الوفد. وأضاف:

- متى تريد أن تلقي قصائدك؟

قلت:

- لم أحضّر قصائد جديدة.

- تستطيع أن تلقي بعض قصائدك القديمة.

قلتُ بغيظ حاولت كتمانه:

- أنت تعرف نظريتي. كل الناس يعرفون نظريتي. ذهب زمان الشعر المسموع وجاء زمان الشعر المقروء. الذي كان الدكتور مندور يسميه الشعر المهموس. آن الأوان لكي نقضي على هذا التراث العفن الذي...

قاطعني الوكيل المساعد:

- هل أفهم من هذا أنك عدلت عن الحضور؟

قلت بسرعة البرق:

- لا! لا!

- كل شاعر يحضر اللقاء لا بُدّ أن يلقي شعراً. لا أريد أن يكون وفدنا النشاز الوحيد.

النشاز! النشاز؟! ما الذي يعرفه وكيل الوزارة المساعد/ البقرة عن الألحان والنشاز؟! زمان رديء يتحول فيه البيروقراطي البدين إلى رئيس وفد ويتحول فيه الشاعر المُجدّد إلى نشاز. قلت:

- سوف ألقي مختارات من دواويني المنشورة.

قال:

- ألقِ ما شئت. ولكن حاول أن تختار شيئاً مفهوماً.

كنت على وشك الاحتجاج عندما سمعت السمّاعة تهوي في الجانب الآخر. هذا البيروقراطي التافه المتعفن! يريد شعراً مفهوماً! قصيدة رنانة طنانة. البقرة ابن البقرة!

جاءت سكرتيرتي/ البقرة تذكّرني أن اليوم هو موعد تقديم مقالتي الأسبوعية لملحق «الآثار» الثقافي. نظرت إليها شزراً، وبعد خروجها بدأت الكتابة:

سيكولوجية القصيدة الحديثة

منذ أن أثبت فرويد أن التوازن النفسي للفرد يعتمد على العلاقة التناضحية بين الأنا العليا والأنا السفلى، والبحوث تدور على قدم وساق لمعرفة طبيعة التأثير الذي يلعبه التوازن التناضحي للشاعر على هيكلية القصيدة. في جامعة نوتنجهام تبيّن، مؤخّراً، أن انعدام هذا التوازن يؤدي، برتابة طقسية، إلى استطراق نوعي في مفصلية القصيدة المستخلقة. قال البروفسور وليم هاڤلاند في مقابلة نشرتها مجلة «السانداي تايمز» قبل أسبوعين إن فريق البحث الذي يرأسه في الجامعة المذكورة، والذي تموّل أعماله منحة سخية من مؤسسة «شوكبارك» استطاع بعد ٥ سنوات من التجارب المستمرة الوصول إلى نتائج مذهلة تبيّن دايلكتيكية الشاعر/ الشعر. وقال البروفسور هاڤلاند إن الفريق استخدم، لأول مرة، تكنيك تحليل الرؤى الشعرية التي تراود الشاعر وهو في الحالة الاستبطانية. وهذا التكنيك يعتمد على إعطاء الشعراء المُجرّب عليهم صدمات كهربائية خفيفة في أظافر الرجلين أثناء كتابتهم القصائد. هذه الصدمات تؤدّي إلى حدوث أمواج في المخّ (لعن الله أمواج! كلمة خطأ!) تموّجات في المخ يمكن قياسها ويمكن أن تعطى مؤشراً واضحاً مع نفسية الشاعر...

سوف يظهر المقال في صفحتين كاملتين من الملحق. وسوف يصدّق البقر كل غرائبه وعجائبه. سوف يصدّقون أن هناك شعراء تُجرى عليهم تجارب كهربائية في جامعة نوتنجهام. وسوف يصدقون أن التجارب انتهت إلى نتائج مثيرة تقلب كثيراً من المفاهيم. سوف يصدّق الجميع إلاّ تلك اللقيطة البحرية: أمواج!

نظرت إلى قائمة الشعراء المشاركين في لقاء الحمراء. بهيج العوّاد. شاعر مومياني مُحنّط. رأفت جريدي. ديناصور منقرض يقضم النظم الركيك. نعناع فصادة. صعلوك يعتقد أنه شاعر حديث. ماذا يتوقع العاقل من إنسان اسمه فصادة؟ ومازن الحنبكي. مومياء فعلاً لا مجازاً. تجاوز التسعين. ماذا يفعل هذا الميت/ الحيّ هنا؟ آه! كدت أنسى! السيد وكيل الوزارة صديقي ونصير الأطفال/ المعجزات متزوج من ابنة الحنبكي. وهناك ثالثة الأثافي. (ما هي الأثافي؟! الله أعلم). ميّ البصلاوي. الدبابة البشرية. الشحمة الناطقة. بقرة تنظم الشعر. الشعر

الحديث! يجب إصدار قانون يمنع كل مخلوق تجاوز وزنه ٧٠كلجم من قول الشعر. وهذه الكتلة الشحمية تجاوز وزنها ١٠٠ كلجم طبقاً لآخر تقدير (من يجرؤ على سؤالها؟ أو وزنها؟). وتكتب أشعار الحب. الحبّ يا عالم! وأي نوع من أنواع الحب؟ الحبّ الشهواني. ما الذي تعرفه هذه البقرة المترهلة عن حب الشهوة أو شهوة الحب؟ لا أعتقد أنها عرفت في حياتها حُبّاً غير حب الفول والعدس. وفد من الشعراء البقر. وماذا أفعل أنا هنا؟ ومضة من العبقرية في قطيع. ماذا أفعل هنا؟ أتفرّج على البقر. وأتسلّى. وأضحك. وأفوز بالهدايا التذكارية التي تقدم في كل لقاء عربستاني.

الثلاثاء

الحمراء. عربستان X

وصلنا في الضحى. واستقر بنا المقام في فندق «الساحل». القذرون أبناء القذرين! الخنازير أبناء الخنازير! منظّمو اللقاء. جناح لوكيل الوزير المساعد وفهمنا. رئيس الوفد. ولكن بأي حق يخصصون لمازن الحنبكي جناحاً؟ بأي حق؟ صعاليك البيروقراطية! وأتْرك أنا، الشاعر الحقيقي، في هذه الغرفة الضيّقة؟ في هذه الزنزانة التي لا تطل على شيء؟ أنا مفجّر اللغة ومثوّرها ومقنبلها ومزرنخها.

طرقة خفيفة على الباب. فتحت لأجد مفاجأة لا تُصدّق. امرأة جميلة. امرأة جميلة جداً. في هذا الزمان البقري القبيح الرديء. استأذنتْ في الدخول. وأذنت. جلستْ على مقعد في الغرفة الضيّقة، وغرّدتْ:

- بإسم وزارة الثقافة والإنعاش أحيّيك في وطنك الثاني. أنا بسيمة سواكن، مسئول قسم الشعر في الوزارة، وعضو لجنة تنظيم اللقاء. أرجو يا أستاذ كنعان أن يكون كل شيء على ما يرام.

لا! لا! كل شيء زفت وطين وهباب ونيله يا بسيمة سواكن! إلاّ أنني تقديراً لجمالك لن أنفجر. سوف أعبّر عن إستيائي بطريقة حضارية:

- كنت آمل أن تكون غرفتي مُطلّة على البحر. من الفاجع أن يكون شاعر في الحمراء عروس الشواطىء ولا يرى أمواج (لعن الله أمواج!) أعني ولا يرى البحر.

ابتسمت الجميلة وغنّتْ:

ـ أستاذ كنعان! أنت تحمل البحر معك حيث تذهب. أنت البحر. تذكّرْ قولك في قصيدة «الطحلب»:

ممتلئة أنتِ بي
حتى التولوع
ممتلئة أنتِ بي
لا مفرّ
لا مفرّ
أنت طحلب من طحالبي!

هذه المرأة الجميلة جداً تحفظ قصيدتي. ويقول النقّاد/ البقر إن الشعر الحديث لا يُحفظ. ليتهم كانوا الآن هنا ليسمعوها تغنّي ـ أي نعم تغنّي ـ قصيدة من الشعر الحديث. قبل أن أفيق من الصدمة اللذيذة استمرت بسيمة في التغريد:

ـ وتذكّر، أستاذي الحبيب، ما قلته في قصيدتك «المحارة لا تفترس أحداً»:

اللؤلؤة أنتِ
حبّة رملٍ أنتِ
أضناها الإستسهاد
والمحارة تحتضنها
وأنا تحتك وفوقك وبينك
المحارة أنا
والمحيط أنا

نسيتُ الغرفة الضيّقة البعيدة عن البحر. نسيتُ الخنازير أبناء الخنازير. وقلت للجميلة المُغرّدة:

ـ بسيمة! كم قصيدة من قصائدي تحفظين؟

قالت على الفور:

ـ كلها.

قلت باستغراب حقيقي:

ـ كلها؟! حتى أنا لا أحفظ قصائدي كلّها.

- على الأقل القصائد المنشورة في مجموعاتك التي قرأتها. «الصبارة قلب الوردة مخالب» و «دراكيولا الفرح الشاحب» و «عِنّة الشبق». هل هناك مجموعات أخرى؟

- هناك مجموعة في الطريق.

- ما اسمها؟

- «بسيمة المواسم الواعدة».

غرّدتْ الجميلة وهي تضحك. أو ضحكت وهي تغرّد:

- أستاذي الحبيب! أنت تجاملني. ما اسم المجموعة الحقيقي؟

هذه ثاني مرة تقولها. أستاذي الحبيب. الحبيب؟! هل تقصد ما تقول؟ سُمّيتُ أستاذاً ألف مرة. إلا أني لم أسمع كلمة الأستاذ الحبيب قبل اليوم. لا أعتقد أن هذه الجميلة المثقفة تطلق الأوصاف جزافاً.

قلت:

- «مواسم الأحلام الكاسدة».

ابتسمت وهي تشدو:

- اسم رائع. كالعادة. هل أطمع في نسخة مُوقّعة؟

- سوف تكون عندك فور صدورها.

- فور صدورها؟ هل سترسلها «بالإنترنت»؟

«الإنترنت»! ما هو «الإنترنت»؟! لم أرد أن أسأل الجميلة المثقفة حتى لا تتهمني بالمومياثية المستحنطة. قلت:

- نعم.

- حقاً؟ حقاً؟ هل سبق أن أرسلت مجموعة شعرية «بالإنترنت»؟

لا حول ولا قوة إلاّ بالله! أظن - والشاعر يكفيه حدسه - إن هذا اسم خدمة بريدية سريعة جديدة. قرّرت أن أنهي هذا البحث «الإنترنتي» فوراً:

- سوف تكون عندك. والسلام!

ابتسمت الجميلة وقالت:

- كنت تتحدث عن الغرفة وأنها بعيدة عن. . .

قاطعتها:

ـ لا يهم يا بسيمة. أعني يا أخت بسيمة. كما قلتِ أنا أحمل بحري معي.

صمتتْ الجميلة قليلاً ثم همستْ:

ـ سوف تتاح لك فرصة مشاهدة البحر. في ضوء القمر.

قلت وأنفاسي تتلاحق:

ـ ماذا تقصدين؟

بدأت تغرّد بالكلمات:

ـ أريد أن أدعوك إلى شقّتي. بعد اجتماع المساء. سنجلس على الشرفة المطلّة على البحر. تستطيع أن ترى البحر وهو يعانق القمر. تستطيع أن تنشدني قصيدتك «عندما طعنوا القمر كنت أنا الخنجر». آه! ما أروع هذه القصيدة. أبكي كلّما قرأت هذا المقطع:

بي أنا
طعنوا القمر
الذي نظر إليّ نظرة مليئة بالوناح
وهمس:
«حتّى أنت؟!»
ولكنهم دفعوا بي في قلبه
وتوقف القمر عن الكلام
قبل أن يكمل الجملة.

كانت هناك، بالفعل، دموع تلمع في عينيها. ويقول النقاد/البقر إن الشعر الحديث لا يحرّك المشاعر. الخنازير أبناء الخنازير! هذه المرأة الجميلة جداً تبكي ـ تبكي يا عالم! ـ وهي تقرأ شعري.

قالت الجميلة:

ـ سوف نذهب في العاشرة. أنتظرك عند مدخل الفندق.

تمتمت:

ـ شرف عظيم! شرف كبير!

عندما خرجتْ الجميلة أدركت لماذا قادتني غريزتي الشاعرة إلى الحمراء. كنت أدرك بعيون الشاعر الباطنة التي تفترس الحجب أن القدر يخبّىء لي هذه المرأة الفاتنة. تلميذتي الحبيبة! كم أتمنّى أن يكون كل المحنطين بقرب المدخل ليرونا

نخرج معاً. الحب/ الجمال/ الشعر. الثالوث الأزلي. الثالوث الأبدي.

في الرابعة بدأ اجتماع العصر. شعراء يهبّون. وشعراء يدبّون. شعراء بلا شعر. فقاعات لفظية تتفجر من الأشداق مع اللعاب. وجمهور بقري لا يصفّق إلا للكلام الخسيس. الذي يتملّق عواطفه البقرية. ألقى بهيج العوّاد منظومة قال فيها:

حمراء! كم تخدع الأشياءَ أسماءُ ∴ البحر أخضرُ.. والشطآن زرقاءُ

يا سمّ! علبة تلوين! أحمر وأخضر وأزرق! وماذا عن البنّي والكحلي والبنفسجي؟

وانطلق صوته ينهق:

الحب ملحمةٌ.. والقرب مغنمةٌ ∴ والبعد مغرمةٌ.. والشوقُ معطاءُ

وضجّت القاعة بالتصفيق. على هذا الجمهور البقري اللعنة! راودتني رغبة قوية في أن أقف وأصرخ بأعلى صوتي:

الشكل لخبطةٌ.. والشعر شخبطةٌ ∴ والجوّ لعبطةٌ.. والإسم حرباءُ

لم يمنعني من الوقوف إلاّ القسم الذي أقسمته ذات مساء ممطر في نونتنجهام وكنت في حانة «الثعلب الأبيض» مع صديقتي الشقراء جين جنجربرد. أقسمت أمامها ألا أكتب بيتاً واحداً من النظم الموزون المقفّى. ووفيت بقسمي. على الذين يريدون الوزن أن يذهبوا إلى سوق الجزّارين. وعلى الذين يعشقون البحور أن يشربوا ماءها. حتى الثمالة.

صرخ بهيج وكأنه جمل يعاني الإمساك الشديد:

حملتُ قلبي على كفّي.. فأرهقها ∴ فهل تخفّ لحمل العبء حسناءُ؟!

سخافات مُجترّة من ألف سنة. والجمهور البقري يصفق بحرارة. ده بعدك يا أبو العواويد! لا حسناء ولا شوهاء. لم يكن في اجتماع العصر أيّ شعر باستثناء قصيدة واحدة ألقتها شاعرة شقراء نحيلة. قلت شقراء ولم أقل جميلة. قالت:

أتسلّل كالڤيروسه حين تنام
إلى أقصى أقصى أقصى ذرّاتك
أعلن فيها منها الحرب على ما تحمل من
بُقيا الندم. أُطهّرك بأوجاعي من كل
نواياك الطيّبة الطيبة الطيبة. ومن

كل أحاسيس العفة. أسترقُ براءتك
الممجوجة أحرقها حرقاً حرقاً حرقاً حتى
لا تتأفف من نكهة أسناني الشرسة.

البراءة الممجوجة! هذا هو الشعر! والجمهور البقري يستمع بوجوم. لا يصفّق. ولا يفهم. سوف أطلب من الشقراء النحيلة أن تعطيني القصيدة لنشرها في «النفس الشعري الحديث».

في اجتماع المساء كانت هناك أطنان من «القفانبكيات» و «الدارعبليات» وأطنان من التصفيق. شاعر واحد، واحد فقط، هو الذي شدّ انتباهي. شاعر أصلع أعور ألقى قصيدة جميلة قال فيها:

وأنا، سيّدة الأسرار، لم أشرب
من الكحل سوى شهقته الأولى.
ولم أرقص مع السمّ الذي يعصره
العنكب في أوردتي حين طغا كحلك
في السمّ. وغار السمّ من كحلك
لا أدري أسمّي كان أم سُمّكِ
أم كنا القتيلين وكان الجسد
المشبوح بالأسرار كان المشنقة.

الرقص مع السم. رمز مشع. رمز فوق مستوى القطيع. الذي كان يستمع وهو نائم. ولم يصح من النوم إلا عندما بدأ رأفت جريدي ينبح. الجمهور البقري الذي صفق بحرارة عندما قال المحنّط:

حمراء! لولا أن حبك موطني ∴ لنبذته.. وتخذتُ منك الموطنا

«هيك جمهور بدو هيك شعر» كما يقول صديقي الشاعر الرائد رينيه أبو غراب كلّما التقى بقطيع من قطعان الأمسيات الشعرية.

بدأ اجتماع المساء. وبدأ قلبي يرفرف. وبسيمه تدور في القاعة. كدت أنسى أنها عضو لجنة التنظيم. العضو الجنسي!. هاه! هاه! نكتة شعرية باردة. تدور وتبتسم. وتشير، بطرف خفي، إلى الساعة الكبيرة المعلّقة في صدر القاعة. تذكّرني بالموعد الذي لن أنساه. ومن حولي الفقاعات اللفظية تواصل الإنفجار. مفرقعات تفزع أشجع الشجعان. والمحنطون يصفقون كل القاذورات التي اجتروها

من قيء البديع. لم يكن هناك سوى شاعر واحد، شاعر واحد فقط، استرعى انتباهي وشفى غليلي من القطيع. قال:

قلتُ لكم قلتُ لكم قلتُ لكم
من منبركم هذا المتيَن. قلتُ
لكم: أولاد القردة! إنّي أكرهكم
قرداً قرداً. قلت لكم إن حذائي
المتمزّق هذا أنظف من أنظفكم.
قلت لكم أندرويري المستفلس
هذا أشرف من أشرفكم. قلت لكم
إني أبغضكم بغض الإسهال وبغض
الغازات.. وبغضي أمريكا.

قابل الجمهور القصيدة بضحكات مجلجلة. جمهور يُشتَم وهو يضحك.. قرداً قرداً!

بعد الاجتماع وجدت نفسي أطير لأستقرّ مع بسيمة في سيّارتها الصغيرة. كانت تقود السيارة والنسمات تعابث شعرها. استعرضنا ما قيل في الاجتماعات وكان رأيها متطابقاً مع رأيي. ما أحلى أن يجد الشاعر امرأة جميلة قادرة على التفرقة بين الشعر النابض بالحياة المبوثقة وبين النظم المتبطرخ بالموت المهترىء. وجدت نفسي، بعد دقائق، معها في الشرفة. نطلّ على البحر الذي يغازل أشعة القمر. بدأت أنشدها مختارات من شعري. بعد القصيدة الثالثة اقتحم علينا الشرفة، بغتة، رجل ضخم توجّه، مباشرة، إلى بسيمة وقبّلها. واتجه إلي يصافحني وبسيمة تقول:

ـ أستاذ كنعان! زوجي صبيح. هو، أيضاً، معجب بك.

بدأ صبيح يثرثر. قال إنه يعتبر اللحظة التي رآني فيها أسعد لحظة في حياته. واستطرد، واستطرد. إلاّ أني كنت أغلي بغيظ مستكبت. بعد ثلث ساعة استأذنت من الزوجين السعيدين. وتطوّع الزوج الضخم بإيصالي إلى الفندق. طيلة الطريق كان يقرأ قصائدي. سبحان الله! زوج ضخم يحفظ قصائدي. سبحان الله! ما أعظم الفارق بين قصائدي حين تغرد بها المرأة الجميلة، وقصائدي حين يخور بها هذا الثور.

في مصعد الفندق رأيت ميّ البصلاوي تنوء بأحمال الشحم. والشعر ربّما. تبادلنا التحية. وغادرنا المصعد معاً. قلتُ لميّ:

ـ وضعوني في غرفة لا تشمّ رائحة البحر.

وقالت ميّ على الفور:

ـ تعال معي. غرفتي تطلّ على البحر مباشرة.

لم أكن لأستجيب لهذه الدعوة المفتوحة من هذه الكتلة الشحمية الرجراجة لولا الغضب المستحبس الذي كان يفور في أعماقي. لولا رغبة الانتقام من بسيمة سواكن. البقرة الجميلة المتزوجة! وكيف يمكن معاقبة الجمال إلاّ بمنادمة القبح؟

جلست في الشرفة مع الكتلة صامتيْن حتى قالت:

ـ لماذا لا نكون ضيفين عند باخوس؟

تعرف الكتلة الشحمية باخوس! ابتسمتُ. ووافقتُ على الفكرة. وتكلمت الكتلة الشحمية في التيلفون. وجاء جرسون بزجاجتين من النبيذ الأبيض. وبدأنا نستمتع بضيافة باخوس. بدأنا نتناشد الشعر. بدأت هي. وتبعتها أنا. وعادت هي. وعدت أنا. وجاءت زجاجتان جديدتان. وبدأ شيء غريب جداً يحدث. بدأ الشحم يختفي ويتطاير. بدأ الوزن يتناقص ويتلاشى. بدأ الحجم يضمر ويصغر. سمعت نفسي أقول لها:

غابتي المسحورة أنت
غابتي الساحرة العجوز
الساحرة الصبيّة
الساحرة الجنين
غابة الكهف المتمزرد
وأنا الصياد المذعور
اتفوقف
وأبحث.. وأبحث
عن كهفك المتمزرد

بدأت مي البصلاوي تقترب مني. وبدأتْ تقبّلني. وبدأت أقبّلها. لا أدري كيف طرنا من الشرفة، كفراشتين، وحططنا على الفراش. سمعتُ صوتها مثيراً

قادماً من الغابات والكهوف:

رغبتي أفعى مُلوّنة
تلتفّ حولك.
تكسر ضلوعك.. ضلعاً فضلعاً
وتزرع مكان كل ضلع
فماً أحمر الأنياب
يمتصُّ الأفعى

سمعت أصواتاً غريبة. صوت قطط تموء. صوت أفاعٍ تفحّ. صوت سرير يصرصر. ثم لم أعد أسمع شيئاً.

الأربعاء

الحمراء. عربستان X

أيقظني رنين التيلفون المتواصل. رفعت السماعة وقلت بصوت حاولت أن أحمله غضب كل البراكين المتفجرة:

ـ هللو!

جاء صوت السيد وكيل الوزارة المساعد:

ـ من أنت؟

ـ كنعان.

ـ ماذا تفعل في غرفة ميّ؟

ـ أنا في غرفتي.

ـ حسناً! ربما أدرت رقم الغرفة الخطأ. كنت أنوي أن أطلبك بعد الحديث مع ميّ على أية حال.

ـ خير؟!

ـ لماذا تأخرت في النزول؟

ـ إسهال. إسهال فظيع.

ـ وماذا عن قصائدك؟ موعدك هذا الصباح.

ـ هذا الصباح؟ مستحيل! إسهال فظيع.

ـ وماذا نفعل؟

ـ أرجو أن تطلب تأجيل دوري إلى إجتماع العصر.

هوت السماعة في الجانب الآخر. يبدو أن السيد وكيل الوزارة المساعد لا يعرف كيف ينهي أي مكالمة بأية طريقة أخرى. التفت لأجد بقرة متشحمة متفسّخة نائمة بقربي. وهي تخور. بقرة عارية! عارية تماماً! طبقات من الشحم وراء طبقات. أثداء مترهلة. بطن منبعج. وجه يسيح. بقع حمراء منتشرة عبر الجسد كله. آثار أسنان. أسنان؟! من الذي كان يعضّ هذه البقرة السمينة؟ جاء الجواب كالصاعقة. أنا الذي كنت أعضّ هذه البقرة السمينة. أنا الذي قضيت الليلة في أحضانها. أعني في شحومها. ماذا حدث؟! ماذا حدث؟! لعن الله باخوس! ارتديت ثيابي وغادرت الغرفة على عجل، وخوار البقرة العارية يملأ الكون.

في حمّامي، وقفت طويلاً تحت الدشّ البارد. صداع رهيب. كان المحنّطون يسمون هذه الأعراض الخُمار. أما توماس ديلون فكان يسمّيها «الهانج أوفر». وكان كثيراً ما يعاني منها. ووصف العلاج: «شعرة من ذيل الكلب الذي عضّك». أو كما قال المحنّط «وداوني بالتي كانت هي الداءُ». ولكن الوقت لا يزال مبكراً. لا يشرب في هذا الوقت إلا الكحوليون. الحادية عشرة صباحاً. كم ساعة نمت؟ ومتى نمت؟ وكيف نمت؟ باخوس! أعظم القوّادين فعالية في التاريخ. البقرة بنت البقرة! اغتصبتني اغتصاباً. لم أكن في كامل وعيي. ولا حتّى في ناقص وعيي. البقرة الشهوانية المغتصبة! لا بُدّ من الانتقام. قصيدة جديدة من قصائد الطفل/ المعجزة:

«دفتر الواجب»

أرسم على الصفحة الأولى معلّمتي

أرسمها على الصفحة الثانية تنيناً

وعلى الثالثة سعلاة

وعلى الرابعة غولاً

وعلى الخامسة تمساحاً

وعلى الصفحة الأخيرة

سرطعة
على الصفحة الأخيرة
لا شيء!

هكذا حولت البقرة الشبقة إلى تنين وسعلاة وغول وتمساح وسرطعة. ما هي السرطعة؟ هي ميّ البصلاوي. هكذا طردتها من خلاياي. هكذا يطردُ الشعر الأرواح الشريرة.

نزلت إلى القاعة واجتماع الصباح يوشك أن ينتهي. سمعت أن مازن الحنبكي أُغمي عليه بعد قراءة بيتين من قصيدته. كان اسم القصيدة «نهوض الأمم بسموّ أخلاق أفرادها» وكانت مكونة من ٢٩٩ بيت. جمهور بقري سعيد الحظ. أنقذه القدر من ملحمة الحنبكي. انتبهت على صوت آخر شعراء الصباح يصرخ من المنبر:

اقتلوني!
اقتلوني!
فأنا من عاث في زوجاتكم
وأنا من داس في حرماتكم
وأنا من هام في بستانكم.. حرقاً..
وبرقاً.. واغتصابا
اقتلوني!
اقتلوني!
وزّعوا لحمي على الغربان.. بدءًا بعيوني

راودتني رغبة حقيقية في قتله أمام الناس. لعن الله الخمار! تمكنت، بصعوبة شديدة، من مقاومة الرغبة. إلا أنني لم أستطع مقاومة الشعور الأكيد أن رجاء هذا الشاعر الإنتحاري سوف يتحقق في يوم قريب.

في اجتماع العصر ألقيت مقتطفات من بعض قصائدي الشهيرة. وقوبل الشعر الرائع بالصمت الفاجع. حتى قصيدتي التي سحرت المريدين والمعجبين من المحيط إلى الخليج «بنزيف الشهوة أصبغ عمودك الفقري»، حتّى هذه القصيدة التاريخية لم تحرّك أحداً. عندما بدأت أقرأ «غابتي المسحورة أنت» قاطعني

الضجيج. خيل إليّ، في لحظة وامضة، أن جمهور البقر بدأ، بغتة، يتذوّق الشعر. ثم اكتشفتُ مصدر الضجيج. ميّ البصلاوي في الصف الثالث. تصفّق. كان اصطفاق يديها يحدث صوتاً لا يختلف كثيراً عن صوت الصواعق. نظرت إليها بحنق. وكفّتْ عن الإرعاد. واصلتُ القراءة. وواصل الجمهور الغبيّ صمته الغبيّ. قرداً قرداً!

عندما رجعتُ إلى غرفتي وجدت علبة ملفوفة بورق هدايا مزركش، تحمل اسمي، وبطاقة من وزير الثقافة والإنعاش. تسارعت دقّات قلبي. لا بُد أن هذه هي ساعة «الرولكس» التي يتحدّث عنها روّاد المؤتمرات. فتحت العلبة بيد ترتجف. اللعنة! اللعنة! اللعنة! القرد ابن القردة! معالي الوزير القرد ابن القردة! كتيّبات عن النهضة الصناعية والزراعية في عربستان X. اللعنة على النهضة الصناعية! واللعنة على النهضة الزراعية! واللعنة على عربستان X! واللعنة على لقاء الحمراء الشعري! واللعنة على عضو لجنة تنظيم اللقاء! دولة غير نفطية، وفهمنا. لا توجد ساعة «رولكس»، وفهمنا. ولكن ألا يوجد حل وسط بين الساعات والكتيبات؟ صندوق من الخوخ، مثلاً. أليس الخوخ دليل نهضة زراعية؟ صندوق من النبيذ، مثلاً. أليس النبيذ صناعة وطنية؟ عالم رديء! عالم بقري! كتيبات وإحصائيات وأرقام تقدّم لشاعر!

قررت، إحتجاجاً على الهدية المسخ، مقاطعة الإجتماع الختامي. ذهبت إلى حانة الفندق. هناك وجدت نعناع فصادة الذي يبدو أنه، بدوره، قرّر مقاطعة الاجتماع. استقبلني بالاسم الذي يعرف تمام المعرفة أنني أكرهه:

- سلامات يا أبو الفلافل!

ورددت عليه بالاسم الذي أعرف تمام المعرفة أنه يكرهه:

- سلام يا أبو فصادة!

جلست بقربه. وبدأنا نشتم اللقاء. والمشاركين والمشاركات. والمنظّمين والمنظّمات. ووزارة الثقافة والإنعاش. كنا في ضيافة باخوس نحتسي النبيذ. ونضحك عندما هبط علينا، كقنبلة نووية مستعجلة، الشعرور المحنط رأفت جريدي. جلس على طاولتنا، بلا سلام ولا كلام، وبدأ المحاضرة المعهودة:

- فوضى! يجب منع الحُداثيين من هذه اللقاءات. هل نحن أعارب أم أعاجم؟ فوضى! هذا لقاء شعر لا شعيرية. ما هذه الألفاظ المُقزّزة؟ ما هذه التعبيرات النابية؟. وا عروبتاه! وا أرومتاه! ما هذه الحملات على الأمة وتراثها؟ (قالها وهو

يعبّ كأساً من النبيذ الأحمر). ما هذه الجرأة على المقدسات؟ (قالها وهو يعبّ كأساً آخر).

قال نعناع فصادة بصوته الذي يذكّرني بصنبور انقطع ماؤه:

ـ اهدأ، يا جريدي، اهدأ. تغيّرت الدنيا. ولا بد أن يتغيّر الشعر. لم نعد في عصر الناقة. نحن الآن في عصر «الإنترنت؟».

هذه الكلمة اللعينة مرّة أخرى! ما هو «الإنترنت» بحقّ السماء؟ لماذا لا يتطوع أحد بإخباري؟ لماذا أضطر إلى السؤال المُذلّ؟ يبدو أن المُحنّط لم يفهم، هو الآخر، معنى «الإنترنت». صرخ في نعناع:

ـ «إنترنت» في عينك! قصيدة نثر في عينك! طُزْ في «الإنترنت»! وطُزْ في قصيدة النثر! الشعر الخالد لا يتغيّر. المضامين المجيدة تبقى هي هي. المقدّسات (قال هذا وهو يملأ الكأس بالنبيذ الأحمر) لا تتبدل.

لا أدري لماذا فقدت، فجأة، السيطرة على أعصابي، قلتُ له:

ـ اسمع يا مُحنّط! اسمع يا داينصور! لقد انقرضْت أنت وأمثالك. انقرضتمْ ولم تشعروا. مُتّم! ولم يبق إلاّ أن ندفنكم في «الإنترنت». لم يبق إلاّ . . .

قام رأفت جريدي وتناول زجاجة النبيذ الأحمر وسكب محتوياتها على بدلتي البيضاء. بدلتي التي كلّفت ٣٠٠ دولار اقتبستها من مكافأة الطفل/المعجزة. البدلة الجميلة الجديدة التي خصّصتها للإجتماعات الشعرية. البدلة التي سمّيتها «فلّة المواسم». بدلتي الشاركسكن. تحوّلتْ أمام عينيّ إلى جثة طعينة غسيلة بالدماء. حاولت أن أنهض لأضرب المحنّط بحذائي. إلا أنني شعرت برغبة عارمة في البكاء. وبقيت في مقعدي. وبكيت بحرقة. نظر نعناع إلى رأفت. وضحك اللعينان. وانسلاّ من الحانة. وتركاني ألعلع بمفردي.

وصلت غرفتي في مزاج أسود سوداوي. يوم مشئوم من البداية إلى النهاية. لقاء مشئوم من أوّل لحظة إلى آخر لحظة. مزّقت كتيّبات النهضة الصناعية والزراعية وقذفتها في سلّة المهملات. ثم بصقتُ عليها. طلبت ليموناً وعصرته على البقع الحمراء. أنهيت تحضير حقيبتي. قرّرت أن أداوي الداء بالداء. جاءت زجاجتان. وبدأتْ ضيافة باخوس. سمعتُ قرعاً خفيفاً على الباب. ذهبت، متوجّساً، أتوقّع أسوأ الاحتمالات. فُتِح الباب وانسلّ طيف جميل مُعطّر إلى الغرفة. بسيمة! كانت ترتدي ثوباً مفتوح العنق. يكاد يكون مفتوح الصدر. تكاد ترى هضبة الياسمين. صرفت بصري بصعوبة، وقلت بغلظة:

ـ أهلاً مدام سواكن. أيّ خدمة؟!
ضحكتْ ولم تجب. قلتُ:
ـ هل هناك مفاجآت أخرى؟ هل هي حماتك هذه المرّة؟
ضحكتْ. وقالت برقة:
ـ آسفة. أعتذر، بحرارة، عمّا حدث.
ـ هل كان من الضروري أن تضعيني في ذلك الموقف المحرج؟
احمرّ خدّاها. وبدأتْ تغرّد:
ـ صدّقني أن ما حدث كان مفاجأة لي. كان المفروض أن يقضي الليلة، بأكملها، خارج الحمراء. كان في مهمّة. إلا أنه أنجزها وجاء قبل الموعد المُقرّر. دخل، كما رأيت، فجأة. من حسن الحظ أنه معجب بك جداً وإلا كنت سأجد صعوبة في تفسير وجودك. كان يمكن أن يسيء الظن بي.
ـ لا شيء يسعدني أكثر من زوج حسن الظن يطبّ عليّ بغتة وأنا مع زوجته.
ضحكتْ من جديد. وعاودت التغريد:
ـ أستاذي الحبيب! انس البارحة. أرجوك. انسَ البارحة. جئتُ الليلة لأعوّضك. ولأعوّض نفسي.
بدأتْ المقاومة تضعف. وبدأتْ عيني تنظر إلى هضبة الياسمين. قلتُ بحذر:
ـ وماذا عن المحروس؟
ـ خارج الحمراء. لن يعود الليلة. أنا متأكدة هذه المرّة. أقسم لك.
ـ أقسمي إذا شئت. ولكني لن أذهب معك إلى الشقّة.
شدتْ بأعذب لحن سمعته في حياتي:
ـ أستاذي الحبيب! لا أتوقّع منك أن تذهب إلى شقّتي. ولا تتوقع مني أن أخرج من غرفتك. هذه فرصة العمر. فرصة الدهر. لن أسمح لنفسي بأن أضيّعها. من يدري إذا كنا سنلتقي مرة أخرى.
قلت مذهولاً:
ـ ماذا تقصدين؟
لم تتكلّم المرأة الجميلة جداً. اقتربتْ مني. ثم اقتربتْ. ثم أطبق فمها على فمي. اشتعلت كل مخازن البارود في جسدي. كلّها! لم أكن أعرف أن بوسع قبلة أن تتحوّل إلى انفجار ذرّي. وتلتْ القبلة أخرى. وبدأت تتأوّه. ومع التأوّهات جاءت الهمسات:

ـ أخيراً! بعد سنين من الانتظار. أضمك إلى صدري. كنعاني! كنعاني أنا! كنعاني الحبيب! شاعري! أخيراً أقبّلك كما كنت أقبّل دواوينك. وأرشفك كما كنت أرشف قصائدك. آه! كم حلمتُ بهذه اللحظة. وجاء الواقع أجمل من الحلم. قُل إنك تحبني. حبيبي! شاعري! شاعري الأوحد! حبيبي الأوحد! هل تعرف شعوري الآن؟ أشعر أني أقبّل كل رجل في التاريخ. أتوهّج كما توهجت ليلى...

وكنت بين القبلات ألهث:

ـ بسيمة! بسيمة المواسم الواعدة! من أين جئت؟ كيف طلعتِ عليّ في عالم البقر هذا؟ أنت امرأة لا تُصدّق. أنتِ الأنوثة مختزلة. أين كنت طيلة هذه السنين؟ كيف سمحت لي بإهدار عمري بدونك؟ لماذا لم تجيئي لمقابلتي؟ هذا عصر «الإنترنت». بسيمة! بسيمة! بسيمة! أحبك! بسيمة! بسيمة! بسيمة!

وجدنا نفسينا على الفراش. وامتدّت يدي إلى هضبة الياسمين وبدأت أرتعش. وبدأت بسيمة ترتعش. قطع علينا ارتعاشنا قرعٌ على الباب بدأ خفيفاً ثم ازداد حدّة. فتحتُ الباب بحذر. وجدت نفسي أتراجع إلى الخلف أمام كتلة شحمية رجراجة. نظرتْ مي البصلاوي إلى بسيمة ونظرت إليّ وقالت:

ـ ماذا تفعل هذه المخلوقة هنا؟

لسبب لم أستطع تبيّنه بدأتْ بسيمة تضحك.

قلتُ بحزم:

ـ آنسة ميّ! ماذا تفعلين هنا؟ ألا ترين أني مشغول؟ ألا ترين أن معي ضيفا؟

فحّت مي البصلاوي فحيحاً جعلني أتخيل تنيناً مبتلى بالبواسير:

ـ ضيف؟! هذه المتبرجة نصف العارية ضيف؟ ماذا تفعل هذه المرأة هنا؟ وعلى السرير؟

استجمعتُ شجاعتي وقلت:

ـ ميّ! لا تتدخلي فيما لا يعنيك. اذهبي الآن! رجاءً! اذهبي!

عاد الضجيج:

ـ لا يعنيني؟ وهل أتيتُ متطفّلة؟ هل جئتُ من الشارع؟ هل جئت بلا دعوة؟

ألم نتفق البارحة على اللقاء عندك هنا؟ وفي هذه الساعة؟

قلت بصوت متحشرج:

ـ البارحة؟ البارحة لم أكن في وعيي. فعلتُ أشياء لم أقصدها. وقلت أشياء لم أعنها.

بدأت ضحكة بسيمة تتحول إلى قهقهة عالية. واقتربتْ الكتلة الشحمية الرجراجة مني. فوجئت بطنٍ من الصُلبْ يستقر تحت عيني اليمنى. يبدو أن البقرة ركلتني. أو لكمتني. أو نطحتني. لا أدري ما حدث. كل ما أدريه أني سقطت على الأرض. واتجهتْ الكتلة الشحمية الرجراجة في اتجاه بسيمة التي قفزت إلى الباب بسرعة البرق وانطلقتْ وصوت ضحكاتها يملأ الممرّ. انطلقتْ الكتلة وراءها، محدثة أصواتاً لا تختلف عن أصوات القطار. أعتقد أني نمت على الفور. حلمت، طيلة الليل، بقطار يمرّ عليّ ويكسر ضلوعي، ضلعاً ضلعاً.

الخميس

العاصمة. عربستان X

عدت إلى الوطن بمزاج سيء ازداد سوءاً بمجرّد دخولي المنزل. لاحظتْ زوجتي/البقرة البقعة السوداء التي تجثم، كالغراب، تحت عيني اليمنى. قالت:

ـ هل كنت سكران كالعادة؟

ـ لم أكن سكران يا امرأة.

ـ ماذا حدث لعينك؟

ـ لم يحدث شيء.

ـ هل ضربك زوج تحرشتْ بزوجته؟

ـ اعقلي يا امرأة! منذ متى كنت أتحرش بزوجات الناس؟

ـ منذ عرفتك.

ـ دعي اليوم يمرّ بخير.

ـ ماذا حدث لعينك؟

ـ وقفتُ على الصابونة في البانيو. وتزحلقت. تزحلقت! تزحلقت! هل تسمعين؟

ـ وسقطت على عينك؟

ـ سقطت والسلام. يبدو أن شيئاً ضرب عيني.

ـ هل تتوقع أن أصدق أكاذيبك؟

ـ أتوقع أن تسكتي.

وسكتتْ على مضض. البقرة السمينة غير الحلوب العقيم الثرثارة!

في المكتب، نظرت سكرتيرتي/البقرة إليّ وقالت بعاطفة حقيقية:

ـ أستاذ كنعان! ماذا حدث لعينك؟

ـ الصابونة! البانيو!

من حسن الحظ أنها اكتفت بهذا التفسير الموجز. بدأت أكتب قصيدة الطفل/ المعجزة الثالثة «المدرّس وأنا» عندما دخلت سكرتيرتي/البقرة تحمل صحيفة «اليقظة» وقالت:

ـ هل قرأت المقال الذي كتبته أمواج عيسى عنك؟

قلت بقلق:

ـ لا. ماذا قالت؟

ناولتني الصحيفة وهي تقول:

ـ مصيبة! اقرأ بنفسك.

ماذا ستقول العاهرة بنت العاهرة؟ بدأت أقرأ:

«الكوخ» بين روبرت هانسن وكنعان فلفل:
سرقة أم تناص؟!

عندما قرأت قصيدة «الكوخ» للشاعر المعروف كنعان فلفل في الملحق الأدبي «لليقظة» قبل أسابيع راودني الشعور أني قرأت القصيدة من قبل. إلا أنني لم أستطع أن أتذكر أين ومتى. بدأت التنقيب في المكتبة ولم أعثر على بغيتي. سألت أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية الآداب الدكتور عرفان مشهور وأسعفتني ذاكرته الفوتغرافية. أخبرني أن هناك قصيدة اسمها «الكوخ» لشاعر أمريكي زنجي مغمور مات في الثلاثينات. وقد سبق للأستاذ أن استشهد بمقاطع منها في محاضرة من محاضراته عن الأدب الأمريكي. قارنتُ بين القصيدتين فوجدت أن القصيدة العربية الجديدة تشبه إلى حد كبير القصيدة الأمريكية القديمة. كنت أعرف أني لو واجهت الأستاذ كنعان بهذا التشابه فسوف يعزوه إلى ظاهرة التناصّ. قررت أن أترك الحكم للقرّاء. على القرّاء بعد أن يقرأوا القصيدتين أن

يجيبوا على السؤال: هل نحن أمام سرقة أم تناصّ؟

قصيدة «الكوخ»

للشاعر روبرت هانسن

«١»

من طفولتي كلّها
لا أذكر شيئاً
لا أذكر وجهاً أو إسماً أو طيفاً
سوى ذلك الكوخ
الذي تفتحت عيناي فيه على الحياة

●

قيل لي أنّ أمي كانت تبكي
وأنّ أبي كان يضحك
وأنّ جدتي كانت ترقص
يوم وُلدتُ
ولكنّي لا أذكر شيئاً من هذا
لا أذكر سوى الكوخ
وكان الكوخ أبيض اللون

●

ويوم ماتت أمّي
قيل لي أني كنت أبكي
وأنّ أبي كان يبكي
وأنّ جدتي كانت صامتة
ولكنّي لا أذكر شيئاً من هذا
لا أذكر سوى الكوخ
وكان الكوخ أسود اللون

●

والآن ألقي بجسدي المتعب
على الكرسي القديم
الذي كان يجلس عليه أبي
وأحاول أن أتذكّر السنين الغاربة
ولكنني لا أتذكر شيئاً
وأحدّق في الكوخ
فأراه رماديّ اللون

قصيدة «الكوخ»

للشاعر كنعان فلفل

وُلِدت في الكوخ
قضيت طفولتي كلّها في الكوخ
قضيت صباي كلّه في الكوخ
تموقعت حياتي وتبوقعت
في الكوخ

●

بكتْ أمّي يوم ولادتي
بكتْ بغزارة
وضحك أبي.. وقهقه
وكانت جدتي تزغرد
وتورود
وكان الكوخ مُلوّناً بالبياض

●

وبكيت يوم ماتت أمّي
بكيت كثيراً،
وبكى أبي بصمت أقنط
وبكى الكوخ معنا

التفتّ
ووجدت أن لون الكوخ تحوّل إلى أسود

●

وفي الأربعين
أدخل الكوخ القديم
أجلس على الكرسي القديم
أحاول أن أستجمع ذكرياتي
عن السنين التي مضت
فلا أرى شيئاً
لا أرى سوى الكوخ
وقد تحول لونه إلى رماديّ

اللقيطة بنت اللقيطة! قلت لسكرتيرتي/البقرة أن تطلب على التيلفون صديقي المحامي عادل كشّار. قلت:

ـ يا عادل! أنا بحاجة إلى خدماتك.

استخدم عادل الاسم الذي يعرف تمام المعرفة أني أكرهه:

ـ خير يا أبو الفلافل؟
ـ أريد أن أرفع دعوى تشهير.
ـ ضد من؟
ـ ضد أمواج عيسى.
ـ ومن هو أمواج عيسى؟
ـ هي، يا عادل، هي!
ـ حسناً! من هي أمواج عيسى؟
ـ طالبة في كلّية الآداب.
ـ ولماذا تريد رفع دعوى على طالبة في كلية الآداب؟
ـ لأنها كتبت مقالاً وقحاً جداً.
ـ هذا شيء لا يعاقب عليه القانون.
ـ اتهمتني فيه بالسرقة.

ـ السرقة؟

ـ نعم.

ـ سرقة ماذا؟

ـ سرقة قصيدة.

من الجانب الآخر جاءني صوت ضحكة مجلجلة، وقال رجل القانون:

ـ قدّها وقدود! هل عملتها يا أبو الفلافل؟

لعنة الله على المحامين! البقر أبناء البقر! قلت:

ـ ما هذا السؤال؟ منذ متى كنت أسرق قصائد من أحد؟

ـ أنا يا أبو الفلافل لا أفهم في الشعر. أفهم في القانون.

ـ ولكني أريد أن تقيم الدعوى باسمي. ما رأيك؟

ـ رأيي أن ترسل لي المقال الآن. سوف أدرسه بعناية وأستشير أهل الخبرة. وأخبرك بما أتوصّل إليه بعد يوم أو يومين.

طلبت من سكرتيرتي/البقرة أن ترسل المقال إلى عادل كشّار، فوراً. قبل أن تغادر المكتب قلت لها:

ـ إذا أردتِ تستطيعين إرساله «بالإنترنت».

نظرت سكرتيرتي/البقرة إلى البقعة السوداء نظرة تدلّ على أنها تعتقد أن البقعة سبب الجنون المفاجىء وقالت:

ـ أرسله بماذا؟!

تراجعتُ على الفور:

ـ في بعض دول عربستان يسمّون البريد المستعجل «إنترنت». قوم غريبون بعض الشيء.

ـ هل تريد أن أرسل المقال بالبريد؟

ـ لا! لا! أرسليه مع المراسل. الآن!

أهل الخبرة! هل تحتاج دعوى تشهير في قضية واضحة وضوح الشمس إلى أهل خبرة؟ عدت إلى قصيدة الطفل/المعجزة:

«المدرّس وأنا»

هذا ليس ذئباً
رغم أنيابه الطويلة
وأظافره الحادّة
واللعاب الذي يسيل من فمه
وهو ينظر إليّ
ويسُعِور
هذا ليس ذئباً
هذا رجل طيب
هذا مدرّسي!

وسوف تصبح أمواج عيسى بنتاً طيبة. عندما تتعلّم الأدب في قاعة المحكمة. لقيطة البحر!

الجمعة

هذا أتعس أيام الأسبوع. لا يتاح لي فيه مفارقة زوجتي/البقرة إلاّ لأسباب قاهرة. تعلّمتْ اللعينة، رغم غبائها الموروث والمكتسب، أن تفرّق بين الأعذار المُلفّقة والحالات الاضطرارية. في داخل هذه البقرة المتخلفة عقلياً من اللُؤم ما يكفي نساء الأرض. ويزيد. حاولت هذا الصباح أن أنهي القصيدة الرابعة من قصائد الطفل/المعجزة إلاّ أن البقرة لم تكف عن الثرثرة. طلقات من مدفع رشّاش لا تنتهي ذخيرته:

ـ لماذا لم تحضر لي فستاناً من الحمراء؟ يقولون إن البلد هناك مليء بالأشياء الحلوة.

لم أقل شيئاً وإن كنت أتمنى لو قلت: في أي فستان تدخلين أيتها البقرة؟ في أيّ عشر فساتين؟

ـ انتهى الغاز. متى تحضر الأنبوبة الجديدة؟

صمتُّ وإن كنت أود لو قلت: بمجرد أن تكوني مستعدة للاحتراق بنارها.

ـ جارنا اشترى لزوجته سيّارة. متى تشتري لي سيارة؟

منعت نفسي بصعوبة، من أن أقول: حالما أجد سيارة يمكن أن تسعك.

الغاز. الفستان. السيارة. الجارة. الجار. هذا هو عالم البقرة. البرسيم. الماء. الحليب. الذبح. التيلفون المُعطّل. الثلاجة المعطوبة. الثور. التلقيح الصناعي. الحمل الكاذب. الجزّار. البرسيم. الماء. الفستان. السيارة. الأكل. المصروف. العمارة. الفيلم. البرسيم. الذبح! الذبح! الذبح!

قبيل الظهر جاء، كالعادة، أبو زوجتي/البقرة وأمّها. ولم يغادرا إلاّ بعد التهام الغداء، كالعادة. كم أتمنى أن أفاجئهما، ذات يوم، بوليمة محترمة. بقرة كاملة سمينة يأكلانها، بالهناء والشفاء، ولا يعرفان أنها ابنتهما.

مكنتني حالة الاشمئزاز التي تنتابني حالما رأيت حماتي/البقرة وزوجها من كتابة القصيدة:

«خطوط الطول والعرض»

هذا الخط ينقضّ على رأسك
ويتغلغل إلى رئتيك
وهذا الخط يحطّ على كتفك
ويتغلغل إلى كبدك
وفي كل خط خنجر يستبرق
هذه خطوط الطول

●

وهذا الخط ينطلق إلى قدمك
وهذا الخط يتجه إلى قلبك
وهذا الخط يسير إلى خصرك
وفي كل خط سكين تستبرق
هذه خطوط العرض.

في المساء كنت أحاول مشاهدة فيلم قديم وكانت زوجتي/البقرة تصف كل مشهد بإسهاب وتضيف إليه تعليقاً من تعليقاتها الفلسفية:

ـ هذه هي البطلة. عجفاء ممصوصة. لا أدري ماذا يرى الناس فيها.

ـ وهذا هو الشرير. وحش الشاشة. يذكّرني بالمرحوم والدك.

ـ وهذه سيارة كاديلاك. هل أخبرتك أن جارنا اشترى لزوجته سيارة؟

ـ وهذا شاطىء المعمورة. هل قلت لك إن جارتنا سوف تسافر إلى أوروبا هذا الصيف؟

ـ وهذا. . .

كنت أحاول، جاهداً، التركيز على الفيلم وتجاهل الطلقات السريعة عندما رنّ جرس التيلفون. قالت زوجتي/البقرة:

ـ ردّ أنت. في هذه الساعة لا يتكلّم أحد سوى أصحابك السكارى.

كان المتكلم، بالفعل، صاحبي ولكنه لم يكن سكراناً. قال عادل كشار:

ـ سلامات يا أبو الفلافل! لم أشأ أن أجعلك تنتظر. درست الموضوع بعناية.

ـ والنتيجة؟

ـ انسَ دعوى التشهير.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنك لن تكسبها.

ـ كيف؟ لقد اتّهمتني بالسرقة.

ـ من الناحية القانونية الدقيقة لم تتّهمك بشيء. طرحتْ سؤالاً ولم ترد عليه.

ـ ولكن الغرض واضح تماماً.

ـ في هذا أتّفق معك.

ـ إذن لماذا لا نقيم القضية؟

ـ لأننا سوف نخسرها.

ـ كيف نخسرها؟

ـ يا أبو الفلافل! لماذا لا تكتفي بهذا؟ سوف نخسرها. والسلام.

ـ لن نخسرها.

ـ هل تذكر أني قلت لك أني لا أفهم في الشعر؟

ـ أذكر.

ـ يجب أن تعرف أن المحكمة، بدورها، لا تفهم في الشعر.

ـ ولكنها تفهم في التشهير.
ـ صحيح. ولكن التشهير لا يتحقق إلا إذا ثبت كذب الادّعاء.
ـ والادعاء كاذب.
ـ لا تستطيع المحكمة البت في هذا.
ـ كنت أعتقد أن المحاكم تبت في كل شيء.
ـ هذا صحيح. ولكن في المسائل الفنية لا تبتّ المحكمة في شيء إلاّ بعد الإستعانة بأهل الخبرة.
ـ النقّاد؟!
ـ وأساتذة الأدب في الجامعة.
ـ ولكن هؤلاء حمير شعر. هؤلاء أجهل الناس بالشعر.
ـ ربّما. ولكنهم أهل الخبرة الذين تعتدّ المحكمة برأيهم. سوف تحال القصيدة إلى لجنة من أساتذة الأدب الجامعيين و...

قاطعته بغضب:
ـ ألا نستطيع أن نختار أهل الخبرة نحن؟
ـ لا. ولكننا نستطيع أن نعترض على عضو إذا أثبتنا للمحكمة أنه غير محايد.
ـ وأنت تعتقد أن هذه اللجنة...

قاطعني رجل القانون:
ـ أعتقد أنها ستقول إنك سرقت القصيدة.
ـ كيف توصّلت إلى هذه النتيجة المضحكة؟
ـ يا أبو الفلافل! استشرت أهل الخبرة. أخبرني ٣ أساتذة جامعيين أنك سرقت...

قاطعته مستعملاً الاسم الذي أعرف تمام المعرفة أنه يكرهه:
ـ شكر الله سعيك يا كُشَري! مع السلامة!

أقفلتُ السمّاعة وعدت إلى مكاني، أنتظر أن تعطيني زوجتي/البقرة مبرّراً كافياً لقتلها، مبرراً لا يعترض عليه أهل الخبرة. البقر أبناء البقر! لم أكد أجلس حتى رنّ جرس الباب. قالت زوجتي/البقرة:
ـ قم وافتح أنت. لا يزورنا في هذه الساعة إلا **أصحابك** السكارى.

فتحت الباب وإذا بميّ البصلاوي أمامي في حالة من الشبق الظاهر والسكر

البين. هجمتْ علي وعانقتني وهي تردد:

ـ كنعان! كنعوني! آسفة يا حبيبي! آسفة يا روحي! لم أكن أعرف ماذا أفعل. أفقدتني الغيرة صوابي. كنت أريد قتل اللعينة إلاّ أنها هربت. أرجو أن تسامحني.

كنتُ أحاول، بلا جدوى، التملّص من ذراعيّ الكتلة الشحمية الرجراجة عندما جاءت زوجتي/البقرة وقالت لزائرة الليل:

ـ أنتِ التي ضربتيه؟ أنتِ يا بنت الكفرة؟

ردّت الكتلة:

ـ هذا شيء بيني وبين سيّدك. شيء لا يهم الخدّامة.

انفجرت زوجتي/البقرة:

ـ سيّدي؟! خدّامة؟ أنا خدّامة؟! أنا يا جراب اللحم النتن؟! أنا يا كيس الشحم الفاسد؟! سوف أقطع لسانك القذر بنفسي وأرميه للكلاب.

انطلقتْ زوجتي/البقرة إلى المطبخ تبحث عن شيء حادّ تقطع به لسان الكتلة. وانطلقتْ الكتلة وراءها. على باب المطبخ اصطدمت البقرتان. بدأت ميّ البصلاوي المعركة بلكمة طرحتْ زوجتي/البقرة أرضاً. بدأتُ أضحك. قامت الطريحة وتراجعتْ، بحذر، إلى خط الدفاع الثاني. استمرتْ تتراجع حتى أمسكتْ بقدر متوسط الحجم. بسرعة لا تُصدّق اندفعتْ زوجتي/البقرة إلى الكتلة الشحمية الرجراجة وهوى القدر على الرأس الغائص في شحوم الرقبة. سقطتْ الكتلة جُثّة بلا حراك.

قلت:

ـ أعتقد أنك قتلتها.

نظرت إليّ زوجتي/البقرة وقالت:

ـ إلى جهنّم!. والآن جاء دورك يا نصف رجل.

كان هذا آخر شيء سمعته قبل أن ينفجر القدر على رأسي. قبل أن يغمى عليّ كانت رائحة البامية تملأ أنفي.

٢

الفيلسوف

عــربــيٌّ لــســانــهُ. . . فَــلــســفــيٌّ
رأيُـــه. . فـــارســـيـــةٌ أعـــيـــادُهْ

المتنبي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: جمال الدين مرسي شافعي

اسم الشهرة: فيلسوف باشا

المهنة: عميد كلية الآداب وأستاذ كرسي الفلسفة فيها. جامعة الشروق

العمر: ٥٧ سنة

الثروة: ٢/١ ٣ مليون دولار

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: عربستان X

المؤهلات الدراسية: بكالوريوس في الفلسفة ـ جامعة الشروق، ماجستير في الفلسفة ـ جامعة الشروق، دكتوراه في الفلسفة ـ السوربون

الحالة الاجتماعية: أرمل

الأولاد: ٣ بنات

السبت

اليوم موعد الاجتماع الشهري لمجلس الكلّية. كم أكره هذا الاجتماع، وكم أكره هذا المجلس. كم أكره الدكتور بقراط سنقر رئيس قسم الأدب الإنجليزي، وتعليقاته السخيفة. وكم أكره الدكتور ناصف ملقط، رئيس قسم التاريخ الذي ينتمي، في شكله وتفكيره، إلى فترة ما قبل التاريخ. وكم أكره الدكتور سمهري الأرناؤوط رئيس قسم اللغة العربية الذي يعتقد أنه يعيش في عصر سيبويه. وكم أكره الدكتور قنديل وهبي رئيس قسم الصحافة وتهريجه المقيت. وكم أكره الدكتور محرز بهزاد رئيس قسم الجغرافيا، وتصريحاته المفاجئة. عضو المجلس الوحيد الذي لا أكرهه هو الدكتور نصري هفتان، وكيل الكلية، الذي لا يتكلم على الإطلاق. وعضو المجلس الوحيد الذي أحبّه هو الدكتورة تفاحة قوت القلوب رئيسة قسم الآثار.

كان الاجتماع، كالعادة، سيئاً. وبدأ بداية أسوأ من المعتاد. طلبت من السكرتير أن يقرأ محضر الجلسة السابقة ولم يكد يفتح فمه حتى طلب الدكتور سمهري الكلمة وانطلق:

ـ السيد العميد! حضرات الدكاترة! حضرة الدكتورة! قد طالما نبّهتُ ونبّهت أنه لا يجوز أن يقال تقييم ولا بُدّ أن يقال تقويم فهل أسمعتُ إذ ناديت حيّاً. . .

قاطعته بأدب:

ـ سوف يُصلح السكرتير الكلمة لتصبح تقويم.

إلا أن هذا لم يقنع الدكتور سمهري الذي مضى يهدر:

ـ يا سيادة العميد! اتّسع الخرق على الراقع. فأصبحتُ «كدابغةٍ وقد حلم

الأديم»! يا سيادة العميد!

«غزلتُ لهم غزلاً رقيقاً فلم أجذ ∴ لغزلي نسّاجاً فكسّرتُ مغزلي»

هذا وضعٌ لا يمكن السكوت عليه. أوَ في كلّ محضر، كلّ محضر، نبقى محاصرين بألف غلطة وغلطة كأنّما المحضر من إعداد الأعاجم وكأنّما. . .

قاطعته مرّة أخرى بأدب:

ـ يا دكتور سمهري! إذا كانت هناك أخطاء أخرى فأرجو التنبيه عليها ليمكن تصحيحها.

ـ يا سيادة العميد! حضرات الدكاترة! حضرة الدكتورة! ماذا أقول؟ أقول:

«ولو كان رُمحاً واحداً لاتّقيتُه ∴ ولكنه رمحٌ. . . وثانٍ. . وثالثُ».

لا يوجد ثمة سطر دون خطأ صارخ. . .

قاطعه الدكتور قنديل وهبي:

ـ تقصد سيادتك خطأ فاضح؟

انفجر الدكتور سمهري:

ـ ألمثلي يقال هذا يا دكتور قنديل؟ أيغمز جانبي تغماز التين أمامك يا سيادة العميد؟ أبلَغَ من هواني عليكم أن يُظنّ بي أنّي لا أعرف الفرق بين ما هو صارخ وما هو فاضح؟

تدخّل الدكتور بقراط سنقر:

ـ من الواضح أنك تعرف معنى صارخ لأنك فلقت رؤوسنا بصراخك.

زمجر الدكتور سمهري:

ـ يا سيادة العميد! ماذا أقول؟ أقول:

«أبني حنيفة! أحكِموا سفهاءكمْ ∴ إنّي أخافُ عليكم أن أغضبا».

وأنتم تعرفون، بعد، أني من قوم:

«إذا ما غضبنا غضبة مُضريّة ∴ هتكنا حجاب الشمس أو قطرتْ دما».

فتح الدكتور محرز بهزاد فمه وقال:

ـ صحّ!

طرقتُ الطاولة بالقلم الرصاص طرقاً خفيفاً وقلت:

ـ حضرات الأساتذة! لا مُبرّر للانفعال. يمكننا أن نصلح كل الأخطاء. الدكتور سمهري على حق. لا يجوز لمحضر اجتماع مجلس كلية الآداب. . .

وقف الدكتور سمهري من كرسيه وزعق:

ـ محضر اجتماع مجلس كلّية الآداب؟! حتّى أنت يا فيلسوف باشا؟!

لأوّل مرة أسمع، علناً، في المجلس الكلمة التي أعرف أن الزملاء يردّدونها وراء ظهري. ضغطتُ على أعصابي وقلت:

ـ اجلس يا دكتور سمهري! تمالك نفسك. ما هي المشكلة؟

صاح الدكتور سمهري:

ـ المشكلة؟ إحسبْ!. محضر: ١. اجتماع: ٢. مجلس: ٣. كلّية: ٤. ٤ مضافات! أربعة! ونحن الذين نعلّم الطلاب كيف يكتبون بلغة سليمة. نحن سدنة اللغة نضع في محضرنا ٤ مضافات قبل المضاف إليه.

تعالت الضحكات من كل مكان. وقلت:

ـ حصل خير يا دكتور سمهري. كيف نصلح الوضع؟

قال الدكتور سمهري:

ـ يقال المحضر الذي سُجّل عقب الاجتماع الذي عقده مجلس الكلّية. . .

قاطعه الدكتور ناصف ملقط:

ـ أيّ كلّية؟ نحن لسنا كلّية علوم.

قلت:

ـ الذي عقده مجلس كلّية الآداب.

عاد الدكتور سمهري يصرخ:

ـ مجلس وكلّية. مضافان! مضافان! لا ينبغي عند فصحاء العرب أن يكون هناك أكثر من مضاف واحد حاشا ضرائر الشعر كقول الشاعر «حمامة وادي الأيكتين. . .».

قال الدكتور محرز بهزاد بغتة:

ـ صحّ!

سألت الدكتور سمهري:

ـ إذن ماذا نقول؟

قال:

ـ تقصد كيف نقول؟

ـ كيف نقول؟

ـ نقول المحضر الذي سُجّل عقب الاجتماع الذي عقده مجلس الكلّية أعني كلّية الآداب.

قلت:

ـ حسناً! إذن. . .

قاطعني الدكتور بقراط سنقر:

ـ غلط صارخ وفاضح.

التفت الدكتور سمهري إلى الدكتور بقراط وقال:

ـ أأصدق أذنيّ؟!

قال الدكتور بقراط:

ـ صدّق أو لا تصدّق! عقب تعني بعد الشيء مباشرة. ولا يوجد أيّ دليل على أن المحضر كتب بعد الاجتماع مباشرة. في رأيي يجب أن نقول المحضر الذي سُجّل بعد. . .

صرخ الدكتور سمهري:

ـ ماذا أقول؟ أقول: «إن البغاث بأرضنا تستنسر». منذ متى كان لأساتيذ الفرنجة ورطانتهم مقام أو مقال في ما صحّ من الأعراب ولم يصح؟. عقب قد تفيد التوالي وقد تفيد التراخي. وقد جاء في الألفية. . .

طلبت الدكتورة تفاحة قوت القلوب الكلمة وقالت بصوتها العذب:

ـ حضرات الأساتذة! حضرات الأساتذة! لا داعي للخلاف على مسائل لغوية. أقترح أن يكلّف الدكتور سمهري بإعداد المحضر على النحو الذي يريده.

علتْ همهمات استحسان، وكنت على وشك أن أعلن أن المجلس تبنّى اقتراح الدكتورة تفّاحة بالإجماع عندما وقف الدكتور سمهري هائجاً، وصرخ:

ـ ماذا أقول؟ أقول:

«لقد هَزُلتْ حتّى بدا من هزالها ∴ كلاها. . . وحتّى سامها كلّ مفلس».

هل أصبحت ناموساً للمجلس؟ هل غدوت كويتباً من صغار الكويتبين؟ لا والله! أمَا والله إني أفضّل أن أُقطّع ألف قطعة على. . .

قاطعه الدكتور بقراط:

ـ ألف قطعة بسّ؟

التفت إليه الدكتور سمهري وقال:

ـ أتهزأ بي يا غويلم الفرنجة؟

قال الدكتور بقراط على الفور:

ـ أنا غويلم الفرنجة يا بعرة البعير؟!

هجم الدكتور سمهري على الدكتور بقراط وصفعه على وجهه في نفس اللحظة التي قال فيها الدكتور محرز:

ـ صحّ!

استدار الدكتور سمهري إلى الدكتور محرز وصفعه قائلاً:

ـ وأنت تستحسن ما قال يا غويلم تقويم البلدان؟

بدأتْ الدكتورة تفّاحة تضحك. واتجه الدكتور سمهري نحوها شاهراً كفّه. وجدت نفسي مضطراً إلى القيام واعتراض طريقه فما كان منه إلاّ أن زمجر في وجهي:

ـ أتدافع عنها يا فيلسوف باشا؟! تدافع عن رفيقتك في الخنا وشريكتك في الزنا؟!

كفّت الدكتورة تفّاحة عن الضحك، وانطلقت نحو الدكتور سمهري تحمل حذاءها ذا الكعب العالي وهوت به على رأسه محدثةً جرحاً بدأ ينزف بغزارة.

جلس الدكتور سمهري على الكرسي يتلقّى الدم السائل على وجهه بمنديله ويتمتم:

ـ ماذا أقول؟ أقول: «وللحرية الحمراء بابٌ».

في المساء زارتني الدكتورة تفّاحة في منزلي. الڤيلا الجميلة التي ورثتها عن المرحومة زوجتي. وأصبحت لي بكاملها بعد أن تنازل البنات، مشكورات، عن نصيبهن لي. جلستْ تفّاحة بقربي ترتشف البيرة وقالت:

ـ ما رأيك يا جمال؟ هل سيطالب سمهري باتخاذ إجراء ضدّي؟

ـ كيف يستطيع؟ هو الذي تطاول عليك بكلمات بذيئة يعاقب عليها القانون. كنتِ في حالة دفاع مشروع عن النفس.

ـ ولكني أعتقد أنه أصيب بجرح بليغ.

ـ لا. مجرد خدش. زار المستشفى الجامعي. وضُمّد الجرح. وخرج سليماً معافى.

ـ ألا تعتقد أنني يجب أن أعتذر له؟

ـ أعتقد أنك يجب أن تساعديني على التخلّص منه نهائياً. هذا رجل مجنون. لا بُدّ من الخلاص منه.

ـ وكيف نستطيع ذلك؟

ـ قال ميكافيلي «إذا اقتضتْ مصلحة النبيل القضاء على نبيل آخر فإن القضاء عليه يصبح مثلاً من المثل العليا».

ـ أعتقد أن هذا من أقوال فيلسوف باشا.

ـ صدقت. ولكن لا بُدّ أن نتخلص منه.

ـ ولكن كيف؟

ـ عندما تكون هناك حاجة..

اقتربت الدكتورة تفاحة مني حتى التصقت بي وقالت:

ـ فسوف توجد الوسيلة.

ـ ومن قال ذلك؟

همست تفّاحة في أذني وهي تعتصرني بقوة:

ـ رفيقتك في الخنا. وشريكتك في الزنا.

الأحد

بدأ اليوم بمكالمة تيلفونية غريبة بعض الشيء من صديقي الدكتور زاعل بحران:

ـ كيف الحال يا فيلسوف باشا؟

ـ بخير ونعمة يا أبو الزعل!

ـ ما رأيك أن تنضم إلى عضوية لجنة؟

ـ لجنة فلسفية؟

ـ لجنة شعرية؟

ـ شعرية؟ لماذا لا تكلم الدكتور سمهري الأرناؤوط؟

ـ الحمار ابن الحمار!

ـ صدقت!

ـ لا أريده. أريدك أنت.

ـ لم لا؟ أوّل كتاب منهجي عن الشعر كان من وضع أرسطو وقد أوضح فيه أن

القيم الجمالية. . .

قاطعني الدكتور زاعل بحران:

ـ وأنت لا تقلّ فهماً للشعر عن أرسطو. هل أنت موافق؟

ـ ما هي مهمة اللجنة؟

ـ اختيار أفضل ديوان يصدر كل عام والشاعر دون العشرين.

ـ كلام عيال يعني؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك.

ـ ولماذا تريد أن أنضم إلى هذه اللجنة؟

ـ لأني أحبّك. وأودّ أن تحصل على المكافأة.

ـ مكافأة؟

ـ ٢٥,٠٠٠ دولار.

ـ كم عدد الاجتماعات التي ستعقدها اللجنة؟

ـ اجتماع واحد. على أكثر تقدير.

ـ إذن اعتبرني موافقاً.

ـ سوف أرسل لك جزءاً من المكافأة الآن.

ـ شكراً يا أبو الزعل!

ـ العفو يا فيلسوف باشا!

يبدو أن هذا يوم الدولارات التي بدأت أرقامها تتصاعد بسرعة مذهلة. أدخلتْ سكرتيرتي نيرمين إلى المكتب الحاج بشمان الشويبع الذي كان قد طلب موعداً لمقابلتي قبل أسابيع. اتّضح أن الحاج رجل وقور، في منتصف الأربعينات من العمر، له وجه صبوح وكرش معتدل، ويتمتّع بأدب جمّ. قال الحاج بإحترام شديد:

ـ يا سعادة العميد! أشكرك على استقبالي. أشكرك على تحديد هذا الموعد لي. لا توجد لديّ الكلمات الكافية للتعبير عن مشاعري وأنا في حضرتك.

ـ العفو يا حاج بشمان.

ـ سمّني بو جويسم.

ـ العفو يا حاجّ بو جويسم.

ـ أشكرك من أعماق قلبي. أرجو أن تعرف يا سعادة العميد، أنّي مُجرّد طالب

مبتدئ. رغم تقدّمي في السن نسبياً ورغم تجارتي الواسعة فأنا لا أعتبر نفسي سوى تلميذٍ لك. والله ثم والله ثم والله أني أعتبر نفسي بمثابة عبد لك.

ـ العفو يا حاج بو شويبع.

ـ بو جويسم!

ـ العفو! أقصد يا حاج بو جويسم. نحن إخوان.

ـ أستغفر الله! أستغفر الله! أنت عميد الفلسفة في الأمّة العربستانية وأنا مجرّد طالب علم. مُجرّد تاجر أنعم الله عليه بالمال، ويريد الاستزادة من نعم الله بطلب المزيد من العلم. لقد تخرّجتُ قبل أكثر من ٢٥ سنة من هذه الكلّية المبروكة.

ـ لا أذكر أني رأيتك يا حاج.

ـ كنت منتسباً يا سعادة العميد. لم تكن ظروفي تسمح لي بالانتظام. كنت أجيء من عربستان X مرّتين في السنة، مرّة لآخذ المناهج، ومرّة للإمتحانات. رغم انشغالي بالأعمال التجارية سهّل اللّه أموري وحصلت على الليسانس. بطبيعة الحال، لم يكن التقدير كما كنت أرجو.

ـ هذا شيء عظيم يا حاج. عظيم جداً. المهمّ أنك حصلت على الشهادة.

ـ وبعدها شغلتني الدنيا يا سعادة العميد. شغلتني التجارة. ووفّقني الله حتى أصبحت أكبر مستورد للزيوت الطبيعية في عربستان X.

ـ زيوت طبيعيّة؟ هذه مصادفة عجيبة.

ـ ما هي يا سعادة العميد؟

ـ الدكتور ماهر إحسان، زوج ابنتي الكبرى تماضر، يملك أكبر مصنع لتعبئة الزيوت الطبيعية في البلد.

ـ سبحان الله! سبحان الله! ما شاء الله كان! توافيق من الله. أشهد أن كلّ شيء مكتوب في اللوح. هل يمكن أن أتعرّف على الدكتور ماهر؟ من يدري فقد يحصل بيننا تعاون. تجارة الزيوت يا سعادة العميد مبروكة والرزق كثير.

ـ يسعدني ترتيب لقاء بينك وبين ماهر.

ـ ولكن هذا ليس المقصود يا سعادة العميد. أنا لم أجيء هنا للتجارة. جئت أطلب العلم. جئت أستزيد من المعرفة.

ـ هذا شعور طيب يا حاج. طلب العلم من المهد إلى اللحد. هذا شيء عظيم.

ـ أريد يا سعادة العميد التسجيل للدكتوراه في هذه الكلّية المبروكة.

حاولت أن أخفي علامات الدهشة من وجهي، وقلت بهدوء:

ـ ما شاء الله! الدكتوراه؟ طموح علمي رائع. ولكن يجب أن تعرف، يا حاج، أنه لا بُدّ بعد البكالوريوس من الحصول على دبلومين، وبعد الدبلومين يمكن التسجيل للدكتوراة.

ـ يا سعادة العميد! مستعد آخذ ٧٠ دبلوماً. والله ثم والله لو كانت الشهادات تُشترى لدفعت في شهادة الدكتوراه مليون دولار.

ـ الشهادات يا حاج تباع للمجتهد وثمنها الجدّ. إذا كنت جاداً فسوف تتحقّق رغبتك. سوف ترى مني كل تشجيع.

ـ ومتى أسجل للدبلوم الأول؟

ـ متى شئت.

ـ أريد، أولاً، أن أجتمع بالدكتور ماهر.

خرجت مع الحاج إلى غرفة نيرمين وطلبت منها أن ترتّب موعداً في المساء للحاجّ مع الدكتور ماهر.

قرّرت أن أخصّص محاضرة طلبة الدبلوم اليوم لشرح النظرية التي قامت عليها شهرتي ودخلت بسببها عالم الفلاسفة. قال من قال، ذات يوم، هازئاً: «أرى حولي أساتذة فلسفة كثيرين، ولا أرى فلاسفة». بعد أن طبعت مجلّدي الضخم عن «الإنتقائية» تجاوزت مرتبة الأساتذة لأنضمّ إلى الخالدين أنفسهم. وصلت فلسفتي إلى الغرب، وأصبحت تدرس في جامعات أمريكا وأوروبا باسم «اكيلكسَسزم». أستطيع أن أقول، بلا تواضع كاذب، اني الفيلسوف الحقيقي الوحيد في الأمة العربستانية كلّها. فيلسمّني الأصدقاء الحاقدون فيلسوف باشا. شاءوا أو رفضوا أنا فيلسوف ـ ونصّ! بدأتُ المحاضرة على النحو التالي:

«قال الكاتب الساخر مينكين: «إن تاريخ الفلسفة، ببساطة، هو فيلسوف يحاول إقناع الناس أنّ كل الفلاسفة الآخرين حمير وينجح في إقناعهم (ضحك من الطلبة والطالبات). والحقيقة أنه ينجح في إقناعنا أنه، بدوره، حمار (ضحك من الطلبة والطالبات). لا ألوم هذا الكاتب على هذا التعليق اللاذع. لو استعرضتم تاريخ الفلسفة لوجدتموه يتكوّن من مذهب يقوم على أنقاض مذهب، فيلسوف يقتل فيلسوفاً ـ أعني يقتله فكرياً ـ ليقدّم نظريته محلّ النظرية المقتولة. هذه قصّة

الفلسفة منذ ولادتها إلى هذه اللحظة. في المعرفة، هناك نظرية تقول إن الوصول إلى المعرفة أمر ممكن سواء باستخدام الطريقة البدهية أو التجريبية. إلا أن النظرية الشكوكية تقطع بأنه لا يمكن معرفة أيّ شيء، أيّ شيء على الإطلاق. لا بُدّ، إذن، أن يكون الفيلسوف الذي يؤمن بإمكانية المعرفة حماراً (ضحك) أو زميله الذي ينكر إمكانية المعرفة حماراً (ضحك) أو الإثنان معاً (ضحك). أفلاطون كان يعتقد أن الأفكار وحدها هي التي يمكن أن تُعرف، وأنّ علينا أن نكرّس كل طاقتنا للتفكير في الأفكار (ضحك) وفي مقدمتها فكرة الخير. أرسطو رأى أن كل شيء تقريباً يمكن إدراكه واستيعابه عن طريق فهم خصائصه الطبيعية. أيّهما الحمار أفلاطون أم أرسطو؟ (ضحك). بعد ذلك جاء الرواقيون الذين يرون أن كل شيء محتوم ومفروض علينا ـ وإذا لم يكن ما تحبّ فأحبّ ما كان. عال العال! المشكلة أن الأبيقوريين جاءوا، بعد ذلك، وقالوا إن علينا أن نبحث عن المتعة. كيف نستطيع البحث عن المتعة إذا كان كل شيء محتوماً ومفروضاً ومنتهياً؟ من هم الحمير؟ الرواقيون أم الأبيقوريون؟ في العصور الحديثة لم يتغيّر شيء في التفكير الفلسفي. إمّا هذا وإمّا هذا. عند الفلاسفة العلميين لا معرفة إلاّ عن طريق التجريب. وعند الفلاسفة العقليين يجيء العقل قبل التجربة. عند سبينوزا تحتاج المعرفة إلى بديهيات أساسية. وعند لوك لا توجد بديهيات. عند لوك العلم هو الأساس. وعند كانت العلم نشاط عقلي والعقل لا يستطيع أن ينفذ إلى ماوراء المظاهر. في كل العلوم يبني كل عالم على ما اكتشفه أسلافه، وتنمو العلوم بطريقة تدريجية تراكمية، بإستثناء الفلسفة. في الفلسفة لا ينمو شيء إلاّ بهدم شيء. هذا ما دعاني بعد التفكير والدراسة إلى الخروج بنظريتي التي عُرفت واشتهرت باسم الإنتقائية. يمكن تلخيص النظرية ببساطة شديدة، كل الفلاسفة على حق، وكل الفلاسفة على باطل (ضحك). أساس النظرية أن المعرفة ظاهرة معقّدة جداً لا يمكن أن تنقاد لنظرية واحدة. من هذا المنطلق، حاولت أن أنتقي من كل فيلسوف جزءاً من نظريته دون بقية الأجزاء. بعبارة أخرى، جاءت نظريتي لتنهي مقولة الفلاسفة الحمير (ضحك). كل فيلسوف لديه جزء محدود من الصواب وجزء غير محدود من الخطأ. والطريقة العلمية تقتضي الأخذ بالجزء الصحيح وطرح الجزء الآخر على أن يتم ذلك على نحو منهجي...».

استمع الطلبة والطالبات بانتباه عميق لم تقطعه سوى الضحكات. في نهاية المحاضرة، جاء رد الفعل المعتاد كلما تكلّمت عن نظريتي، التصفيق الحاد!

في المساء زارني زوج ابنتي الدكتور ماهر وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. عانقني وقال:

ـ أشكرك يا عمي! أشكرك! أشكرك!.

ـ خير يا ابني؟

ـ الحاج بشمان...

ـ أبو شوييع؟

ـ أبو جويسم.

ـ قابلته؟

ـ وكان اجتماعاً مثمراً. مثمراً جداً. صدّق أو لا تصدّق إنه حجز نصف إنتاج المصنع للسنة القادمة. سوف نبدأ من الأسبوع المقبل التصدير لعربستان X.

ـ عظيم. عظيم.

ـ إلا أن هناك موضوعاً بسيطاً.

ـ خير؟

ـ الحاج، كما تعرف يا عمي، ترك الدراسة منذ مدة طويلة. ومعلوماته بدأت تصدأ. هو مستعد للتفرّغ، الآن، إلاّ أنه يحتاج إلى مساعدة...

ـ دروس خصوصية وأشياء من هذا النوع؟

ـ تماماً يا عمّي.

ـ اتصلْ بطلعت بهجور. تعرفه؟ المحاضر في قسم التاريخ. أعتقد أنه على استعداد لتقديم المساعدة المطلوبة. لا تذكر اسمي. أنا لا أستطيع التدخل في أمور كهذه.

ـ بطبيعة الحال يا عمّي. بطبيعة الحال.

عندما خرج ماهر رنّ جرن التيلفون. رفعتُ السمّاعة بلهفة متوقّعاً مكالمة من تفاحة. إلا أن الصوت الأنثوي الرقيق الذي جاء لم يكن صوتها:

ـ دكتور جمال؟

ـ نعم.

ـ آسفة على إزعاجك.

ـ لا. أبداً.

ـ كانت محاضرتك اليوم رائعة. كانت أروع محاضرة استمعت إليها في حياتي.

ـ أنتِ طالبة في الدبلوم؟

ـ نعم.

ـ ولكني لا. . .

ـ لا تعرف اسمي ولا تذكرني؟ هناك أكثر من ١١ طالبة في القاعة.

ـ آسف! ذاكرتي. . .

قاطعني الصوت الأنثوي الرقيق:

ـ ذهول الفلاسفة الشهير، يا دكتور.

ـ آسف!

ـ إسمي دليلة واصف.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ هناك موضوع يقلقني بعض الشيء.

ـ خير؟

ـ أنوي، إن شاء الله، بعد إنهاء الدبلوم أن أكمّل للدكتوراه.

ـ عظيم. على بركة الله.

ـ وسوف أكتب عن الفارابي.

ـ موضوع هايل.

ـ ولكن هناك مشكلة تقلقني.

ـ كل مشكلة لها حل. ما هي مشكلتك؟

ـ العقل الثاني والعقل الثالث والعقل الرابع. لم أستطع فهم ما قاله.

ـ هذا يحتاج إلى شرح طويل.

ـ أرجوك، يا دكتور. هل يمكن أن تشرحه لي؟

ـ أنت تعرفين أن أوقاتي في الكلّية. . .

ـ من يستطيع أن يكلّمك في الكلّية؟ كنتُ آمل أن يكون بوسعك أن تقابلني خارج الكلّية.

موقف صعب بعض الشيء. لا توجد سوابق. ماذا أقول؟ بدأت أتمتم:

ـ آه. . آه. . المشكلة. . آه. .

قاطعتني بحزم:

ـ سأزورك في منزلك. غداً بعد الظهر. هل هذا موعد مناسب؟

بدون تفكير وجدت نفسي أقول:

ـ غداً بعد الظهر لديّ ارتباط.

جاء الصوت الرقيق الحازم:

ـ حسناً! إذن بعد غد. الساعة الخامسة.

ـ العنوان. . .

ـ أعرف العنوان.

ـ كيف عرفته؟

ـ تلميذتك يا دكتور. الفلسفة الإنتقائية.

أويت إلى فراشي واستغرقت في التفكير. كان يوماً حافلاً بالعجائب. إلاّ أنني وجدت نفسي عاجزاً عن التركيز على ما كان اليوم. وجدت كل أفكاري منصبّة على ما سوف يكون في الغد. جلنار! غداً موعدي معها. في البرنامج الشهير «عيون العالم عليك». سوف تبدأ المقابلة بهجوم شرس عنيف، ثم تترك المجال لهجوم أشرس وأعنف من الجمهور. هذه الروح العدوانية هي التي جعلت هذا البرنامج أنجح برنامج تليفزيوني في الأمّة العربستانية. يستطيع كل من استضافته جلنار أن يعتبر نفسه عضواً في نادي المشاهير. ومن لم يكن مشهوراً قبل البرنامج يصبح مشهوراً بعده. تقول الإحصائيات إن أكثر من ٢٠ مليون عربستاني يتابعون الحلقات. إلاّ أن مشكلتي ليست مع الشراسة أو العنف أو الشهرة. مشكلتي مع الجمال. أعتقد، دون ذرّة من شك، أن جلنار أجمل امرأة قابلتها في حياتي. كان هذا رأيي عندما رأيتها وهي طالبة مراهقة في قسم الصحافة. ولا يزال هذا رأيي اليوم وهي امرأة ناضجة في منتصف الثلاثينات. لا أدري كيف تسنّى لامرأة عربستانية أن تكون شقراء على هذا النحو، خضراء العينين على هذا النحو، رشيقة على هذا النحو. جلنار هي الشيء الوحيد الذي يناقض فلسفتي الانتقائية. لا يوجد مجال للإنتقاء مع جلنار: جلنار تؤخذ بأكملها، كلّها، وعلى علاّتها، وبقضها وقضيضها (لا بد أن أسأل الدكتور سمهري الأرناؤوط عن معنى القض والقضيض!).

الاثنين

كان هذا يوم جلنار، أعني يومي ويومها. تألّقت هي كما لم تتألّق من قبل، وتألّقت أنا، كما لم أتألّق من قبل. كان التحدّي الأكبر منذ اللحظة الأولى أن أحاول أن أبتعد بأفكاري عن الجسد الجميل الذي حرصتْ هي، كما لم تحرص من قبل، على إبراز مفاتنه. إلاّ أن الانضباط الفكري الذي عوّدت عليه نفسي منذ نعومة أفكاري ـ هاه! نكتة فلسفية! ـ جعلني قادراً أن أتحدّث إليها دون أن أنظر إلى النهدين اللذين أبرزهما الرداء الضيق على نحو يثير مشاعر أعتى أتباع المدرسة الرواقية.

بدأت جلنار:

ـ أستاذي الكريم! هذه هي المرة الأولى التي يستضيف فيها البرنامج فيلسوفاً. استضفنا كل مهنة تخطر على البال، وعدداً من المهن التي لا تخطر ببال. استضفنا شعراء ورجال أعمال وممثلين وممثلات وحواة وسحرة وقصّاصي أثر ومدرّبي نمور ومنوّمين مغناطيسيين ـ كل مهنة! ـ ولكننا نلتقي، الليلة، لأول مرة بفيلسوف، الدكتور جمال الدين شافعي. دكتور جمال! أرحب بك باسم المشاهدين والمشاهدات في برنامج «عيون العالم عليك».

ـ يسعدني أن أكون ضيف هذا البرنامج الناجح. ويشرّفني أن أكون أوّل طالب فلسفة يتحوّل، بفضل البرنامج، إلى نجم.

ـ شكراً. اسمح لي أن أبدأ بالسؤال الذي تعتبره أنت، بلا شك، بديهيّاً. ولكنه بالنسبة للمشاهد العادي والمشاهدة العادية لا يعتبر بديهياً. ما هي الفلسفة؟ أعني هل يوجد تعريف واضح مفهوم للفلسفة؟

ـ بكل تأكيد. والتعريف موجود في الإسم نفسه. معنى الإسم اليوناني محبّة الحكمة.

ـ أستاذي الجليل! أنت تنقلني من إسم إلى اسم. ما المقصود بمحبة الحكمة؟

ـ حسناً! دعيني أنقل لك وللأخوة المشاهدين والأخوات المشاهدات تعريف المفكر الإسلامي الشهير الخوارزمي الذي قال إن الفلسفة «علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح». هل أصبح التعريف أوضح؟

ـ عفواً، أستاذي الكريم! لا يزال هناك شيء من الغموض.

ـ المفتاح هو كلمة حقائق. دراسة الأشياء، في حد ذاتها، ليست فلسفة أمّا البحث عن حقائقها فهو فلسفة. لكي نوضّح الموضوع أكثر يجب أن نتطرّق إلى فروع الفلسفة التقليدية. هناك، أولاً، الميتافيزيقيا، وهي الفرع الذي يعنى بالنظر في حقيقة الوجود وحقيقة النفس وحقيقة الحياة. وهناك، ثانياً، المعرفة وهي الفرع الذي يعنى بطبيعة المعرفة، ماهيتها، أساسها، جوهرها. وهناك، ثالثاً، المنطق، وهو الفرع الذي يختصّ بتحليل الطرق والوسائل التي يستعين بها العقل للوصول إلى الحقيقة. هناك بعد ذلك الأخلاق، وهي الفرع الذي يهتمّ بطبيعة الشر وطبيعة الخير، وبالتالي طبيعة الخطأ وطبيعة الصواب. هناك، في النهاية، الجماليات وهي الفرع الذي يحلّل الإبداع، وكيف تتأثر حواسنا بالشيء الجميل سواءً كان رسماً أو نحتاً أو موسيقى. بهذا المعنى، لا أعتقد أن هناك أي صعوبة في التفرقة بين الفلسفة واللغة والتاريخ والأدب والجغرافيا و . . .

ـ عفواً يا دكتور! عندما قلت إنه يصعب تعريف الفلسفة على نحو واضح مُحدّد لم أكن أتحدّث عن رأي شخصي. تطرق الكثير من الباحثين إلى هذه الصعوبة.

ـ هذا صحيح! هذا صحيح! والسبب أن الفلسفة، عبر فترة طويلة من الزمن، كانت أم العلوم، كان كل علم تقريباً جزءاً من الفلسفة الرياضيات، والطبيعة، واللاهوت. هذا هو السبب في أن شهادة الدكتوراه في الغرب تسمّى دكتوراه/ الفلسفة. بقي الاسم القديم حتّى بعد أن زالت مُبرّراته.

ـ ولكن دكتوراه سيادتك دكتوراه فلسفة في الفلسفة.

ـ هذا صحيح.

ـ طيّب! بصراحة، بكل صراحة، هل تعتبر نفسك فيلسوفاً؟

ـ بكلّ صراحة، أعتقد أن بإمكاني أن أدّعي هذا الشرف. عندما تكون للإنسان نظرية فلسفية تُدرّس في مختلف جامعات العالم، عندما تُكتب عن هذه النظرية عشرات الرسائل الجامعية، عندما يدخل اسم النظرية المعاجم الفلسفية، أعتقد أن بوسع هذا الإنسان أن يعتبر نفسه فيلسوفاً، فيلسوفاً صغيراً مقارنة بالعمالقة.

ـ تقصد بالنظرية الإنتقائية؟

ـ نعم.

ـ هل تسمح لي أن أتحدّث، بصراحة، عن هذه النظرية؟

ـ تفضّلي.

ـ هناك من يرى ـ عفواً أستاذي الكريم! ـ أن النظرية لا تعدو أن تكون ضرباً من التلفيق. ما رأيك؟

ـ التلفيق اصطلاح فقهي يُقصد به أن يأخذ الإنسان شيئاً من هذا المذهب الفقهي وشيئاً من ذاك على النحو الذي يلائم هواه ودون مراعاة الأسس المنهجية التي يقوم عليها كل مذهب.

ـ هل يمكن توضيح ذلك أكثر؟

ـ بكل سرور. كل مذهب فقهي في الإسلام يقوم على منهجية معروفة. جرى العمل، من باب التبسيط، على تقسيم المذاهب إلى مدرستين رئيستين، مدرسة الرأي، ومدرسة الحديث. الإمام أبو حنيفة، رائد مدرسة الرأي، وضع شروطاً صعبة جداً لقبول الحديث من ضمنها أن يكون الحديث مشهوراً، والشهرة أمر يكاد يكون متعذّراً. اضطر في غياب الأحاديث التي يقبلها إلى الاستعانة بالرأي، وبالقياس على وجه التحديد. لم يصح عند أبو حنيفة الحديث النبوي الذي يشترط موافقة الوليّ لصحة الزواج. حسناً! عندما يجيء الحنفي الذي يتبع المذهب الحنفي ويقول إن الولي ليس شرطاً لصحة الزواج نقول له على العين والراس. ولكن عندما يأتي الحنبلي الذي صحّ عند إمام مذهبه حديث الوليّ ويقول أنا أريد أن أتبع المذهب الحنفي في هذه الجزئية يكون قد لفّق. من ناحية أخرى، لم تصح عند الإمام أبو حنيفة الأحاديث التي تجيز الشروط في الزواج ولهذا قيّدها إلى حد كبير أما الإمام أحمد ابن حنبل الذي صحت عنده هذه الأحاديث فيجيز أن يتضمّن عقد الزواج كل شرط يوافق عليه الطرفان. عندما يجيء الحنفي ويقول أنا أؤمن بالزواج بلا وليّ، اتباعاً لمذهب أبو حنيفة، وأؤمن بأن أضع في الزواج ما شئت من شروط، اتباعاً لمذهب ابن حنبل يكون قد لفّق. الإمام أبو حنيفة، نفسه، قال: «لا يجوز لأحد أن يقول بما قلناه حتى يعرف كيف أخذناه». التلفيق عملية لا علاقة لها على الإطلاق بنظرية الإنتقائية.

ـ هل توافق، إذن، على اعتبار الانتقائية مجرد عملية توفيقية؟

ـ ولا هذه يا آنسة جلنار! التوفيق هو عمل يقع في منتصف الطريق بين طرفين. التوفيق عملية نقوم بها طيلة الوقت في حياتنا اليومية وفي حياتنا الاجتماعية وفي حياتنا السياسية وقد نقوم بها دون تفكير، بطريقة عفوية. يطلب الولد ١٠ جنيهات

ويرفض الأب، ويبكي الولد، وتتدخل الأم وتقنع الأب بإعطائه ٥ جنيهات. يريد بعض أعضاء البرلمان إلغاء هذا الشيء ويرفض البعض الآخر وتكون النتيجة إبقاء هذا الشيء مع تغييره. وهلمّ جرّاً. لا علاقة بين الحل الوسط وبين نظرية الإنتقائية.

ـ يبدو، يا دكتور جمال، أنه من الصعب وضعك في زاوية. ماذا عن النسبية؟ ألا ترى أنه لا يوجد أي خلاف، أي خلاف على الإطلاق، بين نظريتك وبين النظرية الفلسفية القديمة المعروفة بالنسبية؟

ـ آنسة جلنار! لا بد أن أهنئك على ثقافتك الفلسفية.

ـ شكراً أستاذي الجليل.

ـ ومع ذلك لا بُدّ أن أقول إن النسبية، كمفهوم فلسفي، نشأ في معرض الحديث عن الخير والشر، لا عن المعرفة. النسبية ترى أن الظروف الثقافية والاجتماعية المسيطرة في المجتمع هي التي تحدد ما إذا كان عمل ما أخلاقياً أو غير أخلاقي، شريراً أو غير شرير. هذا ما نسمّيه الآن الخصوصية الحضارية. زواج الرجل بأربع نساء في مجتمع مسلم لا يعتبر عملاً غير أخلاقي ونفس العمل في مجتمع غربي جريمة يعاقب عليها القانون. لا علاقة لهذا كله بنظرية الإنتقائية.

ـ دكتور! أعتقد أن الأوان قد آن لكي تشرح لنا ما هي الإنتقائية.

ـ حسناً! من الناحية الإبستمولوجية. . .

ـ عفواً أستاذي الفاضل! يجب أن أقاطعك. أذكّرك أن هذا البرنامج يشاهده أكثر من ٢٠ مليون إنسان وإنسان كلهم، تقريباً، من غير المتخصّصين. أذكّرك، بكل احترام، أنك لست في قاعة محاضرات مع طلبة الدراسات العليا. بقدر ما تنجح في تبسيط الأمور بقدر ما تنجح في أن تصبح، كما قلت قبل قليل، نجماً جماهيرياً.

ـ سأحاول. من طبيعة كل علم أن يدّعي لنفسه الحقيقة المطلقة. لا يوجد عالم رياضيات يقول: «أعتقد أن ٢ + ٢ = ٤، وإن كنتُ غير متأكد من ذلك». ولا يوجد عالم طبيعة يقول: «إن هناك احتمالاً يشير بوجود قانون للجاذبية». ولا يوجد عالم ديني يقول: «إن الحقيقة موجودة في الأديان الأخرى بقدر ما هي موجودة في ديني». مشكلة الفلاسفة أنهم، بسبب مواهبهم الفكرية المتضخمة، أسرفوا في هذا الإتجاه. المعرفة إمّا أن تكون حدساً وإما أن تكون تجريباً.

السعادة إمّا أن تكون عقلية وإمّا أن تكون حسّية. الإنتقائية تبدأ من منطق بسيط جداً: كل الفلاسفة على حقّ، وكل الفلاسفة على باطل.

ـ هل هذا منطق بسيط يا دكتور؟ إذن، أين المنطق المعقّد؟

ـ سوف ترين أنه منطق بسيط مع الأمثلة. أفلاطون جاء بأشياء عظيمة عن أهمّية الخير وعن ضرورة إنصراف الفيلسوف إلى تعميم الخير في حياة البشر. كان على حق. وأفلاطون نفسه كان يرى أن العقل البشري لا يستطيع أن يكتشف سوى المثل المجردة، أو الأفكار، أو النماذج، ولهذا سُمّيت نظريته النظرية المثالية. هنا، كان على خطأ. نحن ندرك بحواسنا أشياء ملموسة مادية كثيرة. الإنتقائية لا تقبل أفلاطون ولا تردّه. الإنتقائية تقول إنّ أفلاطون كان مخطئاً في هذا الرأي وكان مصيباً في ذاك.

ـ ولكن هذا يعود بنا إلى النسبية من طريق. . .

ـ عفواً! عفواً! آنسة جلنار! فلنأخذ مثلاً آخر من الفلسفة الحديثة. لنأخذ هيوم. هيوم قال إننا يجب أن نعرف أصل الفكرة التي تخطر بالبال حتى نستطيع أن نقيّمها. كلام مفهوم ومقبول. كان هيوم هنا على صواب. الأفكار التي نجهل مصدرها لا تؤدّي إلى معرفة يقينية. ولكن هيوم لم يقف عند هذا الحد. قال إن كل شيء في النهاية، كل شيء، هو مجرد فكرة في العقل، مجرد انطباع. حسناً! هنا، كان هيوم على خطأ. الإنتقائية تحاول إدخال بعض التواضع العقلي إلى علم ينفر بطبيعته من التواضع العقلي.

ـ ونحن، أستاذي الكريم، من المتواضعين عقلياً. هل تسمح لنا أن نبدأ في تلقّي المكالمات؟ كالعادة، أطلب من الضيف الكريم ومن المتّصلين والمتّصلات الإيجاز ما أمكن لنستطيع أن نجيب على أكبر قدر ممكن من الأسئلة. معنا الدكتور صلاح من الإسكندرية. تفضل يا دكتور.

المشاهد ـ أودّ أن أسأل الدكتور جمال عن رأيه في ما قاله الشاعر الشهير كيتس: «كل المباهج والأفراح تتلاشى بمجرد لمسة من كف الفلسفة الباردة»؟

ضحكت جلنار. الدكتور صلاح!! هذا هو الخبيث بقراط. ضحكت، بدوري، وقلت:

ـ كيتس شاعر والشعراء لهم شطحات هنا وهناك. أذكّر الدكتور صلاح أن شعراء كثيرين كانوا في الوقت نفسه فلاسفة. المعرّي يُسمّى الشاعر الفيلسوف.

وابن سينا له قصيدة فلسفية جميلة عن النفس، لا بد أن الدكتور صلاح سمع عنها، ومطلعها: «نزلت إليك...».

قاطعتني جلنار:

ـ عفواً! لدينا مكالمة من الآنسة سندس من أبو ظبي. تفضلي.

المشاهدة ـ ما رأيك يا دكتور في الذين يقولون إن الفلسفة تؤدي إلى الكفر؟

نظرت جلنار إليّ وابتسمت وقالت:

ـ سؤال صعب.

ضحكت وقلت:

ـ لا! أبداً! سؤال مطروح من قديم الزمان. وقد ردّ فرانسيس بيكون على السؤال عندما قال: «الإلمام السطحي بالفلسفة قد يقود إلى الإلحاد. أمّا الإلمام العميق فيقود المرء إلى الإيمان». نصف العلم شيء خطر، في الفلسفة وغير الفلسفة. ومن الضروري...

قاطعتني جلنار:

ـ معنا الأستاذ موسى من المنامة. تفضل يا أخ موسى.

المشاهد ـ هل تتفضل يا دكتور فتشرح لنا لماذا سُمّيت الفلسفة الكلبية بهذا الإسم؟

تضحك جلنار، وهي تسألني:

ـ هل كان الفلاسفة يعضّون الناس في القديم؟

ـ لا أظن. ولا أستبعد. ولكن السؤال وجيه جداً. المشكلة في الترجمة الحرفية. سينو، في الجذر اليوناني، مشتقة من كلمة كلب. وعندما تُرجمت كلمة «السينكية» إلى العربية تُرجمت حرفياً فأصبحت الكلبية. هناك من يرى أن النظرية اكتسبت هذا الاسم من المبنى الذي كان أنصارها يجتمعون فيه «سينو سارجس». وهناك من يرى أنها سُمّيت بهذا الاسم نظراً إلى ما اتّصف به أتباع هذه النظرية من وقاحة تقود إلى ما يشبه النباح عند الكلام. هذه النظرية تحمل الكثير من التشاؤم وتعتقد أن الإنسان عاجز عن معرفة الخير وأنا...

قاطعتني جلنار:

ـ يستطيع الأستاذ موسى، الآن، أن يتعامل مع الكلبيين دون أن يخاف من العضّ. معنا الآن الدكتور بهاء الدين من القاهرة. تفضل يا دكتور.

المشاهد ـ ألا يرى الضيف الفاضل أن فقهاءنا الأكارم كانوا على حق عندما قالوا «من تمنطق فقد تزندق»، وألا يرى سيادته أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يجانبه الصواب عندما قال إن منطق أرسطو لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه الغبي، وألا يرى سيادته أن من يقوم بنشر الفكر المنحرف الملحد. . .

تدخلت جلنار على الفور:

ـ عفواً يا دكتور بهاء الدين! لا بُدّ أن أقاطعك. لك أن تسأل كما تشاء. ولكن ليس من حقّك أن توجّه تهمة إلى أحد. ما هو سؤالك بالتحديد؟

المشاهد ـ سؤالي، بالتحديد، هو: كيف يستطيع الدكتور جمال أن يثبت أن الفلسفة لا تتعارض مع الدين؟

الدكتور بهاء الدين هو ذلك المجرم السافل الدكتور سمهري الأرناؤوط. لا بُدّ من تلقينه درساً على الهواء. ابتسمت، وقلت:

ـ أشكر للسائل الكريم غيرته على الدين وأوجّه عنايته إلى أن الفلسفة تعايشت مع الدين منذ آلاف السنين ولم يقض أحد منهما على الآخر. بعد ذلك أقول لسيادته إن كل الفلاسفة المسلمين كانوا يستهدفون إقامة أدلة عقلية على وجود الله عزّ وجلّ، دلائل تضاف إلى الأدلة النقلية ولا تعارضها. وفي هذا المجال يقول الكندي إن الفلسفة «علم الحق الأول الذي هو علة كل حق». ونظرية ابن رشد بأكملها قائمة على وجود «المحرك الأزلي». وفي المسيحية كاد الدين أن يندمج نهائياً في الفلسفة مع القديس سانت توماس الأكويني والفلاسفة المدرسيين. خشية الإطالة، أنصح السائل الكريم بقراءة كتابي «الفلسفة للمبتدئين».

ابتسمت جلنار، وقالت:

ـ هذه دعاية مجانية لكتاب الدكتور جمال. معنا، الآن، الدكتورة ليلى من بيروت. تفضّلي يا دكتورة.

المشاهدة ـ ألا يرى الضيف الفيلسوف أن الفلسفة شيء تجاوزه الزمن، وأن علينا، في هذا العصر، الاهتمام بما هو عملي ونافع ومفيد مثل الكومبيتر وإدارة الأعمال وعلم الطيران وما إلى ذلك؟

قبل أن أتمكن من الردّ دخلت جلنار:

ـ لا بُدّ أن أشكر الدكتورة ليلى على هذا السؤال. منذ بداية البرنامج وأنا أفكر في أن أسأل الضيف سؤالاً مماثلاً ولكني لم أجرأ لأنه كان أستاذي، أعني كان أستاذاً في الكلّية التي درست بها. ما رأيك يا دكتور جمال؟

ابتسمت وقلت:

ـ في الواقع أن الرأي الذي طرحته الدكتورة ليلى هو، في حد ذاته، رأي فلسفي ١٠٠٪. رأي قائم على النظرية الفلسفية البراجماتية التي تبنّاها الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس والتي تذهب إلى نبذ أي نظرية لا يمكن تطبيقها في الواقع. على أننا إذا تجاوزنا ذلك، يمكننا القول أنه لولا فلاسفة النهضة الأوروبية الذين رأوا أن العالم تحكمه قوانين يمكن معرفتها لما حدثت الإكتشافات العلمية التي قادت، فيما بعد، إلى كل المخترعات التي نعرفها. أودّ أن أقول للدكتورة ليلى إنّه لولا الفلاسفة ما وجد الكومبيتر. وما وجدت الطائرات وأنه. . .

جلنار ـ أعتقد أنك أعطيت السؤال حقه، يا دكتور. ننتقل الآن إلى سؤال آخر. معنا الأستاذ محمد من جدة. تفضل يا أخ محمد.

المشاهد ـ أحبّ أن أضم رأيي إلى رأي الدكتور بهاء الدين، وأنا أعتقد مثله أن الفلسفة كفر وإلحاد وأنه لا يجوز لأي مسلم صادق الإيمان. . .

قاطعته جلنار:

ـ يا أخ محمد! هذا رأيك الشخصي ولن نناقشك فيه. ما هو سؤالك؟

المشاهد ـ الحقيقة أنني لا أريد أن أسأل ولكن أودّ أن أتوسع في شرح هذه النقط وفضح. . .

ابتسمتُ، وقاطعتهُ:

ـ يا أخ محمد! مهما توسّعت، فلن تقول ما قال الإمام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» ومهما توسعت أنا، فلن أستطيع أن أقول أكثر مما قاله ابن رشد في كتاب «تهافت التهافت». أقترح أن تقرأ الكتابين.

ابتسمت جلنار لي، وقالت:

ـ معنا الآن الأخ منصف من تونس. تفضل يا أخ منصف.

المشاهد ـ هل للفلسفة أي تأثير في حياتنا اليومية؟ أعني أنني كإنسان عادي أستطيع أن أذهب إلى المكتب وأعود إلى زوجتي وأولادي وأذهب إلى المقهى وأحيا وأموت دون أن أشعر أن للفلسفة أي دور في حياتي.

ضحكت جلنار، وقالت:

ـ شكراً جزيلاً يا أخ منصف! هذا كان من الأسئلة التي لم أجرأ على سؤالها.

ابتسمتُ، وقلت:

ـ أنا أرحّب بكل الأسئلة. وأقول للأخ منصف إن تأثير الفلسفة في حياتك لا يقل عن تأثير الهواء ـ وكما أنك لا تشعر بالهواء فإنك لا تشعر بالفلسفة. سوف أكتفي بالأمثلة التي ضربتها أنت. قلت إنك تذهب إلى المكتب. حسناً! لماذا لا تذهب لسرقة الناس بدلاً من ذلك؟ لأن لديك فلسفة أخلاقية تبيح العمل وتحرم السرقة. وقلت إنك تعود إلى زوجتك وأولادك. لماذا تعود إلى البيت بدلاً من أن تذهب إلى عشيقة؟ لأن لديك فلسفة تتجاوز المفهوم الأبيقوري للسعادة. وماذا عن موتك وحياتك؟ ألا ترى أنهما محكومان بفلسفة مُحدّدة مستقاة من الدين؟ وماذا...

ضحكت جلنار وقالت:

ـ يكفي يا دكتور! إذا زدت سوف يعتقد الأخ منصف أنه فيلسوف دون أن يدري. معنا الآن السيّدة كوكب من مسقط. تفضّلي يا أخت كوكب.

المشاهدة ـ أريد أن أستشير الدكتور جمال في موضوع هام. في موضوع ابني. ابني ينهي المرحلة الثانوية هذه السنة وهو مصرّ على دراسة الفلسفة. بماذا تنصحني، مع العلم أن أحوالنا المادية، بفضل الله، تجعلنا في وضع يمكننا من أن نسمح له بدراسة التخصص الذي يريده؟

قالت جلنار ضاحكة:

ـ فيلسوف صغير! ما رأي الفيلسوف الكبير؟

قلت بسرور:

ـ يا أخت كوكب! لا يصلح كل الناس لدراسة الفلسفة. سوف أعطيك بعض التلميحات التي قد تساعد إبنك وتساعدك على معرفة القرار الصحيح. العقل الفلسفي عقل في حالة تساؤل دائمة. إبنك، مثلاً، كيف ينظر إلى السيّارة؟ هل

يسأل كيف تعمل؟ وما الذي يحرّكها؟ هل يتساءل إذا جلس أمام جهاز التيليفزيون عن كيفية تمكن الجهاز من نقل صورة شخص بعيد عنا؟ عندما يطلب منه عمل شيء ما هل يتساءل عن حكمة هذا العمل؟ إذا كان لديه هذا الفضول العقلي فأنصحك أن تتركيه يدرس الفلسفة.

جلنار ـ معنا، الآن، مفاجأة سارة. الشاعر الشهير الأستاذ كنعان فلفل الذي كان ضيف البرنامج قبل شهور. أهلاً بشاعرنا الكبير.

المشاهد ـ أهلاً بجلنار الجميلة. اشتقنا.

قالت جلنار، بدلال:

ـ شكراً، أستاذي العزيز.

المشاهد: لديّ سؤالان للضيف الفاضل. أولاً، ما رأيك، يا دكتور جمال، في العبارة الشهيرة «الفلسفة زبالة المدارس»؟

تحاول جلنار أن تغالب الضحك وهي تقول:

ـ هذا سؤال قاس جداً يا أستاذ كنعان.

قلت وأنا أبتسم:

ـ على العكس! على العكس! هذه الجملة تُردّد، بكثرة، وخاصة بين طلاب الفلسفة في أوروبا. وتعليقي عليها هو ما قاله الفيلسوف الإنجليزي أوكشوت: «كلّ من أبصر لمحة واحدة ممّا يتمتع به فكر أفلاطون أو فكر هيجل من إتساع وعمق يفقد الأمل في أن يصبح فيلسوفاً». أعتقد يا أستاذ كنعان أن قائل العبارة لم يقلها إلاّ بعد أن فقد الأمل في أن يصبح فيلسوفاً.

المشاهد ـ والسؤال الآخر للضيف الفاضل هو: هل هناك علاقة بين الفلسفة والجنون؟

بدأت جلنار تضحك بعذوبة. وضحكت، بدوري، قبل أن أقول:

ـ باستثناء نيتشه لم يسجّل التاريخ حالة واحدة لفيلسوف أصيب بالجنون، أمّا العلاقة بين الشعر والجنون فالأستاذ كنعان أدرى بها مني.

قالت جلنار:

ـ واحدة بواحدة! معنا الأخت فردوس من الجزائر. تفضلي.

المشاهدة ـ هل يمكن أن يحدّثنا الضيف الكريم عن رأيه في فلسفة عملاق المسرح العربي توفيق الحكيم؟

قلت:

ـ أستاذنا المرحوم توفيق الحكيم، كما قالت الأخت السائلة، هو، بالفعل، رائد المسرح العربي ولكنني لا أعتقد أنه تعمّق في دراسة الفلسفة وأعتقد أنه من التجنّي على الحقيقة القول إن لديه نظرية فلسفية.

جلنار ـ معي الآن الأخ سامي من ألمانيا. تفضل يا أستاذ سامي.

المشاهد ـ أود أن أسأل الأستاذ: هل يوجد فلاسفة في العالم العربستاني؟ وكم عددهم؟

ابتسمت جلنار، وقالت:

ـ أعتقد أن ضيفنا سوف يقول إنه لا يوجد سوى فيلسوف واحد، وأنه سيرفض ذكر إسم هذا الفيلسوف.

نظرت إلى جلنار معاتباً، وقلت:

ـ العفو! العفو! المتفوقون في العالم العربستاني كثيرون، ويوجدون في كل مجال، والنوابغ كثيرون في كل منحى من مناحي الفكر، ولا أستثني الفلسفة.

جلنار ـ معنا الآن الدكتورة انتصار من لندن. تفضلي يا دكتورة.

المشاهدة ـ أرجو من الدكتور أن يفيدنا بالقاعدة الفلسفية التي يلتزمها في حياته والتي ينصح الآخرين باتّباعها.

قلت على الفور:

ـ وسطية أفلاطون. أفلاطون يرى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين. الكرم فضيلة، وهو وسط بين رذيلة البخل ورذيلة السفه. الشجاعة وسط بين الجبن والتهور. باختصار، القاعدة الفلسفية التي أحرص على اتباعها هي القاعدة التي يعرفها كل الناس: خير الأمور الوسط.

جلنار ـ معنا، الآن، الأخت هدى من دمشق. تفضلي.

المشاهدة ـ هل يتفضّل الأستاذ الضيف فيشرح لنا الفرق بين وحدة الوجود عند سبينوزا ووحدة الوجود عند ابن عربي.

فكّرتُ قليلاً قبل أن أجيب:

ـ يبدو أن الآنسة هدى تدرس الفلسفة. هناك وجوه شبه بين الاثنين. كلّ منهما رأى أن الخالق يتجلّى في خليقته ولا ينفصل عنها. وكل منهما كان مؤمناً، بطريقته الخاصة، ولقي هجوماً كثيراً من المتدينين. وهناك فروق كثيرة. سبينوزا نتاج التراث المسيحي/اليهودي، وابن عربي نتاج التراث الإسلامي. سبينوزا وصل إلى نظريته عن طريق أسئلة رياضية وهندسية أما ابن عربي فوصل إليها عن طريق ما يعتبره كشفاً ربّانياً. بالمعنى الدقيق، ابن عربي صوفي ويصعب اعتباره فيلسوفاً حقيقياً.

جلنار ـ معنا، الآن، الأخ خليفة من دبي. تفضل يا أستاذ خليفة.

المشاهد ـ أريد أن أعرف رأي الدكتور جمال في سارتر وفلسفة الوجودية.

أطرقت قليلاً، وقلت:

ـ سارتر، بكل المقاييس، فيلسوف كبير. إنطلاقاً من نظريتي الإنتقائية أرى أن سارتر أصاب عندما قال إن على كل إنسان أن يُحدّد لنفسه قيمه ومثله واقتناعاته ويحدّدها بكل حرية. وأخطأ عندما ذهب إلى أن كلّ القيم والمثل والاقتناعات التي يصادفها الإنسان في مجتمع ما هي، بالضرورة، قيود وأغلال، لا بُدّ أن ينفلت منها إذا أراد الحرّية.

جلنار ـ دكتور جمال! بودي أن نواصل هذه الرحلة الفكرية الممتعة إلاّ أن الوقت انتهى. إذا كان لنا أن نحكم من عدد الاتصالات التي لا تزال تنهمر فإنّ بوسعنا القول إن مستقبل الفلسفة في عربستان يدعو إلى التفاؤل. شكراً لضيفنا الكريم، وشكراً لكل صديق وصديقة من أصدقاء البرنامج، وإلى اللقاء مع ضيف مثير آخر.

لم تنقطع المكالمات التيلفونية منذ عودتي إلى المنزل حتى نمت. وجميع المكالمات تهنّئني على نجاح المقابلة. ضيف مثير آخر؟! إذن، كنت ضيفاً مثيراً لدى أعظم الجميلات إثارة؟ هذه الفكرة، في حد ذاتها، كافية لجعلي أمشي على الهواء.

الثلاثاء

بدأ الصباح بزيارة من الحاج بشمان الشويبع الذي عانقني بحرارة وكأنه يعرفني منذ سنين طويلة. قال لي إنه سعد بمقابلة صهري وأجبته أن السعادة كانت متبادلة. طلبت منه أن يراجع مسجّل الكلية غداً ليدخل اسمه ضمن طلبة الدبلوم.

قبل أن يغادر الحاج اقترب مني ووجهه يصفرّ ويحمرّ، ثم قال:

- يا سعادة العميد! أستحلفك، بالله، أن تقبل هذه الهدية البسيطة. والله ثم والله ثم والله أن زوجاتي الثلاث طالقات إذا رفضتها.

- لا داعي لكل هذا يا حاج. الهدية مقبولة. شكراً!

فتحتُ العلبة لأجد ساعة «رولكس» ذهبية مُرصّعة بالماس. ماذا أصنع بها؟ الساعة التي تلقّيتها هديّة من المرحومة زوجتي منذ ربع قرن لا تزال تعمل. استدعيت المسجّل وقلت له:

- غداً سوف يراجعك طالب كبير في السن نسبياً، طالب طموح، أرجو أن تسجّله ضمن طلبة الدبلوم. سوف نسجّله ونبقيه هناك.

- أمرك يا سيادة العميد. أي خدمة ثانية؟

- هناك مشكلة صغيرة تتعلق بتاريخ الليسانس وبالمُعدّل.

- لا تكن في همّ. سوف أرتّب كل شيء.

قام المسجل وقبل أن يصل إلى الباب ناديته:

- حسون بيه! لحظة لو سمحت!

عاد المسجّل ووقف أمامي. أخذت الساعة وقدمتها له وقلت:

- هدية بسيطة. من صديقنا الطالب.

نظر المُسجّل إلى الساعة الذهبية الماسية بذهول، وتمتم:

- لي؟ لي أنا؟ أنا؟

- أهداها لي أنا ولكنني لا أستعمل ساعات من هذا النوع. كبرت على أشياء كهذه. أما أنت فلا تزال في مرحلة الشباب. يسعدني أن أهديها لك.

قبل أن أدرك ما حدث انحنى المُسجّل بسرعة البرق وقبّل يدي. ذات يوم سأعتنق مذهب الكلبيين وأحذو حذو ديوجين، فلا آكل سوى الخبز الجافّ ولا أنام إلاّ على الأرصفة. ذات يوم!

قالت لي نيرمين إن حسني السيّد، زوج ابنتي الوسطى ناهد، في مكتبها ويرغب في مقابلتي. طلبتُ منها إدخاله، ودخل بابتسامته الدائمة:

- صباح الخير يا عمّي.

ـ صباح الخير يا حسني. ما هذه الزيارة المفاجئة؟

ـ خير يا عمي! أحد عملائي الكبار من عربستان X موجود هذه الأيام هنا.

حسني يعمل في تجارة اللحوم المُبرّدة ويُصدّر مختلف أنواع هذه اللحوم إلى مختلف عواصم عربستان. نظرت إلى حسني بحذر وقلت:

ـ أهلاً وسهلاً!

ـ ويرغب في مقابلتك.

ـ ليسانس أو دبلوم أو دكتوراه؟

ضحك حسني وهو يقول:

ـ هل أصبحت تقرأ الأفكار يا عمّي؟

ـ أنا أقرأ الأفكار منذ مدة طويلة، منذ أوّل لحظة رأيتك فيها وقرأت في فكرك أنك تنوي زواج ناهد.

ـ هل أرسله لمقابلة سيادتك؟

ـ أرسله. أرجو أن تكون لديه التوجيهية.

نظر إليّ حسني باستغراب:

ـ بطبيعة الحال يا عمي.

ـ حسناً! اطلب من نيرمين أن ترتب له موعداً غداً.

على إثر خروجه هجم الدكتور سمهري الأرناؤوط على المكتب وقال:

ـ سمعت أنك ظهرت في برنامج «عيون العالم عليك» أمس. للأسف لم أكن أعرف ولم أتمكن من مشاهدة الحلقة. كيف كانت المقابلة؟

الغبيّ المتذاكي! قلت:

ـ جيّدة. لولا بعض الأسئلة السخيفة التي وجّهها مشاهدون تافهون.

احمرّ وجه الدكتور سمهري، وغيّر الموضوع بسرعة:

ـ ماذا تنوي أن تفعل إزاء الاعتداء الغاشم الذي وقع على جسدي وعزّتي وشرفي على مشهد منك ومن أعضاء المجلس؟

ـ لا أنوي عمل شيء. كانت مشادّة عابرة، وانتهت. ليس من مصلحتنا تضخيم الأمور.

- هيهات! هيهات! دون ذلك خرط القتاد واحتساء الزعاف. سأتمسّك بحقوقي كاملة غير منقوصة.

- يا دكتور سمهري! إذا تقدّمت بشكوى مكتوبة فسوف أحيلها إلى لجنة التأديب المركزية بالجامعة. سوف يكون هناك تحقيق واسع ومن يدري فقد تضع اللجنة الجزء الأكبر من اللوم عليك.

- عليّ أنا؟

- اعتديت بالضرب على زميلين واتّهمت زميلة فاضلة في عرضها أمام شهود. لو أقامت عليك دعوى أمام المحاكم فسوف تكسبها. حقيقة الأمر، أني أبذل جهدي، الآن، لإقناعها بصرف النظر عن هذه الدعوى.

- إن هذا لعجب عجاب. «يرضى القتيل وليس يرضى القاتل»؟

- القرار راجع لك. لو كنت مكانك لنسيت المسألة نهائياً.

- ربّ عجلة أعقبت ريثاً. سوف أتأمّل.

- تأمّل ما شئت، وأخبرني.

جاءت نيرمين بملف جدول أعمال مجلس الجامعة (يا لطيف! كم عدد المضافات؟!) الذي سيعقد غداً. هذا الاجتماع هام إلى أبعد الحدود، لأن المجلس سوف يناقش فيه المخططات النهائية لمباني الجامعة الجديدة. طلبت من نيرمين ألاّ تحول أي مكالمات ولا تسمح بدخول أحد، وأمضيت بقيّة ساعات العمل أدرس الملفّ.

في الخامسة تماماً كانت دليلة واصف تضغط على جرس الڤيلا. كدت أشهق وأنا أراها. كيف لم ألاحظها من قبل؟ آه! الثياب! ثياب الكلية مختلفة تماماً عن الثياب التي ترتديها الآن. بنطلون الجينز يصف كل شيء. والبلوزة المفتوحة من أعلاها لا تكتفي بالوصف بل تشير وتومىء. والشعر الأسود يحيط بالوجه الأسمر كما تحيط حبّات الماس بساعات «الرولكس» الذهبية. قدّمت لها عصير الليمون، وقلت:

- أرجو أن تعذريني. أنا أعيش بمفردي منذ أن ماتت المرحومة زوجتي. المنزل يفتقر إلى الترتيب.

ابتسمت وقالت:

ـ المنزل رائع بصاحبه يا دكتور. ولكن لا يوجد منزل يستغني عن اللمسات النسائية.

تنحنحتُ، وقلتُ:

ـ كنت تسألين عن الفارابي وعقوله. لا بُدّ، في البداية، أن أوضّح أن الفارابي أخذ الفكرة من الفلسفة اليونانية. أخذها من أفلوطين ـ أفلوطين لا أفلاطون ـ ولم يغيّر فيها شيئاً سوى إضفاء الطابع الإسلامي. يرى الفارابي أن العقل الأول واجب الوجود ومنه يفيض العقل الثاني الذي يتطلّب. . .

قطعتُ المحاضرة عندما اكتشفتُ أنها تنظر إليّ نظرة غريبة بعض الشيء. قلت:

ـ آنسة دلال! لا أعتقد أنك جئت هنا لتتحدّثي عن الفارابي وعقوله.

ضحكت، وقالت:

ـ الحقيقة، يا دكتور، أني جئتُ لأُسمِعك تسجيلاً.

قلت بدهشة:

ـ تسجيل؟ تسجيل محاضرة؟

ضحكت مرة أخرى ـ ما أجمل ضحكات هذه الفتاة! ـ وقالت:

ـ تسجيل غزل. اسمع!

أخرجتْ من حقيبتها جهاز تسجيل صغيراً وضغطت على زر، وإذا بصوت مألوف يفحّ:

ـ دليلة! يكفي دلالاً! أرقتُ ماء وجهي وأهرقت شموخ نفسي وأنتِ تتأبّين وتنأين بكشحك. أما آن يا سمهرية القوام. . .

قلتُ بذهول:

ـ سمهري؟! الدكتور سمهري؟!

ضحكت، وقالت:

ـ منذ أسابيع وهو يكلّمني كل ليلة ويغازلني على هذا النحو. هناك ما هو أسوأ من هذا الكلام بكثير.

قلتُ بحزم:

ـ أشكرك على قدومك إليّ. بوسعنا أن نسوّي المشكلة على نحو يحفظ

كرامتك وسمعتك ولا يتسبّب في فضيحة تؤثّر على سمعة الكلّية. هل من الممكن أن أحتفظ بالجهاز مؤقّتاً؟

ـ بكل سرور.

استأذنتْ وذهبت معها أودّعها. قبل أن تخرج التفتتْ ونظرتْ إليّ نظرة عميقة نفّاذة، وهمست:

ـ آه! آه لو كان المتكلم أستاذاً غيره.

خرجت، وتركت عطرها وراءها، وتركتني مُعلّقاً بخيوط أمنية مستحيلة.

الأربعاء

كان الزائر الأول هو عميل حسني السيّد شويطر الشاطر. سمعت المحاضرة المعهودة عن حبّه في إستئناف دراسته الجامعية التي اضطر إلى قطعها نتيجة الظروف القاسية التي دفعته إلى مزاولة التجارة حتى أصبح، بحمد الله، مستوراً (أي مليونيراً). طلبت منه أن يراجع المُسَجل في الغد، وغادر المكتب بعد أن رجاني بحرارة، ولكن بدون طلاق، أن أقبل هديته البسيطة، «بياجيت» هذه المرة. استدعيت المسجّل وطلبت منه إكمال اللازم وأعطيته الساعة. كنت مستعداً، هذه المرة، ولم يتمكن المُسجّل من تقبيل يدي. اكتفى بدعاء من الأعماق تخلّلته دموع حقيقية:

ـ الله يسترك يا سعادة العميد! أستطيع، الآن، علاج البنت. الله يسترك في الدنيا والآخرة!

علاج بنت مريضة، طبقاً لكل المذاهب الفلسفية، أفضل من الإحتفاظ بساعات ثمينة لا يلبسها المرء، بل ويحتقر لابسيها.

بعد خروج المُسجّل اتصلتُ بالدكتور سمهري ورجوته الحضور إلى مكتبي. جاء منفوشاً لا يعلم المفاجأة غير السارة التي تنتظره. على خلاف العادة، لم أطلب له قهوة، وبدأت فور جلوسه:

ـ هناك طلب من الجامعة المعتصميّة في عربستان X. يريدون أستاذاً لآداب اللغة العربية. لا أعتقد أنهم سيجدون أفضل من سيادتك.

زفر الدكتور سمهري وقال:

ـ واعجباه! أعرضٌ هزيلٌ بعد عرض هزيل من جويمعة تافهة؟! لا يسعني إلا أن أضع العرض تحت ضبني.

قلت مدهوشاً:

ـ تحت إيه؟!

ـ ضبني. وقد قال الشاعر: «وفي كل يوم تحت ضبني شويعر»...

قاطعته:

ـ لو كنت مكانك، يا دكتور، لما وضعت العرض تحت ضبني.

ـ ولم كان ذلك كذلك؟

ـ أرجو أن تستمع إلى هذا التسجيل.

انطلقت كلمات الدكتور سمهري القرمزية من الجهاز وبدأ وجهه يشحب ويشحب. بعد دقائق أوقفت الجهاز ونظرت إليه. زفر وقال:

ـ ماذا أقول؟ أقول: «والحرّ مُمتَحنٌ بأولاد الزنا». وهذا الإفتراء القذر سأضعه تحت قدمي، وأقاضي تلك الطالبة المفترية.

ـ بمناسبة المقاضاة أبلغتني الدكتورة تفاحة أنها مصرّة على تقديم دعوى إلى المحاكمة.

ـ هذه الطّرطبة!

ـ رأيي أن تقبل العرض. وسوف أقنع دلال بأن تنسى المعاكسة. وأقنع الدكتورة تفّاحة بإغلاق الملف.

قال بصوت خافت:

ـ ماذا أقول؟ أقول: «ربّ عجلة أعقبت ريثاً».

قلت مبتسماً:

ـ خذ ما تشاء من وقت. غير أني سوف أكتب الآن إلى الأستاذ الدكتور مدير الجامعة مقترحاً ترشيحك لهذه الوظيفة.

صرخ الدكتور سمهري:

ـ ماذا أقول؟ أقول: «تغرّب لا مستعظماً غير نفسه».

قلتُ:

ـ بالضبط! أنا واثق أنك سوف تستمتع بإقامتك هناك. وسنراك في القريب،

ستين على الأكثر.

بعد خروج الدكتور سمهري قالت لي نيرمين عبر التيلفون:

ـ هناك طالبة تريد مقابلتك.

قلت بضيق:

ـ منذ متى أصبحتُ أقابل الطلاّب والطالبات يا نيرمين؟

ـ تقول إن لديها توصية من الفارابي بيه.

ابتسمتُ، وطلبت من نيرمين إدخالها. لم أصدّق أن دلال التي تقف أمامي، الآن، هي دلال التي رأيتها البارحة. الطالبة التي تقف أمامي تبدو وكأنّها أمّ دلال الأخرى. فستان واسع كالجلابية لا يظهر شيئاً. وشال أبيض يلفّ الرقبة. وحجاب أبيض يغطّي الرأس. ونظارة طبيّة سميكة. قلت باستغراب:

ـ أنت؟!

ضحكت، وقالت:

ـ ثياب الدراسة!

قلت:

ـ خير يا بنتي؟

قالت بدلال (هاه! هاه! دلال قالت بدلال!):

ـ أرجو ألا تستعمل هذه الكلمة أبداً.

ـ حسناً! خير يا دلال؟

ـ شعرت بتأنيب الضمير بعد رجوعي إلى المنزل البارحة. لا أودّ أن يحدث شيء للدكتور سمهري بسببي.

ـ لن يحدث له إلا ما يستحقه.

ـ ومع ذلك فأنا أشعر أنني أخطأت حين. .

دخلت نيرمين، فجأة، وقالت:

ـ سعادة العميد! مجلس الجامعة بعد نصف ساعة.

التفتّ إلى دلال، وقلت:

ـ أنا آسف. لا بُدّ أن أمشي الآن.

قالت باستحياء:

ـ متى أراك مرة أخرى؟

قلت بدون تفكير:

ـ غداً. نفس الوقت.

استغرق اجتماع مجلس الجامعة ٥ ساعات كاملة. في النهاية وافق المجلس على المخططات. قبل نهاية الجلسة قال مدير الجامعة:

ـ أقترح أن تشكّل لجنة البت في العطاءات من عميد الهندسة وعميد الحقوق وعميد الآداب. عميد الهندسة للتأكد من دقة المواصفات، وعميد الحقوق للإشراف على النواحي القانونية، وعميد الآداب لمراعاة النواحي الأخلاقية.

ضحك الأعضاء ووفق على الاقتراح بالإجماع. حقيقة الأمر أن المدير لم يرشحني لأسباب أخلاقية. رشّحني لأني صديقه منذ السنة الأولى في الكلية وبيننا، غير الصداقة، مصالح متبادلة كثيرة.

قبل أن أنام طلبت من المهندس وحيد عاكف، زوج ابنتي الصغرى وردة، وصاحب شركة الوحدة للمقاولات المعمارية، أن يأتي غداً، بمفرده، ليتناول معي طعام الغداء.

الخميس

قضيت الصباح في مركز «حيّ بن يقظان للدراسات الاجتماعية». كان مجلس إدارة المركز قد شكّل لجنة برئاسة مدير المركز الدكتور نجم النهار رشدي تضمّ عدداً من المثقفين، من داخل المجلس وخارجه، وكنت أنا أحدهم. كان هذا أوّل اجتماع تعقده اللجنة. بدأ الدكتور نجم النهار:

ـ لا نستطيع، بطبيعة الحال، أن نقوم بالعمل بأنفسنا. الموضوع يحتاج إلى دراسة ميدانية موسّعة وإلى جهود عدد من الباحثين. ولكن علينا أن نضع، الآن، الخطوط العريضة للبحث. أقترح أن يكون البحث منصباً على الأوضاع العربستانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أنتجت ظاهرة الأصولية دون التطرّق...

قاطعته، وسألت:

ـ هل قلت الأوضاع العربستانية؟

ـ نعم.

ـ ولكن مجلس الإدارة كلّفنا بدراسة الأصولية، والأصولية ظاهرة عالمية توجد في كل مكان. لماذا نقتصر على العالم العربستاني؟

ـ لأن المشكلة الملحّة، اليوم، تكاد تقتصر على الأمة العربستانية.

ـ مع احترامي الشديد، يا دكتور، هذا كلام غير دقيق. هناك حكومة أصولية تحكم الهند. وحكومة أصولية تحكم إسرائيل. هناك ٥٠ مليون مواطن أمريكي يمكن تصنيفهم ضمن الأصوليين وهناك...

قاطعني الدكتور نجم النهار:

ـ عفواً يا دكتور جمال! لو بحثنا الظاهرة الأصولية في كل مكان لاحتجنا إلى عشرات السنين. لا بُدّ من أولويات واضحة. لنبدأ بعربستان ويمكن عندما تنتهي الدراسة، البدء بدراسة أخرى أوسع.

تمسّكتُ برأيي، وتمسّك الدكتور نجم النهار برأيه، وطُرح الموضوع للتصويت، وصوّتتْ الأغلبية مع نجم النهار. عندما خرجنا، وكنت على وشك الدخول في سيارتي، جاءني الأستاذ وجدي النجار رئيس تحرير صحيفة «الغد» وقال:

ـ يا فيلسوف باشا! أنت عبيط أو تستعبط؟!

قلت مذهولاً:

ـ نعم؟!

ضحك وقال:

ـ هل تتوقع من «السي. آي. ايه» التي أنشأت هذا المركز وموّلته وتدفع كل نفقاته، بما فيها مكافآتنا السخية، هل تتوقع منها أن تموّل دراسة عن الأصولية في أمريكا؟

قلت مرة أخرى:

ـ نعم؟!

ضحك الأستاذ وجدي وانصرف. لماذا لم يخطر ببالي، حتى هذه اللحظة، أن أتساءل من أين جاء المال الطائل الذي ينفقه المركز بلا حساب؟! أنا فيلسوف ولا يمكن، منطقاً، أن يكون الفيلسوف عبيطاً. لا بد، إذن، أنني أستعبط!

بعد الغداء مع وحيد، أدخلته غرفة المكتب، وسلمته ظرفاً ضخماً وقلت:

ـ وحيدا هذه هي المواصفات النهائية للمباني الجديدة. سوف يُعلن عن

المناقصة في الصحف بعد شهرين تماماً. لديك فرصة شهرين تمكنك، إذا كنت ذكياً، من التغلّب على المنافسين.

قال وحيد:

ـ لا أدري كيف...

قاطعته:

ـ شقيق الدكتور مدير الجامعة يعمل في مجال المقاولات الكهربائية...

قاطعني وحيد:

ـ مفهوم، يا عمي، مفهوم.

قبل أن يخرج وحيد انحنى وقبّل يدي. ماذا أقول؟ أقول: هذا أسبوع تقبيل اليد!

في الخامسة تماماً وصلتْ دلال، أعني الطبعة المسائية غير الجامعية من دلال. لم تكن ترتدي بنطلون جينز هذه المرة ولكنها كانت تلبس فستاناً قصيراً جداً، مثيراً جداً. تركت الشعر كله سجيناً في ضفيرة واحدة. ماذا حدث للنظارة السميكة؟ هل هي مزيّفة؟ أم أنها ترتدي عدسات لاصقة في المساء؟ هذه، بالتأكيد، فتاة غريبة. جلستْ وتأمّلتْ ما حولها، وقالت:

ـ لا أزال أعتقد أن هذا المحل يحتاج إلى لمسات نسائية.

قلت مُحرجاً:

ـ المعذرة!

قالت:

ـ فيما يخص التسجيل...

قاطعتها:

ـ قلتُ لك ألاّ تهتمّي بموضوع التسجيل. كان تصرفك طبيعياً. أزعجك الرجل وتصرّفتِ على النحو السليم.

ضحكت، وقالت:

ـ هذا صحيح. ولكني لم أكن مضطرة إلى التسجيل لإيقافه عند حدّه. كنت أستطيع أن أفعل ذلك، بكل سهولة، دون حاجة إلى تسجيل. الحقيقة، يا دكتور، أنه كان في ذهني هدف آخر.

ـ هدف آخر؟

ـ هل بوسعي أن أتحدّث بصراحة؟

ـ تحدّثي بكل صراحة.

ـ بصراحة، كنت آمل أن أثير عن طريق هذا التسجيل غيرة إنسان آخر. لا! لا! لم يكن هذا هدفي. كنت أحاول أن أثير إنتباه أستاذ آخر.

ـ آنسة دلال! لم...

قاطعتني:

ـ سمّني دلال!

ـ دلال! لم أفهم ما تقصدينه.

ـ كنت أريد أن يشعر أستاذ آخر بوجودي، أستاذ لم يكن يشعر بوجودي.

قلت كالببغاء:

ـ أستاذ آخر؟

ـ وقد اخترته بالطريقة الإنتقائية، أعني باتّباع الفلسفة الإنتقائية.

ـ دلال! وضّحي رجاءً!

ـ ألم تعلّمنا، يا دكتور، أن الإنتقائية تقوم على أسس منهجية، بمعنى أنها عندما ترفض نظرية فلسفية فإنها ترفضها لأنها لا توافق على المنهج الذي قامت عليه هذه النظرية، وعندما تقبل نظرية فلسفية فإنها تقبلها لأنها تثق بصحة المنهج الذي قاد إلى هذه النظرية؟

ـ هذا صحيح.

ـ والإستنتاج طريقة منهجية معترف بها؟

ـ بطبيعة الحال.

ـ لا أزال أذكر أوّل مثال للإستنتاج، وقد تعلمته منك.

ـ مني أنا؟

ـ نعم. كنت وقتها طالبة في السنة الثانية. وكان المثال:

كل البشر يتكلمون
اليونانيون يتكلمون
إذن، فاليونانيون بشر

ـ برافو! هذا هو المثال التقليدي. ذاكرة قويّة.

ـ أودّ الآن، أن أعرض عليك بعض الاستنتاجات التي وصلت إليها، وأرجو أن تصلح الخطأ المنهجي إذا كان هناك أية أخطاء في المنهج.

أي لعبة خطرة تلعبها هذه الفتاة الخطرة؟ قلتُ بحذر:

ـ تفضّلي.

ـ أنا أحبّ كلّ الأذكياء الظرفاء أقوياء الشخصية

فلان ذكيّ ظريف قويّ الشخصية

إذن أنا أحبّ فلان

هل المنهج منضبط؟

ـ منضبط جداً.

ـ حسناً! أود، الآن، أن أخطو خطوة ثانية:

أنا لا أحبّ إلاّ الأذكياء الظرفاء أقوياء الشخصية

أنا لم أر إلا إنساناً واحداً ذكياً ظريفاً قوي الشخصية

إذن، أنا لا أحبّ إلاّ هذا الإنسان.

ألا يزال المنهج منضبطاً؟

ـ لا يزال.

ـ وأنت هذا الإنسان.

خفق قلبي بشدّة. منذ موت المرحومة زوجتي قبل أكثر من عقد من الزمان وعلاقاتي النسائية تقتصر على الدكتورة تفاحة، الأرملة تواسي الأرمل، وعلى أشياء عابرة أخجل حين أذكرها. وأمامي، الآن، فتاة باهرة الجمال تحبّني، وتحبّني عبر فلسفتي الإنتقائية. لا أدري ماذا حدث بعد تصريحها: لم يعد هناك منهج منضبط. وجدت نفسي أقبّلها كما لم أقبّل من ٣٠ سنة وأضمّها كما لم أضمّ من ٤٠ سنة، ووجدتها تبادلني التقبيل والضمّ. سمعت صوت باب الفيلا يُفتح ثم سمعت صوته يُغلق. لم يَدُر ببالي وأنا أعانق شهوات شبابي الغابر أن أتساءل عن سبب الفتح وسبب الإغلاق.

بعد مدة لا أدري طالت أو قصرت قالت دلال:

ـ جمال! لا بُدّ أن أذهب. يكاد الليل ينتصف.

بدون شعور تساقطت الكلمات من فمي:

- دلال! هل تقبلين أن تتزوجيني؟

كان ردّها أعنف بكثير من كل شيء سبقه.

الجمعة

كان، اليوم، موعد الرحلة السنوية لأعضاء هيئة التدريس في الكلية. كنا قد قررنا بناء على دعوة من الدكتورة تفّاحة أن تكون الرحلة إلى المنطقة الصحراوية التي تجري فيها آخر حفرياتها. بدأت تفاحة تطوف بنا من موقع إلى موقع وهي تشرح:

- هنا ضريح طفل. وهنا منزل قديم. وهذه البقايا تدلّ على أن المكان المجاور كان معبداً. وذلك التمثال. . .

كنت أستمع وأفكاري في مكان بعيد آخر. بعد قليل وجدت نفسي أمشي مع تفاحة التي كانت تحمل في يدها اليمنى فأساً تستعين به أثناء الحفر. بغتة، خطر ببالي أن الباب الذي فُتح وأغلق البارحة لم يُفتح ويُغلق إلا بواسطة تفاحة، الوحيدة التي تملك مفتاح الڤيلا. مع مجيء الفكرة جاءت قشعريرة قطعتها تفاحة:

- بمناسبة الحبيبة الجديدة أرى أن واجبي يتطلب مني أن أقدم لك هدية مناسبة.

قلت بصعوبة:

- أي جديدة؟ أعني أي هدية؟ أعني أي مناسبة؟ أعني. . .

ضحكت تفاحة، وقالت:

- أرجو أن تقبل هديتي المتواضعة. هذا الفأس.

بسرعة مذهلة ارتفع الفأس وهوى على رأسي. سقطتُ على التراب أرقب الدماء المتسرّبة إلى قميصي.

من ورائي سمعت الدكتور سمهري:

- ماذا أقول؟ أقول:

«لقد أصبح الجرذ المستغير ∴ أسير المنايا، صريع العطب».

وسمعت الدكتور محرز يقول:

- صح!

وسمعت تفاحة تضحك من جديد، ثم لم أعد أسمع شيئاً.

٣

الصحفي

والظلمُ من شيم النفوس.. فإن تجدْ
ذا عـفّـةٍ فـلـعـلّـةٍ لا يـظـلـمُ

المتنبي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: مسعود سعادة نور أسعد

اسم الشهرة: مسعود أسعد

المهنة: صحفي. رئيس تحرير «صوت الحقيقة» ومالكها.

العمر: ٥١ سنة

الثروة: ٢١ مليون دولار (على الأقل).

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: لندن

المؤهلات الدراسية: الثانوية العامة

الحالة الاجتماعية: مُطلّق

الأولاد: بدون

الاثنين

في العاشرة، كعادتي كل صباح، دخلت مكتبي في «صوت الحقيقة». وكعادتي، كل صباح، فتحتُ الشباك المُطلّ على «ادجاور رود»، وتأمّلت العالم العربستاني الصغير الذي يموج فيه. رفعتُ السمّاعة، وردّت كاثي:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير، يا كاثي. ما هو البرنامج؟

ـ مزدحم أكثر من العادة.

ـ موسم الهجرة! لا بأس! متى سيجيء الضابط؟

ـ بعد نصف ساعة.

ـ حسناً! أدخليه فور وصوله.

رفعت السمّاعة، كعادتي قبل كل اجتماع، وطلبت من جوني الحضور. دخل جوني وقلت له:

ـ جوني! تأكّد أن كل شيء يعمل.

«كل شيء» تعني أجهزة التسجيل والتصوير المُخبّأة، بعناية، في أنحاء المكتب الكبير. بعد فحص سريع قال جوني وهو يغادر المكتب:

ـ كل شيء على ما يرام.

دخلتْ كاثي تحمل رزمة من الجرائد البريطانية، ورزمة أخرى من الجرائد العربستانية. ألقيت نظرة سريعة على الجرائد البريطانية، ونظرة سريعة أخرى على الجرائد العربستانية وتوقفت عند واحدة منها «الحرية»، منافستي الأخطر في لندن. كثر المنافسون! عندما أسّست «صوت الحقيقة» قبل ١٦ سنة كنت أوّل صحفي

يؤسّس ما سُمّي فيما بعد الصحافة المهاجرة. أما الآن فهناك جريدة جديدة كل يوم. لكل حكومة جريدة، ولكل معارضة جريدة، ولكل رجل أعمال جريدة. إلاّ أن المنافسة الحقيقية ليس لها سوى مصدر واحد، «الحرية». وليس لي بين الصحفيين المهاجرين سوى منافس واحد، صاحب «الحرية» عدنان شهوان. هذا الرجل يقلّدني في كل شيء. يقلّد أسلوبي وعناوين مقالاتي وإخراج جريدتي. لم يبق إلاّ أن يقلّد مشيتي. ويدّعي أن «الحرية» تبيع أكثر من «صوت الحقيقة». الكاذب القذر! أكاذيبه المعتادة تملأ وُريقته الصفراء، كالمعتاد. ابتسمتُ وأنا أبحث عن الخبر المدسوس المختلق عني. منذ ٦ شهور بدأنا هذه اللعبة. في كل نسخة من «صوت الحقيقة» خبر مختلق عنه. وفي كل نسخة من «الحرية» خبر مختلق عني. لا أعتقد أن أحداً غيري وغيره يعرف المقصود. هذا هو الخبر، اليوم، بين إعلانات مطاعم الشاورمة. بدأتُ أقرأ «ثريّ عربستاني آخر يقع ضحية لصّ» أبلغنا مراسلنا القضائي (هاه! هاه! مراسلهم القضائي!) أن بوليس «سانت جونز ود» يبحث عن محتال خطف من ثريّ عربستاني حقيبة يد تحتوي على ٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني. وعلم مراسلنا من مصادر البوليس أن اللص رجل ذو ملامح شرقية، في أواخر الأربعينات من العمر، أصلع مُقدّمة الرأس، على جبينه أثر جرح قديم. . .». لم أتمالك نفسي من الضحك وأنا أقرأ هذا الوصف الدقيق لي. لا بُدّ من رد مناسب يُنشر غداً في «صوت الحقيقة». ماذا أجعله هذه المرّة؟ مهرّب مخدّرات؟ مغتصب قاصرات؟ قطع عليّ رنين التيلفون تأمّلاتي:

ـ السيد أسعد! الضابط وصل.

ابتسمتُ. منذ أن بدأت أنام مع كاثي بدأتْ تسميني مسعود، حتّى أمام الناس. تطلّب الأمر بعض الوقت قبل أن تفهم أن علاقة المخدع لا علاقة لها بعلاقة المكتب. في المكتب أنا السيد أسعد. أما في السرير فيمكن أن أتحوّل إلى مسعود. قلت:

ـ أدخليه يا كاثي.

عانقت الضابط الشاب وأنا أردّد:

ـ أهلاً وسهلاً! شرّفت! أهلاً وسهلاً! أنا في انتظارك منذ مدّة.

قال بحرارة:

ـ أشكرك! أشكرك! يشرّفني أن ألتقي بك. سمعت عنك الكثير. لا تتصوّر فخرنا بك وبـ «صوت الحقيقة».

لا بد أن نأخذ الناس على قدر عقولهم. قلت بتواضع كاذب:

- نحن يا أخي في خدمة القضية من المحيط إلى الخليج. العروبة لساننا، والعروبة طريقنا، والعروبة مصيرنا. وكلّ ما نقوم به من جهود هو جزء من واجبنا القومي. أخبرني صديقنا المشترك أن لديك وثائق هامة.

- هامة جداً. ورأيت أن «صوت الحقيقة» هي المكان الأمثل لنشرها.

- نحن لا نتردد في نشر أيّ شيء يخدم القضيّة، ولو قادنا النشر إلى حتفنا.

حقيقة الأمر أنه كاد يقودنا إلى حتفنا أكثر من مرّة. تحسّست أثر الجرح القديم في جبهتي. قال الضابط الشاب:

- هذا هو الأمل فيكم.

- هل يمكن أن تحدّثني عن الوثائق؟ ما هي طبيعتها؟

- وثائق تدمغ رئيس الأركان في عربستان X بشراء أسلحة فاسدة.

استيقظت كلّ غرائز الصحفي. هذه خبطة من خبطات العمر. ولكن لا بد من التقدّم بحذر. قلت:

- أسلحة فاسدة؟! هل تمزح؟ لم تعد هناك أسلحة فاسدة منذ أيام الملك فاروق. وحتّى في تلك الأيام، إذا توخّينا الدّقة التاريخية، لم تكن هناك أسلحة فاسدة.

- ولكن الأسلحة التي أتحدّث عنها فاسدة تماماً يا أستاذ مسعود.

- ماذا تقصد؟

- ٣٠٠ دبابة معطوبة عطباً كاملاً. من مُخلّفات الحرب في أفغانستان. ودفع رئيس الأركان مليار دولار مقابل هذه الزبالة الحديدية.

صفّرت وأنا أقول:

- مليار دولار؟! مليار؟! هل أنت متأكد؟

فتح الضابط الحقيبة، وأخرج مجموعة من الأوراق قدمها إليّ وهو يقول:

- تفضّل! هذه صور الدبابات. انظر بعينيك! هل هذه دبابات قادرة على الحركة فضلاً عن القتال؟ وانظر! هذا هو العقد الذي وقّعه رئيس الأركان مع شركة «فايت». وانظر! هذه هي الوثيقة التي تثبت أن «فايت» شركة وهمية ورقية مُسجّلة في بناما وتملكها السيدة مفاتن. أنت تعرف السيدة مفاتن؟

- زوجة رئيس الأركان الجديدة؟

ـ تماماً.
ناولني الضابط المزيد من الأوراق، وهو يقول:
ـ وهذه وثيقة أخرى تثبت...
قاطعته:
ـ لا حاجة إلى المزيد. هذا يكفي.
ـ يكفي لإلغاء الصفقة؟
ـ بكل تأكيد.
ـ ويؤدّي إلى الإطاحة برئيس الأركان؟
ـ بدون شك أو ريب.
لا أدري مقصد هذا الضابط المتحمّس. علّمتني الحياة أن أحداً لا يقوم بشيء إلاّ مقابل شيء. لا توجد إستثناءات. قد لا يكون هذا الشيء مالاً. إلا أنه في الغالبية الساحقة من الحالات المال. قلتُ بحذر:
ـ ماذا عن المصاريف؟
ألقيت الصنّارة فهل يبتلعها؟ احمرّ وجه الضابط وقال:
ـ المصاريف؟ أيّ مصاريف؟ ماذا تقصد؟
حسناً! حسناً! صاحبنا الشاب لا يريد مالاً. قد أعرف هدفه الحقيقي ذات يوم. وقد لا أعرفه. الإنتقام من رئيس الأركان؟ الإنتقام من مفاتن؟ لا يقوم أحد بشيء إلاّ مقابل شيء. إذا كان الضابط لا يريد مالاً فهذا شأنه.
قلت:
ـ أعني المصاريف التي تكبّدتها في سبيل الحصول على هذه الوثائق. التصوير. أتعاب المحامين. المواصلات.
ردّ على الفور:
ـ لا توجد مصاريف. والنثريات البسيطة تكفّل بها الإخوان.
الإخوان؟ من هم الإخوان؟ ليس من الحكمة أن أسأل وليس من الضروري أن أعرف. للإخوان هدفهم الذي قد أعرفه مستقبلاً وقد لا أعرفه. وقفتُ أصافح الضابط قائلاً:
ـ لا أدري كيف أعبّر لك عن شكري.
ـ الشكر الوحيد الذي أتوقّعه هو نشر الوثائق. متى ستنشرها؟

ـ في أقرب فرصة! في أقرب فرصة!

خرج الضابط، وسألت كاثي:

ـ الموعد القادم؟

ـ باربرا.

ـ متى ستجيء؟

ـ في أيّ لحظة الآن.

بدأتُ صياغة الخبر الذي سيظهر غداً في «صوت الحقيقة» عن صديقي اللدود، «عربستاني يتعرض لاعتداء خطير» «أبلغنا مراسلنا البوليسي (هاه! هاه! مراسلنا البوليسي!) أن أحد العربستانيين تعرّض لاعتداء جسدي عنيف على إثر مغادرته حانة في «سوهو» وهو في حالة من السكر الشديد. وأضاف مراسلنا أن ضحية الاعتداء رجل أشقر، له لحية صغيرة مُدبّبة، وعلى خدّه...». رنّ التيلفون وقالت كاثي إن باربرا وصلت، وطلبت أن تدخلها على الفور.

قمتُ أقبّل الزائرة الحسناء التي كانت، ذات يوم، عشيقتي. كيف تدور الأيام؟! كنتُ أحبّها، ذات يوم، وكانت تحبّني. إلا أن كل شيء في هذه الحياة ينتهي. كل شيء! أصبحت الآن «مراسلة» تنقل الأخبار المثيرة، وتتقاضى مبلغاً عن كل خبر يمكن استثماره. جلست أمامي وابتسمت. قلت:

ـ باربي! ما هي الحصيلة؟

ـ كان الأسبوع الماضي مُخيِّباً للظن.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ الحصيلة المعتادة. الحُثالة!

ـ ألا يوجد اسم واحد معروف؟

ـ لا.

ـ ألا يوجد مليونير واحد؟

ـ لا.

ـ إذن فأنتِ لا تتوقّعين شيئاً اليوم مني؟

ـ على العكس. أتوقّع الكثير.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لديّ الليلة موعد مع إنسان يهمّك أمره.

ـ من هو؟

ـ الجنرال جاكوبي.

بمجرّد أن نطقتْ بالاسم أدركت أن خبطة أخرى تنتظرني. جاكوبي في حقيقة الأمر ليس جنرالاً، وإن كان يُحبّ أن يُنادى بهذا الاسم. جاكوبي ثريّ يهودي يحمل عدة جنسيات منها الجنسية الإسرائيلية، ويقوم بمهمات كثيرة لإسرائيل من أهمّها إجراء اتصالات غير رسمية مع الحكومات العربستانية التي تودّ الاتصال بإسرائيل، وتودّ أن يظل الإتصال سراً.

قلت على الفور:

ـ ١٠٠٠ جنيه.

ـ لا يكفي.

ـ حسناً! ٥٠٠٠ جنيه.

ـ ماذا تودّ أن تعرف؟

ـ آخر الاتصالات بين العربستانيين وإسرائيل.

ـ سأبذل جهدي.

ـ مرّي على الصندوق وخذي المبلغ.

ـ نقداً.

ـ بطبيعة الحال.

بمجرّد أن خرجتْ باربرا قلت لكاثي:

ـ لا أريد أن أقابل أحداً الآن.

ـ ولكن هناك...

ـ قاطعتها:

ـ ألم تسمعي؟ قلت لك إني لا أريد أن أرى أحداً الآن.

ـ حسناً! حسناً! حسناً!

ـ اطلبي من مدير التحرير أن يجيء فوراً.

دخل الأستاذ نصيف غوازي، مدير التحرير، المكتب تسبقه غمائم الدخان المنطلقة من السيجار الكوبي الفاخر. كل سفارة عربستانية في لندن، تقريباً، تمطر نصيف بصناديق من السيجار الفاخر. جلس أمامي، وهو يتمتم:

ـ صباح الخير، يا مُعلّم.

ـ مرحباً نصيف. أمامك مهمّة تحتاج إلى شيء من الدبلوماسية.

ـ تأمر!

ـ أريد منك كتابة ٣ مقالات عن صادرات أفغانستان.

ـ أفغانستان؟ العمى! أفغانستان لا تصدر شيئاً سوى الأفغان العربستانيين.

ـ تطوّرت الأمور يا نصيف. أصبحت أفغانستان دولة مصدّرة.

ـ ماذا تصدّر؟

ـ كل شيء تقريباً.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا يهم، الآن، أن تعرف نوع الصادرات. المهمّ أن تكتب ٣ مقالات عن صادرات أفغانستان. أريد أن يكون عنوان المقال الأول «أفغانستان في نادي المصدّرين».

ـ ولكن ماذا أقول فيه؟

ـ ولو يا نصيف! قل إن أفغانستان دخلت نادي المصدّرين. وأن البقيّة في الحلقة القادمة.

ـ وماذا أكتب في الحلقة القادمة؟

ـ سوف أخبرك غداً.

شعرت بنشوة مفاجئة على إثر خروجه. هذا يوم يستحق أن أحتفل به. قلت لكاتي:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الواحدة.

ـ ما رأيك في أن أدعوك لتناول الغداء؟

ـ فكرة ممتازة.

ـ وما رأيك أن نأخذ إجازة، أنا وأنت، بقيّة اليوم؟

ـ فكرة أكثر من ممتازة. محلّي أو محلّك؟

ـ فندق.

ـ ولماذا الفندق؟

ـ التغيير بهار الحياة. اسبقيني إلى السيارة.

عندما غادرت مكتبي وجدت كاثي وراء مقود «الرولز رويس». مهامّ كاثي العديدة تشمل قيادة السيارة.

قالت:

ـ أين سنتغدى؟

ـ في «ستار أوف انديا».

ـ هل أنت في مزاج هندي اليوم؟

ـ أنا في مزاج أفغاني.

ـ ماذا تقصد؟

ـ اخرسي! وانطلقي إلى المطعم.

الثلاثاء

دخلت مكتبي، كالعادة، في العاشرة. وكالعادة، فتحت الشبّاك. وكالعادة، بدأت أتصفّح الجرائد. «الحرية»! أين الخبر الملفّق؟ وجدته بين أخبار الوفيات. ابتسمت وأنا أقرأ: «اختفاء غامض». «تتساءل الأوساط الصحفية العربستانية في لندن عن مصير صحفي معروف بإتصالاته المشبوهة اختفى فجأة في الأسبوع الماضي. وتردد الشائعات أن هذا الصحفي لقي حتفه أثناء حادثة...». رميت الجريدة وأنا أتمتم: «ده بعدك!». تناولت «صوت الحقيقة». تصدّر الصفحة الأولى العنوان العجيب «أفغانستان في نادي المصدّرين». ضحكت وأنا أتابع ما دبّجه يراع نصيف غوازي «قد لا يصدّق أحد أن أفغانستان هذه الدولة المنكوبة الممزّقة الجريحة قد أصبحت، الآن، لاعباً فعّالاً على الساحة الدولية. مهلاً عزيزي القارىء! لا تستبق الأمور! لا تمتلك أفغانستان قنبلة إسلامية ذرّية. وليس لأفغانستان تلك القوة الضاربة القادرة على إرعاب الجيران. تتساءل عزيزي القارىء، ولك الحق أن تتساءل، كيف تمكنت أفغانستان من دخول المعترك الدولي بطريقة فعّالة مؤثرة؟ الجواب ببساطة، هو التصدير. التصدير! وماذا تصدّر أفغانستان؟ هذا هو السؤال! السجّاد؟ حكاية قديمة. الحشيش؟ حكاية قديمة. أترك لك الفرصة لتتمتع بتخميناتك، وأعدك أنني سوف أعطيك الجواب في الحلقة القادمة». رفعتُ السماعة وقلت لنصيف:

ـ برافو! برافو! تفوقت على نفسك.

ـ شكراً يا معلم.

ـ حلقة ممتازة.

ـ تسلم! وماذا عن حلقة الغد؟

ـ أكثر فيها من كلمة دبيب ومشتقّاتها.

ـ ماذا؟

ـ دبيب ومشتقّاتها.

ـ ماذا تقصد يا معلّم؟

ـ قل هذا دبّ. وهذه دبّت. وأكثر من الدبيب.

ـ ما هي القصة؟ هل تريد مقالاً أو دبابة؟

ـ أحسنت! أحسنت! هذا هو المقصود.

ـ ما هو المقصود؟

ـ أريد مقالاً/ دبّابة.

ـ أقفلت السمّاعة وسألت كاتي:

ـ من زائرنا الأول اليوم؟

ـ الأعمى.

ـ آه! الأعمى! هل وصل؟

ـ هو عندي الآن.

ـ أدخليه بعد ١٠ دقائق.

الأعمى رجل حاد البصر والبصيرة، واحد من أفضل «المراسلين» الذين يتعاونون معي. هدته بصيرته، قبل سنوات طويلة، أن فقْد البصر وسيلة ناجعة من وسائل الإرتزاق في لندن التي تعجّ بالعربستانيين الأثرياء الذين يعطفون على ذوي العاهات. وضع نظارة سميكة جداً على عينيه، ومن باب الاحتياط كان حريصاً على أن يقطر في عينيه قطرات من محلول يجعلها تبدو بلون أزرق مخيف فيما لو سقطت النظارة السوداء. بدأ يقلّد حركات العُمْي وسكناتهم حتّى أتقنها. أصبح أشد عمىً من أيّ أعمى حقيقي. وأشفق الكرام الكرماء عليه. وفُتِحتْ أبواب كثيرة أمامه. والأعمى، فوق عماه، رجل متعدّد المواهب يجيد الغناء، ويعزف على أكثر من آلة موسيقية، ويروي النكت، ويؤلّف الأزجال، ويرقص عند اللزوم. وبعض الناس يفعلون كل شيء أمام الأعمى مطمئنين إلى عماه، وإلى ما

عُهِد عنه من كتمان. لا عيب في الأعمى سوى طمعه الشديد.

دخل الأعمى، وأمامه عصاه البيضاء، يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال. أحياناً اعتقد أنه نسي أنه يستطيع أن يرى، كما نسيت أنا عندما قمت أساعده على تبيّن الطريق، وأجلسته على المقعد أمامي، قلت:

ـ هات!

ـ هات أنت أولاً!

ـ تعرف القاعدة يا مولانا البصير. الدفع بعد التسليم.

ـ قنصل عربستان X.

ـ ماذا عنه؟

ـ كان في حفلة مدام نجمة.

ـ وماذا فعل؟

ـ الأشياء المعتادة.

ـ هل ضرب أحداً؟

ـ ضرب المطرب.

ـ ألم يفعل شيئاً غير ذلك؟

ـ ألا يكفي ضرب المطرب؟

ـ لا يكفي. هذا القنصل يضرب مطرباً كل يوم، ويضربه مطرب كل ليلة. لم يعد هذا خبراً يستحق النشر. أشرنا إلى معارك القنصل أكثر من ٥٠ مرّة. ألا يوجد في جعبتك خبر آخر؟

ـ سعادة السفير.

ـ أيّهم؟

ـ عربستان X.

ـ ماذا عنه؟

ـ كان في حفلة صاخبة دعت إليها مدام إيناس.

ـ وماذا فعل؟

ـ اختفى فجأة.

ـ وأين ذهب؟

ـ ولو يا أستاذ!!

ـ مع من؟

ـ مع أخت السفير الإنكشاري.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ كيف يمكن أن أتأكد وأنا أعمى يا أستاذ؟!

ـ صدقت! وهل طال الإختفاء؟

ـ أكثر من ساعة.

ـ ورجعا معاً؟

ـ رجعا معاً.

ـ وماذا عن أخيها؟

ـ كان مشغولاً بمغازلة مدام إيناس.

ـ شكراً.. مرّ على الصندوق.

ـ ١٠٠٠ جنيه؟

ـ ٢٠٠ جنيه!

ـ ٥٠٠ جنيه؟

ـ ٤٠٠ جنيه!

ـ حسناً! حسناً! لا توجد في قلبك رحمة على المعاقين.

قام الأعمى يتأرجح نحو الباب، ويضرب بعصاه كل قطعة أثاث في طريقه وكأنه يختبر جودتها، وبدأت أكتب فقرة في باب «حديث المجتمع». بدأت بالعنوان «الكاس والطاس، ودبلوماسية الإيناس» ومضيت: «نقل إلينا مراسلنا الاجتماعي (هاه! هاه! مراسلنا الاجتماعي!) أن العلاقات بين عربستان X وإنكشار تمرّ بحالة تحسّن ملموس بعد فترة التوتّر التي مُنيت بها في السنوات الأخيرة. ويضيف مراسلنا أنّ المراقبين يُرجعون الفضل في هذا الترطيب (حلوة الترطيب هذه!) المفاجىء إلى الدبلوماسية النشطة والمرنة التي تتبعها عربستان X. هذه الدبلوماسية أدركت أن من العبث إضاعة الوقت الثمين في مراسلات لا تجدي ومؤتمرات لا تغني ولا تسمن من جوع وقرّرت أن تتخذ زمام المبادرة باتّباع أسلوب جديد يمكن أن نسمّيه «دبلوماسية الأحضان». وهذه الدبلوماسية تقوم على مرتكز جديد وهو أن أفضل طريقة لتحويل العدو إلى صديق هي البدء بعناقه. وقد

وعد مراسلنا بالمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع».

بمُجرّد أن انتهيت من خبر سعادة السفير بدأت صياغة خبر العدو اللدود. «جثة تطفو على التيمز» «أفاد مراسلنا البوليسي (هاه! هاه! مراسلنا البوليسي!) أن جثة منتفخة طفت البارحة على نهر التيمز. وأضاف المراسل أن مركز البوليس في «وستمنستر» أعلن أن الرجل الغريق شرقي الملامح، في نهاية الأربعينات من العمر، وأن سبب الغرق جريمة لم تتضح تفاصيلها بعد». رنّ التيلفون وقالت كاثي:

ـ باربرا على الخط.

ـ حوّليها.

جاء صوت باربرا مخموراً بعض الشيء.

ـ صباح الخير يا حبيبي.

ـ ادخلي في الموضوع.

ـ حسناً! حسناً! لا تعضّني! لا أزال في شقّته. ولا يزال نائماً.

ـ متى أراك؟

ـ طلب مني أن أبقى معه بقيّة اليوم. سأحاول المجيء إليك غداً.

أنهيتُ المكالمة وسألت كاثي:

ـ مع من سأتغدى اليوم؟

ـ مع مايك بنشون. صحفي «المونتور».

ـ أعرف، تماماً، في أيّ صحيفة يعمل مايك.

ـ حسناً! حسناً! لا تعضّني.

ما هي حكاية العضّ هذا الصباح؟ سألتها:

ـ أين؟

ـ في «هاريز بار».

ـ متى؟

ـ الآن!

«هاريز بار»!. هذا الصحفي الأكول الشروب. كل أسبوع غداء وزجاجتا نبيذ. ولا يختار سوى أغلى المطاعم وأفخر أنواع النبيذ. في معظم الأحيان لا أحصل منه على خبر يستحق بنساً واحداً. في النادر، يأتي منه خبر يبرّر هذه الاستثمارات

الأسبوعية الضخمة. وجدته على الطاولة وقد بدأ في احتساء النبيذ الغالي الذي سأدفع ثمنه أنا.

ـ أهلاً مايك!

ـ أهلاً مسعود!

جاء الجرسون. وكنت أعرف ماذا سيطلب. كافيار! كل وجبة تبدأ بالكافيار وبعد ذلك اللازانيا! ابن الزانية! كافيار ولازانيا! وفاتورة بـ ٣٠٠ جنيه استرليني، على الأقل.

ـ ما هي الأخبار يا مايك؟

انطلق مايك يشرب ويأكل ويثرثر. الفضائح المعهودة. سوف تنشر جريدته يوم السبت القادم فضيحة عن عضو في مجلس العموم ينام مع السائق. وما الجديد في ذلك؟ كل الناس في هذه المدينة ينامون مع كل الناس. الرجال مع النساء. والرجال مع الرجال. والنساء مع النساء. لو كان أخونا ثريّاً عربستانياً لاختلف الأمر. وهناك همس عن فضيحة لم تثبت، بشكل نهائي بعد، عن وزير تبين أن له ابنتين غير شرعيتين. وما الجديد في ذلك؟ ثلث المواليد هنا أولاد حرام. ولا أحد يخجل من ذلك. لو كان أخونا ثريّاً عربستانياً لاختلف الأمر. جاء دوري. أعطيته قصصي المعهودة. قام نشوان ممتلئاً، وبقيت لأدفع الفاتورة المخيفة.

قرّرت أن أقضي بقيّة ساعات العمل في «غرفة العمليات». «غرفة العمليات» تحتل الدور الرابع بأكمله من منزلي الذي يختفي وراء أشجار كثيفة في «هامستيد». «غرفة العمليات» هي الإسم الحركي لغرفة التنصّت. في الغرفة أجهزة لمراقبة التيلفونات النقّالة. وقد اشتريتُ هذه الأجهزة، جهاراً نهاراً، من متجر في لندن. اشتريتها بشرط ألاّ أستعملها. ما أظرف البريطانيين! شراء أجهزة التنصّت قانوني واستعمالها ضد القانون. أصبحتُ بريطانياً بالتجنس ولا أزال عاجزاً عن فهم هؤلاء القوم. هل توجد دولة أخرى في العالم تبيح بيع جهاز وتحرّم إستخدامه؟ الأجهزة الأخرى المخصّصة لمراقبة التيلفونات الثابتة أمرها مختلف. اضطررت إلى تهريبها من اليابان وتايوان. استخدام هذه الأجهزة جريمة تؤدّي إلى السجن، إذا انكشف أمرها. والأجهزة لا تعمل إلاّ بالتعاون مع أجهزة إرسال صغيرة مزروعة قرب مفرزات التيلفون. وزرع تلك الأجهزة، بدوره، جريمة. والمبلغ الذي يتقاضاه زارع الأجهزة، موظّف شركة التيلفونات، مبلغ إجرامي.

ولكن النتائج تبرّر هذه المخاطر. وهذه المبالغ. ساعات طويلة من المتعة والتسلية. وأخبار تجيء بلا مقدّمات. خاصة في هذه الأيام، ولندن تغصّ بالزوّار العربستانيين.

بدأت أستمع إلى التيلفونات النقّالة. بعد دقيقة توقّفت عند حوار بين فتى عربستاني وفتاة عربستانية. الحرمان الذي يُختزن طيلة العام ينفجر في صيف لندن.

قال الفتى:

- متى نمتِ البارحة؟

وردت الفتاة:

- بعد الثالثة.

- هل كنت تفكرين فيّ؟

- بطبيعة الحال.

- إحلفي!

- وحياة رأسك!

- مع من كنت؟

- مع سناء ورشا.

- أين؟

- عند رجاء.

- رقصتم؟

- طبعاً.

- ماذا عن اليوم؟ أين أراك؟

- في المحل المعتاد. في «هايد بارك».

- لا! لا! لا أستطيع الذهاب إلى «هايد بارك» اليوم.

- لماذا؟

- الوالدة قالت إنها ستذهب لتتمشّى هناك.

- الوالدة؟! منذ متى تذهب الوالدة إلى «هايد بارك»؟

- نصحها الطبيب بالمشي هناك.

- إذن في «الكافيه روج»؟

- أوكي!

أهزّ رأسي أمام تناقضات الحياة. هذا الفتى في بلاده مثل للإستقامة المطلقة. وهذه الفتاة في عاصمتها نموذج للعفّة الكاملة. وفي لندن؟! خلّيها على الله! ألم تعلّمني الحياة بعد هذه السنين الطويلة أنها مُركّبة من تناقضات؟ هل يوجد إنسان غير متناقض مع نفسه؟ أنا لم أر إنساناً كهذا. هل يوجد شيء غير متناقض مع نفسه؟ أنا لم أر شيئاً كهذا. ما لنا وما للفلسفة الآن؟

أنتقل إلى جهاز التنصّت على التيلفونات الثابتة. أدير المؤشّر باتجاه تيلفون الثري العربستاني المعروف خير بركات. تقدّر الصحف البريطانية ثروته بمليار جنيه. وأعرف أنها فوق ذلك بكثير. والبركة في هذا الجهاز! جاء صوته المألوف. وجاء صوت عشيقته المألوف. الحديث المكرور. عجيب أمر الحب. عجيب أمر المحبّين. الفتى المراهق والملياردير الكهل أمام الحب سواء. العبارات نفسها. بالحرف الواحد تقريباً. متى نمت؟ متى صحوت؟ ماذا أكلت؟ هل فكرت فيّ؟ هل تتذكّر لقاءنا الأخير؟ أحبّك! أعشقك! أموت فيك! متى أراك؟ زوجتي بدأت تشكّ. شكّها دبّوس! زوجي بدأ يلاحظ. عمى عيونه! في المحل المعتاد؟ لا! لا! لا أستطيع اليوم. اللعنة الشهرية. الآلام الشديدة التي تعرفها. المهمّ أن أراك. دون أن نعمل شيئاً. ومن يستطيع السيطرة على نفسه؟ شكراً على الورود. تذكّرك بدم قلبي. أو باللعنة الشهرية! آسف! نكتة سخيفة جداً! وبعد الصيف؟ لا تذكر الفراق الآن. حياتي لا معنى لها بدونك. كيف أنساك؟ كل الناس ينسون. الكلام نفسه. الكبار والصغار. القاهرون والمقهورون. المالكون والمملوكون. صاحب السيّارة وسائق السيّارة. يحوّلهم الحب إلى نسخة واحدة. إستنساخ بدأ قبل النعجة الشهيرة. ويبقى بعدها. كنت أنت الوحيدة الجميلة. كل البنات كن يغازلنك. بدأت أغار. حاولت كتم مشاعري. اضطررت إلى مغادرة المكان. كان المطرب يبتسم لك. كان يبتسم للجميع. كان يبتسم لكِ وحدك. لم ألاحظ. وابتسمت أنت له. لا تكن سخيفاً! تغار من مطرب؟ أغار من كل الناس. «أغار من نسمة الجنوب». من هي نسمة الجنوب؟ شاعرة نبط شابة. تكتب بهذا الإسم. رئيس مجلس الإدارة سألني عنك. رأيت النهم في عينيه. لا أصدّق أنك لي وحدي. أحسد نفسي عليك فكيف لا يحسدني الآخرون؟ رجولتك تأسرني. النعومة متجسّدة فيك. أنتِ أنعم من ريش النعام. أعني من مخدّة مصنوعة من

ريش النعام. هل رأيت نعامة في حياتك؟ بطبيعة الحال. كنت أرعى النعام في صغري. وأنا كنت أرعى الأسود. المال؟ من يهمّه المال؟ ذات يوم سأتفرّغ لك وحدك. عندما تطلّق زوجتك؟ لا تذكري زوجتي. ضميرك يؤنّبك؟ لا تذكريها والسلام! والليلة؟ «البيتزا هت». لا! لا! فيلم سخيف. ألا تملّين من البيتزا؟ وبعد ذلك؟ بعد ذلك نرى ما سوف يكون. ماذا عن «الجافروش». وبعد ذلك «انابيلز». رأيت الأميرة ديانا هناك. في «انابيلز»؟ عدّة مرات. إحلف! وحياة رأسك! مع من؟ معي. هاه! هاه! هاه! كانت ترقص. مع من؟ مع رجل، بطبيعة الحال. من هو؟ لا أعرفه. نفس الرجل في كل مرة؟ لا! كل مرة رجل مختلف. دعينا من ديانا الآن. نتعشّى على الروف. تفضلين «الريتز»؟. أوكي! أفكر فيك في كل لحظة. كان الفستان أروع من رائع. إلا أنه مفتوح أكثر من اللازم. أنت تعرفين كم أغار. سمعت شريط عمرو دياب الجديد؟ يهبّل! هل ستحضرين الحفلة؟...

الكلام المكرور المعتاد. ذهبت إلى غرفة النوم وأنا متعب بحمل كل هذه المشاعر الملتهبة. تمدّدت على السرير الكبير، ورفعت السماعة، وأدرت الرقم. جاء الصوت الذي يملكني:

ـ هللو!

ـ متى نمت البارحة؟

ـ بعد الثالثة.

ـ هل فكرتِ فيّ؟

الأربعاء

دخلت مكتبي في الموعد، كالعادة، وفتحت الشباك، كالعادة، وجاءت كاثي، كالعادة، بالجرائد. بدأت أقرأ «صوت الحقيقة». ابتسمت وأنا أقرأ العنوان: «دبيب الصادرات الأفغانية». وتحوّلت البسمة إلى ضحكة وأنا أقرأ: «ما أن نشرنا ما نشرناه في عدد أمس عن دخول أفغانستان نادي المصدّرين حتّى دبّت الحركة في كل مكان. دبّ النشاط في الأوساط السياسية. ودبّ النشاط في الأوساط الإعلامية. ودبّ النشاط في الأوساط التجارية. دبيب في كل مكان! دبيب يصمّ الآذان! الدبيب الأفغاني العجيب الذي يُسمَع صداه في كل مكان. وصداه يدبّ فهو دبّاب. والإشاعات تدبّ فهي دبّابة. وماذا عن السّر؟ عليك، عزيزي القارىء، أن تنتظر حلقة الغد لتعرف من يدبّ وما يدبّ في أفغانستان». رفعت

السمّاعة، وقلت لمدير التحرير:

ـ أحسنت! أحسنت!

ـ تحت أمرك يا معلم! تلميذك! وماذا عن حلقة الغد؟

ـ لن تكون هناك حلقة في الغد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ تكفي الحلقتان. حققنا الغرض المنشود.

ـ وما هو الغرض المنشود؟

ـ الدبيب في كل مكان.

ـ عفواً! لم أفهم!

وضعت السماعة وأنا أضحك. تناولت «الحرّية» وبدأت أنقّب عن الخبر المعتاد. وجدته في الصفحة الاقتصادية بعنوان «مؤسسة إعلامية عربستانية في لندن على حافة الإفلاس». ابتسمت وأنا أطالع: «كتب محرّرنا الاقتصادي (هاه! هاه! محرّرهم الاقتصادي!) أن مؤسسة إعلامية عربستانية مركزها لندن توشك أن تشهر إفلاسها لدى الجهات القضائية. ويعود السبب في نظر المحلّلين الاقتصاديين إلى الفوضى والتسيب...» قبّحه الله! فوضى وتسيّب؟! رنّ التيلفون وجاء صوت كاثي:

ـ هناك من يريد التحدّث إليك.

ـ من هو؟

ـ يرفض ذكر اسمه.

آه! جاء رد الفعل بأسرع مما توقعت. قلت لكاثي:

ـ حسناً! ضعيه على الخط.

جاء صوت عربستاني غليظ:

ـ أستاذ مسعود؟

ـ في خدمتك. من معي؟

ـ أودّ أن أراك على انفراد.

ـ الاسم الكريم؟

ـ سأخبرك عندما نتقابل.

ـ ولماذا تريد أن نتقابل؟

ـ عندي رسالة هامة.

ـ مِن مَنْ؟

ـ سوف أخبرك عندما أراك.

ـ وموضوعها؟

ـ حياة أو موت.

ـ يا ساتر! لماذا لا تشرّفني في المكتب؟

ـ لا! أودّ أن نلتقي خارج المكتب.

آه! هذا، بكل تأكيد، رجل مخابرات. يعرف عن كل شيء في المكتب. سوف يختار، الآن، باراً بعيداً لا يرتاده إلاّ عجائز البريطانيين.

ـ وأين تريد أن نلتقي؟

لم يخب ظني: قال الصوت الغليظ:

ـ هناك بار صغير. في «ويمبلدون» إسمه «رد لايون» يقع في...

قاطعته:

ـ أعرف المكان.

بعدها، بساعة، كنت في بار «رِد لايون» الذي كان مليئاً بعجائز البريطانيين. لم أكن في حاجة إلى بحث طويل في الوجوه قبل أن أتعرّف على المتكلم المجهول. رجال المخابرات العربستانيون يحملون على جبهاتهم لوحات تنمّ عن طبيعة عملهم. ذهبت إليه مباشرة، وجلست على المقعد بقربه. كان يشرب البيرة السوداء. قال بلا مقدمات:

ـ ماذا تشرب؟

ـ نفس شرابك.

ذهب إلى حيث تقف امرأة مكتنزة، كانت ذات يوم جميلة، وراء الطاولة الكبيرة المزدحمة وعاد بكأسين. وضع كأساً أمامي، والأخرى أمام كأسه التي لم تفرغ بعد ثم قال:

ـ محسوبك رمزي محسن.

ـ محسوبك رمسيس الثاني! تشرّفنا!

ـ عندي رسالة مختصرة لك.

ـ خير الكلام ما قلّ ودلّ.

ـ بخصوص الصادرات الأفغانية.

ـ هل تودّ أن تشتري أو تبيع؟

ـ لا أريد أن أشتري أو أبيع. أودّ إبلاغك رسالة.

ـ هات!

ـ اشرب، أولاً!

ـ ها أنذا أشرب. من أين الرسالة؟

ـ لا يهمّ مصدرها.

ـ لا يهمّ. ماذا تقول الرسالة؟

ـ لا تنشر حرفاً واحداً عن الموضوع بعد اليوم.

ـ أيّ موضوع؟

ـ الصادرات الأفغانية.

ـ لماذا؟

ـ الرسالة لا تحتوي على أسباب.

ـ وإذا رفضت؟

ـ الشخص الذي أرسلني لا يتوقع أن ترفض طلبه.

ـ وعلى أيّ أساس بنى توقّعه؟

ـ لا أدري. رُبّما كان يعرفك.

ـ لم تقل لي، بعد، من هو.

ـ ولا أنوي أن أقول.

ـ هل انتهت الرسالة؟

ـ انتهت.

ـ هل بإمكاني أن أذهب الآن؟

ـ إذا شربت كأسك.

ـ شربت ما فيه الكفاية.

ـ خذ هذا معك قبل أن تذهب.

لم أكن بحاجة إلى فتح الظّرف الصغير. الرصاصة المعهودة! الشفرة/الأزلية/الأبدية! إذا عدت إلى هذا الموضوع فسوف نقتلك. تحسّست جرحي القديم. لا

يتغير شيء في هذا العالم. الرسائل القديمة نفسها. التهديدات نفسها. لا يتغيّر شيء سوى حجم الرصاصة. عدت إلى مكتبي. وضعت الرصاصة في صندوق صغير في الدرج مع الرصاصات الأخرى.

وجدت على الطاولة طرداً ملفوفاً بورق هدايا مُلوّن. فتحته فوجدت في داخله علبتين، في واحدة منهما ساعة رجالية، وفي الأخرى ساعة نسائية. كل ساعة مُطعّمة بالماس. متى يتعلّم هؤلاء السادة أن إرسال النقد يوفّر عليّ وعليهم الكثير من الجهد ومن المال؟ سوف أضطر الآن، إلى بيع الساعتين، بنصف القيمة، إلى ذلك اليهودي اللئيم.

رفعت سماعة الهاتف وأدرت رقماً، وقلت:

ـ سعادة السفير؟! أنا عاجز عن الشكر.

ورد سعادته:

ـ العفو، يا أستاذ مسعود، العفو.

ـ ما هذه المفاجأة الجميلة؟ زوجتي وأنا في حالة ذهول. لا ندري كيف نعبّر لك عن تقديرنا.

ـ العفو! العفو! أنت تعرف أننا جميعاً، نحن العرب، نعتز بك وبجهودك وبجهادك.

ـ العروبة لساننا، والعروبة طريقنا، والعروبة مصيرنا.

ـ بارك الله فيك!

ـ شكراً سعادة السفير، مرة أخرى.

نظرت إلى الساعتين. . حوالى ٥٠,٠٠٠ جنيه مقابل ٤٠٠ جنيه للأعمى. صفقة لا بأس بها.

جاء صوت كاثي:

ـ باربرا هنا.

ـ أدخليها فوراً.

دخلت باربرا. القبلة المعتادة. وقلتُ:

ـ ماذا لديك يا باربي؟

ـ الكثير! الكثير!

ـ كلّي آذان.

ـ ماذا عن «البونس» الإضافي؟

ـ لا تخافي. لن يضيع حقّك. ماذا لديك؟

ـ قال الرجل أشياء كثيرة. بعد أن سكر تماماً.

ـ لا يهمني سكره أو هذيانه. الإتصالات؟

ـ و«البونس»؟

ـ قلت لك لا تخافي.

ـ حدث اتصال هام جداً البارحة. وكنت أنا موجودة.

ـ أنت؟!

ـ أنا.

ـ كيف؟

ـ يبدو أنه نسي أني كنت في غرفة النوم.

ـ تكلّمي!

ـ جاء مندوب خاص من عربستان X وقضى وقتاً طويلاً في الحديث مع جاكوبي.

ـ كيف عرفت من أين جاء؟

ـ كانا يتحدثان بصوت عال.

ـ ما اسم المندوب؟

ـ نجيب. أو مجيب.

ـ عجيب؟

ـ نعم! نعم! هذا اسمه! عجيب!

ـ عجيب بركاس؟

ـ لم أسمع اسمه الأخير.

ـ باربي! لا أعرف كيف أشكرك.

ـ أعتقد أنك تعرف تماماً.

بدون تفكير أخذت الساعة الماسية النسائية وقدّمتها لباربرا التي شهقت:

ـ لي أنا؟

ـ لك أنت.

ـ ولكن. . .

ـ أشعر بنوبة سخاء. خذي الساعة قبل أن تذهب النوبة.

ـ ولكن هذه ساعة ثمينة لا يقل سعرها. . .

ـ عن ٣٠,٠٠٠ جنيه. خذيها قبل أن أغيّر رأيي.

طبعتْ باربرا على شفتي قبلة أكثر حرارة من القبل المعتادة. وضعتْ الساعة في حقيبة يدها وهي تتراجع إلى الوراء، في حذر، كأنها تخشى أن أقوم، فجأة، لإنتزاع الساعة.

رنّ التيلفون، وقالت كاثي:

ـ سامي هنا.

ـ أدخليه.

دخل سامي نصري صاحب مطعم «الإنشراح». أو بالأصحّ، شريكي في مطعم «الإنشراح». أو بالأصحّ، مدير مطعم «الإنشراح» نيابة عني. أنا الذي دفعت لسامي المبلغ الذي احتاج إليه لفتح المطعم. وأنا الذي جعلت سامي شريكاً كاملاً في ملكيته دون أن يدفع شيئاً. بمرور الأيام تحوّل مطعم «الإنشراح» إلى أشهر مطعم عربستاني في لندن. وتحوّل القبو إلى ملهى يفتح أبوابه مع منتصف الليل. وتدفّقت الأرباح. سامي يأخذ كل شيء، ولا يعطيني سوى الأخبار. إستثمار مربح يفيد الطرفين. إلاّ أن سامي لا يدرك القيمة الحقيقية للأخبار التي يحضرها لأنه لا يراها منشورة في «صوت الحقيقة». سامي، مثل كل الناس، يجهل أن أهم الأخبار هي تلك التي لا تُنشر. قلت:

ـ هات يا سامي!

ـ رئيس تحرير «العروبة».

ـ ماذا عنه؟

ـ جاء قبل ليلتين ومعه الملحق الصحافي في سفارة عربستان X.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ ولو!

ـ ولكنه يهاجم عربستان X كل يوم.

ـ لن يهاجمها إبتداءً من الأسبوع القادم.

ـ والصفقة؟

ـ أستاذ مسعود! كيف لي أن أعرف الصفقة؟ لم أسمع إلا كلمة من هنا وكلمة من هناك.

ـ ومن هاتين الكلمتين أدركت أن «العروبة» لن تهاجم عربستان X بعد اليوم؟

ـ بعد الأسبوع القادم.

ـ برافو! هل هناك أخبار أخرى؟

ـ الملحق العسكري.

ـ صاحبنا؟

ـ صاحبنا!

ـ ماذا فعل؟

ـ ضرب صديقته. المطربة الشهيرة.

ـ نهاوند؟

ـ بشحمها ولحمها؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها سكرت وقامت ترقص على الطاولة.

ـ في الملهى؟

ـ في المطعم.

ـ هل هناك أخبار أخرى؟

ـ شكري ياسر. البيليونير.

ـ ماذا عنه؟

ـ جاء ومعه امرأة جديدة.

ـ هل تعرفها؟

ـ بالتأكيد.

ـ من هي؟

ـ لولا. زوجة رافع رفعت.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ ولو! كان يقبّلها.

ـ أمام الناس؟

ـ أمامي. كان المطعم شبه فارغ.

ـ هل هناك المزيد؟

ـ ألا تكفي كل هذه الأخبار؟

ـ تكفي مؤقّتاً. أراك في الأسبوع القادم.

رفعتُ السمّاعة، وطلبت من سكرتير التحرير، يونس أبو شختورة، الحضور إلى مكتبي. جاء بعد لحظات تسبقه سحائب الدخان المنطلقة من السيجار الكوبي الفاخر. كل ملحق صحافي عربستاني في لندن يمطر يونس بصناديق من سيجار هافانا. قلت:

ـ اجلس يا يونس. أمامك ٣ مهمات. مهمّات حسّاسة بعض الشيء.

ـ تلميذك يا مُعلّم!

ـ أريد أن تقابل الملحق الصحافي في سفارة عربستان X. تقابله خارج السفارة.

ـ مفهوم.

ـ خارج السفارة.

ـ مفهوم.

ـ قل له إن رئيس تحرير «العروبة» اتصل بي، وعرض عليّ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه مقابل الهجوم على عربستان X. وإنني رفضت العرض. لا تضفْ شيئاً إلى ذلك.

ـ والمهمّة الثانية؟

ـ نهاوند.

ـ المطربة؟

ـ نعم. كلّمها، وادعها إلى حفل عشاء في منزلك في الأسبوع القادم. قل لها إني سوف أكون هناك.

ـ وإذا رفضت؟

ـ إذا رفضت اسألها هل تفضّل أن تراني في مطعم «الإنشراح».

ـ مفهوم. والثالثة؟

ـ هذه أصعب المهمات.

ـ أنا رجل المهمات الصعبة.

ـ أنت رجل كل المواسم. تعرف رافع رفعت؟
ـ البيليونير؟ طبعاً! من الذي لا يعرفه؟
ـ أودّ أن ترتب لي موعداً للاجتماع به.
ـ خارج منزله؟
ـ بطبيعة الحال.
ـ أين؟
ـ في «رِد لايون».
ـ عفواً؟
ـ بار صغير في أطراف «ويمبلدن».
ـ متى؟
ـ دعه يختار الوقت.
ذهب يونس إلى مهامه الصعبة، ودخلت كاثي منزعجة تصيح:
ـ مستر أسعد! مستر أسعد!
ـ اهدأي! ماذا حدث؟
ـ أزعجني هذا المخلوق.
ـ أيّ مخلوق؟
ـ الضابط الذي قابلته يوم الإثنين.
ـ كيف أزعجك؟
ـ اتصل عشرات المرات.
ـ ماذا يريد؟
ـ يريد أن يقابلك.
ـ أخبريه أني مشغول جداً.
ـ أخبرته ولم يقتنع. قال إنه سيضطر إلى اقتحام المكتب إذا...
ـ لا داعي للإقتحام. إذا اتصل مرة أخرى...
ـ أنا واثقة أنه سيتصل.
ـ حسناً! إذا اتصل اطلبي منه أن يجيء غداً.
ـ متى؟

ـ الحادية عشرة صباحاً. سوف أذهب الآن. كان اليوم مرهقاً بعض الشيء. أراكِ غداً!

الخميس

دخلت المكتب، كعادتي، في الموعد المعتاد. وكعادتي، فتحت الشبّاك. وبدأت اليوم، كالعادة، بالجرائد. «الحرّية»! أين الخبر؟ ها هوذا على صفحة الأخبار الدولية. «الأنتربول يبحث عن نصّاب عالمي». أخذت أقرأ: «أبلغنا مراسلنا البوليسي (هاه! هاه!) أن «الأنتربول» في حالة استنفار كامل بعد أن نجح نصّاب عالمي في إختلاس ما يزيد على ٢٠٠ مليون جنيه استرليني من ضحايا سذّج. وقال مراسلنا إن النصّاب يستعمل عدة أسماء، وعدة جوازات سفر، ويحمل على جبهته آثار جرح...». ٢٠٠ مليون جنيه؟! الله يسمع منك! سوف أكتب الخبر المضادّ فيما بعد. لديّ، الآن، ما هو أهم.

بدأت الكتابة وابتسامتي تتسع مع كل سطر أكتبه «الدبلوماسية العجائبية». «غريب أمر الدبلوماسية وعجيب. أكرّر عجيب أمرها وغريب. خاصة دبلوماسية تلك الدولة المنافقة التي تسب الدولة العبرانية في النهار وتنام معها في الليل. أكرّر تنام معها في الليل. تشتمها في العلن وتضاجعها في السرّ. تقاطعها على رؤوس الملأ وتحتضنها في الخفاء. ألا يحق لنا أن نسمّي هذه الدبلوماسية دبلوماسية العجائب؟ ألا يجوز لنا...». كتبت صفحة كاملة مليئة بعجب وتعجّب وعجائب وأعاجيب. ثم بدأتَ صياغة الخبر عن صديقي اللدود. جعلته يُضبط متلبّساً بسرقة أحذية من جامع لندن المركزي. القذر! سارق الأحذية من المساجد!

جاءني صوت كاثي:

ـ يونس هنا. يريد أن يراك فوراً.

ـ أدخليه.

دخل يونس تسبقه السحائب الكوبية المعتادة. قلت:

ـ بشّرْ يا يونس!

ـ من أين أبدأ؟

ـ بالملحق الصحافي.

ـ قال إنه يريد أن يراك في أسرع فرصة.

- وماذا كان ردّك؟
- قلت له إني سوف أخبرك وأتّصل به.
- حسنا! اتصل به وقل له إني أود مقابلته على الغداء.
- متى؟
- اليوم.
- أين؟
- هناك مطعم على النهر يبعد عن لندن بضعة أميال اسمه «نِت آند فيش». الواحدة ظهراً.
- أمرك.
- ماذا عن نهاوند؟
- قبلت الدعوة بسرور. مساء الثلاثاء في منزلي. هل أدعو أحداً معها؟
- لا! أنا وهي فقط. وأنت تعرف متى تختفي.
- معلوم!
- والمهمّة الثالثة؟
- أصعب المهمات فعلاً.
- ماذا حدث؟
- استمع رافع إليّ بعناية، وطلب منّي أن أبلغك أن تذهب إلى الجحيم.
- هذا كل ما قاله؟
- هذا كل ما قاله.
- الكلب ابن الكلب! لا يهمّ. قُمتَ بالمهام على خير وجه.
- تلميذك يا معلّم.

دخل الضابط وقمت أحيّيه بحرارة. إلاّ أنه تجاهل عبارات الترحيب، وقال على الفور:

- لماذا لم تنشر الخبر؟ أريد أن أعرف.

قلتُ بهدوء:

- لعلّك لاحظت أنني أعددّت مُقدّمة للنشر.
- لاحظت. واستبشرت خيراً. ولكن الخبر لم يُنشر.

ـ كان الخبر جاهزاً. إلا أن صعوبات قانونية حالت دون النشر.

ـ صعوبات قانونية؟!

ـ أنت تعرف، يا أخي الكريم، إننا نعيش في بريطانيا والقانون، هنا، يحمي الناس من التشهير. لو نشرنا خبراً عن أحد وأقام دعوى كان علينا أن نثبت صحّة الخبر، نثبت نحن صحّته على نحو قاطع. إذا فشلنا يُحكم علينا بتعويض باهظ، يؤدّي إلى خراب بيوتنا، والأهم من خراب بيوتنا إغلاق الجريدة.

ـ ولكنك تستطيع أن تثبت كل شيء. أعطيتك الوثائق.

ـ لم يكن هذا رأي محامي الجريدة.

ـ ماذا كان رأيه؟

ـ كان رأيه أن رئيس الأركان سوف يكسب أي دعوى يقيمها علينا دون عناء. لا أعتقد أنك ترضى أن تُقفل الجريدة.

ـ ولكن الوثائق دامغة.

ـ لم يكن هذا رأي المحامي.

ـ ماذا قال المحامي؟

ـ فلنأخذ الوثائق، واحدة واحدة. أولاً، الصور. لا شكّ أن الصور هي صور دبابات معطوبة لا تصلح لشيء. إلا أنه لا يوجد ما يثبت أن هذه هي الدبّابات التي تمّ التعاقد عليها فعلاً. بإمكان أيّ إنسان أن يصوّر دبابات معطوبة.

ـ ولكن الإخوان رأوا الدبّابات بأنفسهم.

ـ لا أشك في ذلك. هل الإخوان على استعداد للشهادة أمام المحكمة؟

ـ الشهادة أمام المحكمة؟ هذا يعني أن هويّاتهم...

ـ حسناً! لنأخذ الوثيقة الثانية المتعلّقة بشركة «فايت». لم نعثر على دليل يؤكد أن الشركة تملكها مدام مفاتن.

ـ ولكن هذه حقيقة يعرفها الجميع.

ـ إلاّ المحكمة. كيف يمكن أن نقنع المحكمة؟

ـ بالرجوع إلى عقد إنشاء الشركة.

ـ فعلنا ذلك. وتبيّن أن شركة «فايت» تملكها شركة أخرى مُسجّلة في ليشنشتاين.

ـ ومن يملك الشركة الأم؟

ـ مجموعة من المحامين السويسريين.

ـ ولكن هذا غطاء. مجرد حيلة قانونية تقليدية.

ـ أنا أعرف ذلك. وأنت تعرف ذلك. ولكن كيف نقنع المحلّفين؟

ـ وماذا عن العقد؟

ـ يقول المحامي إن العقد هو مشكلتنا الرئيسية.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ينص العقد على شراء «معدّات». لا أكثر ولا أقل.

ـ ولكن المقصود الدبابات المعطوبة.

ـ لا يذكر العقد شيئاً عن دبّابات، صالحة أو معطوبة. حتّى الحرّاثات بالإمكان أن تعتبر معدّات.

ـ حرّاثات؟! قلت لك إن المقصود الدبّابات المعطوبة.

ـ أعرف ذلك. ولكن كيف نستطيع إثباته؟

ـ أفهم من ذلك أنك لا تريد نشر الوثائق؟

ـ على العكس! على العكس! أنا أتحرّق شوقاً إلى نشرها. ولكن نشرها لن يؤدّي إلى إلغاء الصفقة أو نهاية رئيس الأركان. كل ما سيحققه النشر هو إفلاس «صوت الحقيقة»، ونهايتي.

ـ هل من الممكن أن تعيد إليّ الوثائق؟

سلّمته الأوراق، وقلت:

ـ تفضّل. ماذا تنوي أن تفعل بها؟

ـ سوف أنشرها في جريدة أخرى.

ـ هل تسمح لي بتقديم نصيحة مجانية توفّر عليك الكثير من العناء؟ لا تحاول نشرها.

ـ لماذا؟

ـ لأنك لن تجد جريدة تنشرها.

ـ وما السبب؟

ـ السبب الإعتبارات القانونية التي شرحتها لك. كل جريدة هنا لديها محامون.

ـ وماذا عن «الحرّية»؟

ـ احذر من الذهاب إلى «الحرّية».

ـ لماذا؟

ـ حرصاً على حياتك.

ـ على حياتي؟!

ـ نعم. العلاقة بين رئيس الأركان و «الحرّية» وطيدة جداً. تستطيع أن تعتبره المموّل الرئيسي للجريدة.

ـ رئيس الأركان؟

ـ نعم. بعد دقائق من اجتماعك مع رئيس التحرير سوف يكون رئيس الأركان على علم بكل شيء. إسمك. رتبتك. كل شيء. لن يكون هذا في صالح القضية.

ـ إذن، ماذا أفعل؟

ـ ابحث عن مزيد من الوثائق. عندما تعثر على أدلّة دامغة تعال لمقابلتي.

ذهب الضابط، غاضباً متجهّماً، دون أن يكلّف نفسه عناء المصافحة. مغفل متحمّس آخر! محصول العالم من هؤلاء لا ينتهي. من حسن حظي! جاء صوت كاثي:

ـ مكالمة من سيّدة.

ـ من هي؟

ـ لا أعرفها.

ـ ما اسمها؟

ـ لم تذكر اسمها. تصرّ على الحديث معك.

ـ أخبريها أني مشغول الآن.

ـ قلت لها ذلك وقالت إنك سوف تتحدث معها بمجرّد أن تعرف أنها تحمل رسالة من صديق أفغاني مشترك. لا أعرف ماذا تقصد بذلك.

ـ ولا أنا.

ـ ماذا أقول لها إذا اتّصلت مرة أخرى؟

ـ دعيني أتحدث معها.

لم أكد أضع السمّاعة حتى عادت كاثي تكلّمني:

ـ السيّدة على الخط..

ـ حسناً!

جاء صوت أنثوي عربستاني أشد نعومة من الحرير:
ـ أستاذ مسعود؟ أنا لانا!
ـ أهلاً وسهلاً! لانا الشرف!
ـ هاه! هاه! كنت أسمع أنك خفيف الدم، والآن تأكّدت من ذلك.
ـ شكراً يا مدام. . .
ـ مدموزيل!
ـ شكراً يا مدموزيل لانا.
ـ أودّ أن أراك. لديّ رسالة هامة.
ـ أهلاً وسهلاً. شرّفيني بالزيارة في أيّ وقت.
ـ لا! لا! أريد أن تشرّفني أنت بزيارة منزلي.

امرأة مخابرات؟! أشكّ في ذلك. لم أستمع في حياتي إلى امرأة مخابرات لها صوت جميل، وقد استمعت إلى العشرات منهن. قلت:

ـ أنا الذي أتشرّف!
ـ حسناً! سوف أكون في انتظارك، غداً مساء. الساعة الثامنة. الثامنة تماماً. منزلي في «فارم ستريت» قرب «الدورشستر».
ـ أعرف الشارع.
ـ اسم البناية «ولينجتون هاوس». الدور الأخير.
ـ إلى اللقاء!

صديق أفغاني مشترك؟! لانا؟! «بنت هاوس» في ماي فير؟! يبدو أن رسالة البار كانت العصا. وجاء الآن دور الجزرة. هل ستكون لانا هي الجزرة؟ قطع عليّ تأمّلاتي صوت كاثي:

ـ يونس يذكّرك بموعد الغداء. يجب أن تذهب الآن إذا أردت الوصول في الساعة المحدّدة.

على طاولة بقرب النهر وجدت الملحق الصحافي في انتظاري. عانقني بحرارة، وعانقته بحرارة أشدّ. استدعيت الجرسون وقال الملحق على الفور:

ـ أنت ضيفي اليوم.

ابتسمت وقلت:

ـ لا يردّ الكريم إلا اللئيم.

جاء الطعام وجاء الشراب وبدأ الملحق يتحدث:

ـ استلمت رسالتك. وأشكر لك غيرتك على عربستان X. كل القادة هناك يقدّرون موقفك.

ـ لا شكر على واجب، يا سيدي. العروبة لساننا، والعروبة طريقنا، والعروبة مصيرنا. هذا شعارنا الدائم.

ـ وهذا ما يجعلنا نفخر بك. أنت الصحفي الوحيد الذي نثق فيه في لندن.

ـ هذا من لطفك. ما أنا سوى جندي بسيط من جنود القضية.

طال الحديث وتشعّب. وانتقلنا من موضوع إلى موضوع. ومن إشاعة إلى إشاعة. انتهت الوجبة واستأذنت في الانصراف. قبل أن أقوم قدّم لي الملحق ظرفاً كبيراً وهو يبتسم:

ـ هدية رمزية للأولاد. العيد على الأبواب.

أخذته، بإستحياء، وأنا أردّد:

ـ شكراً! شكراً! سوف يسرّ الأولاد كثيراً. هذه الأمور المعنوية أغلى من كل كنوز الدنيا.

ما قصة العيد؟ بقي على العيد أكثر من ٣ شهور؟ وأيّ أولاد؟ لم ينتج زواجي، الذي استمر ٩ شهور، سوى الطلاق.

عندما عدت إلى المكتب اتضح أن «الهدية الرمزية» هي ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني. لا توجد ساعات هذه المرة. لك الحمد يا رب! يوم مثمر جداً. عدت إلى تصفّح الجرائد عندما رنّ التيلفون وقالت كاثي:

ـ على الخط رجل يصرّ على محادثتك.

ـ من هو؟

ـ لم يقل من هو.

ـ هل قال إنه يحمل رسالة هامة؟

ـ هل أصبحت تقرأ الأفكار؟

ـ أنت تعرفين، تماماً، قوة حاستي السادسة. ضعيه على الخط.

جاء صوت عربستاني مغلّف باللزوجة:

ـ أستاذ مسعود؟

ـ نعم.

ـ أنا ممدوح بارود.
ـ بارود؟ يا ساتر!
جاءت ضحكات لزجة، وقال المتحدّث:
ـ اسم العائلة. اسم قديم. يعود إلى جدّنا الذي كان مسئولاً عن مخازن البارود أيام السلطان عبد الحميد.
ـ أنعم وأكرم!
ـ أنا مواطن من عربستان X. من أكبر المعجبين بك.
ـ أنت تعرف مدى تقديري لعربستان X.
ـ أنت موضع فخرنا واعتزازنا.
ـ هذا من فضلك.
ـ أودّ رؤيتك لنتباحث في قضايا هذه الأمّة التي تجتاز منعطفاً خطيراً هذه الأيام. كما يعرف سيادتك.
ـ منعطفاً خطيراً جداً.
ـ بالفعل. ولهذا فأنا أودّ الإستعانة بخبرتك.
ـ ما لديّ من تجربة متواضعة في خدمة القضية.
ـ متى يمكن أن نلتقي؟
ـ شرّفنا هنا! أي وقت!
ـ لا لا! أودّ دعوتك على الغداء في منزلي.
هذا رجل مخابرات غير تقليدي! غداء في منزله! قلت:
ـ أتشرّف.
ـ أنا أسكن في الريف. رجل ريفي! هاه! هاه!
ـ «ما أحلاها عيشة الفلاّح».
ـ هاه! هاه! نتغدّى يوم السبت، إذن؟
ـ أتشرف.
ـ خذ العنوان.
قبل أن أنام أدرت قرص التيلفون وجاء الصوت الذي يملكني:
ـ هللو!
ـ حبيبتي!

ردّت بدلال:

- روحي!

- هل تذكرين تلك السيّارة التي أعجبتك؟

- «البورش»؟

- «البورش».

- طبعاً أذكرها. ماذا عنها؟

- سوف أشتريها لك.

على الجانب الآخر كانت هناك شهقات لم تستطع حبيبتي كتمانها. هذه الشهقات، هذه الأمور المعنوية، أهم في نظري من الدنيا، ومن كنوز الدنيا كلّها. حلمت، تلك الليلة، أني آكل أطباقاً لا تنتهي من المهلّبية. أنا أكره المهلّبية. إلاّ أنها كانت في الحلم شهيّة المذاق. لا بُدّ أن أسأل صديقي الدكتور بصير العارف عن معنى الحلم.

الجمعة

كالعادة، دخلت المكتب في العاشرة. وكالعادة، فتحت الشبّاك. وكالعادة، بدأت أقرأ الجرائد. وكعادتها كل جمعة، بدأت كاثي حوارها التيلفوني بقولها:

- أحمد الله أنه يوم الجمعة.

- نحمد الله.

- لا تكاد توجد مواعيد اليوم. باستثناء وجد.

- ومتى ستجيء وجد؟

- طلبتْ مني أن أكلّمها عندما تكون مستعدّاً لرؤيتها.

- اطلبي منها أن تجيء بعد ساعة.

خبر اليوم المدسوس عن اعتقال مدير عصابة للبغاء. قبّح الله عدنان شهوان! مستواه ينحدر يوماً بعد يوم. عصابة للبغاء! العاهر ابن العاهرة! غداً سوف أجعله ينتحر. سوف أجعله جزّاراً ينتحر بساطوره. أغرب انتحار في التاريخ. ولكن ما لي وما للغد؟ «غداً بظهر الغيب... واليوم لي». اليوم - هذا المساء - موعدي مع المدموزيل لانا. يرسم لي الخيال الجامح صوراً يسيل لها اللعاب. منذ أيام المراهقة لم أتطلّع إلى موعد تطلّعي إلى موعد هذا المساء. لان الحديد! لان

الصخر! والذي أهواه ما لانا! لانا! هل هذا اسمها الحقيقي؟ علّمتني الحياة أنه لا توجد أسماء حقيقية. يوجد إسم وراء إسم وراء إسم. وَجْد! وجد التي ستجيء بعد قليل لديها ٥ بطاقات شخصية حقيقية تحتوي على ٥ أسماء حقيقية. كيف؟ علم هذا عند الموظفين الذين يستهويهم جسد وجد. حتّى أنا نسيت إسمها الحقيقي الأول. ولعلّها نسيته بدورها. ماذا يهمّ؟ الأسماء رموز تدل على شيء. والشيء لا يتغير. لا يوجد أسخف من الصراع على الأسماء، هواية العربستانيين المفضّلة.

أيقظتني زوبعة العطور من تأمّلاتي اللغوية. رفعت رأسي أنظر إلى الفتاة الضئيلة الجميلة السمراء التي يتفجّر جسدها حيث يجب أن يتفجّر وينكمش حين يحسن أن ينكمش. دمية صغيرة من الجنس المُركّز! قلت:

ـ أهلاً بالغالية!

ـ أهلاً بفتى أحلامي!

كان هذا صحيحاً ذات يوم. كانت غالية. وكنت فتى أحلامها. إلا أنه لا يدوم شيء. خصوصاً الحب. من كل العواطف البشرية لا توجد عاطفة أقصر صلاحية للإستعمال من الحب. حسناً! جئت لأعيش هذه الحياة لا لأغيّرها.

ـ تفضلي! تفضلي! لم أرك منذ مدة.

ـ العمل!

ـ العمل! قدرنا التعيس. هل من جديد؟

ـ خبر سيضحكك.

ـ يعلم الله كم أنا في حاجة إلى الضحك.

ـ قضيت ليلة بأكملها أضرب الأمبراطورية البريطانية.

ـ حسناً فعلت! حسناً فعلت! هاتي التفاصيل.

ـ صديقنا العزيز المشترك شاهر نتاش.

ـ ماذا عنه؟

ـ دعاني إلى حفلة من حفلاته الليلية. كان هناك. . .

ـ وجد! أنت تعرفين أني لا أحب أخبار الحفلات. هاتي أخبار الضرب.

ـ بعد منتصف الليل وجدت نفسي مع ضابط إنجليزي كبير.

ـ وكيف عرفت أنه ضابط إنجليزي كبير؟

ـ عرفت أنه إنجليزي لأن شكله إنجليزي وعرفت أنه ضابط لأن الجميع كانوا يسمّونه «جنرال».

ـ وجد! لن يتّهمك أحد بالغباء. ألم يسمّه أحد بإسمه؟

ـ شاهر كان يدعوه «جون». وكان يعامله كما لو كان أهم إنسان في العالم.

ـ قد يكون. قد يكون. صفي لي شكله.

ـ أصلع. له شارب طويل جداً. كشارب الرجل الذي يقف على المطعم الهندي «بومباي بالاس».

ـ وصف دقيق. فلنعد إلى الضرب.

ـ بعد منتصف الليل وجدت نفسي...

ـ سبق أن قلت لي ذلك.

ـ عفواً! أنت تعرف كم أتقزّز من النوم مع هؤلاء البشر. هؤلاء الناس لا يختتنون و...

ـ وجد!

ـ عفواً! عفواً! أنا أتقزّز منهم، والسلام.

ـ عاطفة قومية نبيلة ومشرّفة.

ـ من حسن الحظ أني لم أضطر إلى النوم معه.

ـ لماذا؟

ـ لأنه طلب مني أن أضربه.

ـ وماذا فعلت؟

ـ في البداية تردّدت. أنت تعرف أني امرأة مسالمة.

ـ السلام عاطفة إنسانية نبيلة ومشرفة.

ـ إلا أنه أصرّ. وأصرّ.

ـ «لا بُدّ مما ليس منه بُدّ». ما هي أداة الضرب؟

ـ تطوّرت بمرور الوقت.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ بدأت باليد. ثم اقترح الحِزام. وأخيراً اقترح الحذاء.

ـ حذاؤه أو حذاؤك؟!

ـ حذائي أنا.

ـ وماذا عن الكعب العالي؟!

ـ عندما تعبت من الضرب، قبيل الفجر، كانت الدماء تسيل من كل مكان في جسده، وكان يتأوّه في نشوة عارمة، وكنت في حاجة إلى حذاء جديد. كانت مؤخّرته أشبه ما تكون. . .

ـ شكراً! شكراً! لا أريد أن أعرف ما حدث لمؤخّرته. أدّيت خدمة جُلّى للعروبة. وحان وقت المكافأة. مرّي على الصندوق وخذي ٢٠٠٠ جنيه.

ـ فتى أحلامي! أنت تعرف أني لم أجيء للنقود.

ـ أعرف! أعرف! قريباً سنلتقي. في منزلي. نقضي الليل بأكمله. بمفردنا ولكن. . .

ـ ماذا؟

ـ تعالي حافية، رجاءً!

كانت ضحكات وجد ترنّ وهي تغادر المكتب وأنا أدير قرص التيلفون لأتحدث مع مايك بنشون. قلت:

ـ مايك! لديّ خبر يصلح لك.

ـ كلّي آذان.

ـ هل تعرف جنرالاً أصلع له شارب طويل يشبه شارب الرجل الذي يقف أمام مطعم «بومباي بالاس»؟

ـ بالتأكيد! جون كرومر. رئيس قسم المبيعات في. . .

ـ حسناً! تعرّض الرجل لاعتداء جسدي. لعدوان عربستاني.

ـ أنت تمزح!

بدأت أعطي مايك التفاصيل الكاملة وهو يقاطعني بين الحين والحين:

ـ أنت تمزح!

انتهت المكالمة. حاولت أن أكتب إلاّ أن خيال المدموزيل لانا كان يحول بيني وبين التركيز. قلت لكاثي:

ـ ما رأيك أن نأخذ إجازة بقيّة اليوم؟

ـ فكرة رائعة.

ـ سوف أدعوك إلى الغداء.

ـ فكرة شهية.

ـ استعدّي.
ـ أرجو ألاّ نذهب إلى مطعم هندي.
ـ لا! سوف نذهب إلى «الأولمبس» المطعم الذي يكسر زبائنه الأطباق. احجزي طاولة.
ـ هل أنت في مزاج يوناني؟
ـ أنا في مزاج تكسيري.
مع الأوزو، والأطباق التي تتكسّر، بدأت كاثي، بصفة شبه سحرية، تكتسي ملامح المدموزيل لانا المجهولة. شعرت برغبة جنسية مباغتة. قلت لكاثي:
ـ وبعد الغداء؟
قالت على الفور:
ـ محلي أو محلك؟
ـ محلّك أنت.
في الثامنة تماماً كان «بتلر» إنجليزي أشيب وقور يقودني إلى أعماق «البنت هاوس». تأمّلت ما حولي بذهول. ٨ ملايين جنيه استرليني، على أقل تقدير. لا توجد في لندن شقق كثيرة كهذه الشقّة. شقة؟! هاه! هاه! جلست في صالون من الصوالين العديدة الفاخرة، أتأمّل التماثيل العاجية وأحتسي الشمبانيا التي أحضرها الأشيب الوقور فور جلوسي. بعد ربع ساعة، بالضبط، دخلتْ لانا. صعقت. كانت مختلفة، تماماً، عمّا تصوّرت. لم تكن أجمل ولم تكن أقبح. كانت مختلفة. كان هناك شيء ما يجعلها مختلفة عن كل النساء اللاتي عرفتهن عبر حياتي. كم عمرها؟ يمكن أن تكون في الثلاثين، ويمكن أن تكون في الخمسين. ما هي مهنتها؟ يمكن أن تكون مربّية أطفال ويمكن أن تكون مديرة بيت للدعارة. هل هي مصّاصة دماء لا تهرم؟ هل هي ساحرة؟ مصّاصة دماء؟! ساحرة؟! في «ماي فير»؟! لعلّ الشمبانيا بدأت تفعل مفعولها. كانت ترتدي قفطاناً أسود مطرّزاً بلآلىء حقيقية وبماسات حقيقية. كم قيمته؟ أغلى من «البنت هاوس» أو أرخص؟
وقفت مرتبكاً أتمتم:
ـ مدموزيل لانا! كم أنا سعيد برؤيتك.
ـ سعادتي أعظم. تفضّل! تفضّل!
جاء الأشيب الوقور ووضع كأس شمبانيا بقرب سيدته. سيّدته؟! لماذا

استخدمتُ هذه الكلمة؟ مصّاصات الدماء مرة أخرى! وضع كأساً آخر بدلاً من كأسي الفارغ. ووضع على الطاولة صينية صغيرة تحمل ساندوتشات كاڤيار. كاڤيار! تذكرت، على الفور، مايك بنشون، وابتسمت. قالت لانا:

- خير؟!

قلت:

- لي صديق إسكتلندي يعشق الكاڤيار عشقاً جنونياً وأنا أتذكّره كلما رأيت الكاڤيار.

- قل له أن يستمتع به قبل أن يختفي.

- يختفي؟ ماذا تقصدين مدام... مدموزيل لانا؟

- في إيران وروسيا بدأت الأسماك التي تحمل الكاڤيار تنقرض. صيد غير منظّم طيلة السنة. لا يفرّقون بين موسم وموسم. في روسيا تسيطر عصابات المافيا على العملية وفي إيران... آه! ما علينا! إذا استمرت الأمور على هذا المنوال فسوف يختفي الكاڤيار قريباً.

أخذت ساندوتشاً، وقلت:

- إذن يجب أن أحصل على نصيبي قبل...

قاطعتني لانا:

- نصيبك؟ ذكّرتني. كدت أنسى. نصيبك محفوظ.

قلت بخجل:

- كنت أتحدّث عن الكاڤيار.

- وكنت أنا أتحدّث عن الكاڤيارِ. الكاڤيار، يا عزيزي صديق الإسكتلنديين، أنواع. هناك كاڤيار يُؤكل، وكاڤيار يدفع، وكاڤيار... آه! ما علينا! نصيبك من كل نوع محفوظ.

هذه المرأة العجيبة لا تلفّ ولا تدور. في مثل هذه الأمور لا بُدّ من قليل من التغابي. قلتُ:

- كنتُ أتحدّث عن هذا الكاڤيار الذي أراه أمامي.

- لا داعي للشرح يا عزيزي مسعود. نحن نفهم بعضنا تماماً.

- العقول العظيمة...

- تفكّر على نفس النحو.

ـ ولا يختلف إلاّ الحمقى.

نظرت إليّ بعمق، وقالت:

ـ مدام مفاتن تبلّغك تحياتها الحارة.

ـ شكراً! هل تعرفينها؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك.

ـ وتعتذر عما حدث في البار في «ويمبلدون».

أعتقد أن لانا لاحظت أن وجهي بدأ يحمرّ. مضت قائلة:

ـ الرجال يميلون إلى العنف بطبيعتهم. لا مُبرّر للعنف. ألا ترى، يا عزيزي مسعود، أن هذا العالم فيه من العنف ما يكفي؟

ـ ما يكفي، ويزيد.

ـ كنت، دوماً، مُحبّة للسلام.

ـ موقف أخلاقي مشرّف.

ـ وكنت، دوماً، أكره اللجوء إلى القوّة.

ـ القوّة عدوّة الحضارة.

ـ تماماً! تماماً! ونحن قوم متحضرون، أليس كذلك يا عزيزي؟ والقوم المتحضرون لا يلجأون إلى العنف أو التهديد أو الإبتزاز، أليس كذلك يا عزيزي؟

بدأت أتململ في مقعدي. واستمرّتْ في الحديث. واستمر الوقور الأشيب يملأ الكؤوس ويأتي بصينيات جديدة من الساندوتشات. وهي تتحدّث عن عشقها للسلام. وذهني يفرّ مني ويعود. لم يمر بي في حياتي كلها موقف غريب كهذا الموقف. قالت لانا:

ـ هل سمعتني يا عزيزي مسعود؟ كنت أتحدّث عن برتراند رسل.

قلت وأنا أحاول، عبثاً، أن أخفي اضطرابي:

ـ آه! اللورد رسل! كان رائد الحركة السلمية في بريطانيا. كان فيلسوفاً عظيماً وكان. . .

قاطعتني لانا وهي تبتسم:

ـ الأهمّ من هذا كلّه أنه كان ينام مع زوجة ابنه بعد أن تجاوز الخامسة والثمانين.

هل تمزح هذه الصبيّة/العجوز؟ هل درستْ الحياة الجنسية للفلاسفة كما درست الحياة الجنسية لأسماك الكافيار؟

قلت:

- حيويّة مدهشة.

- الحيوية الفكرية هي منبع الطاقة الجنسية.

حاولت إخفاء ارتباكي بقضم ساندوتش آخر. ابتسمت لانا وقالت:

- لا تصدّق ما تسمع عن الكافيار.

- عن انقراضه؟

- عن مزاياه الأخرى. لم يكن برتراند يحبّ الكافيار.

كانت تتحدّث عن اللورد الفيلسوف كما لو كان زميلها، أو صديقها، أو عشيقها. هل من المعقول...

فجأة، قالت:

- واحد في الألف.

قلت مذهولاً:

- ماذا تقصدين؟

قالت ببساطة:

- نصيبك من الصفقة. الأمر لا يحتاج إلى عملية حسابية معقّدة. نصيبك واحد في الألف. مليون دولار.

قبل أن أفيق من الصدمة تناولتْ جرساً فضياً صغيراً هزّته برفق، وظهر الأشيب الوقور يحمل حقيبة جلدية رجالية فاخرة قدّمها إلى سيّدته التي قدّمتها إلي وهي تقول:

- مليون دولار. عداً ونقداً. تستطيع أن تفتح الحقيبة وتتأكّد وتعدّ المبلغ الآن.

تمتمتُ باضطراب فشلت فشلاً تامّاً في إخفائه:

- شكراً! أعني عفواً! أعني شكراً! لا داعي للثقة! أعني الثقة متوفرة! لا داعي للعدّ!

قالت المدموزيل لانا وهي تبتسم ابتسامة جعلتني أصاب بقشعريرة في القلب:

- صدقت! الثقة! الثقة هي الأساس!

المزيد من الشمبانيا. والمزيد من الكافيار. ثم وقفتْ فجأة، وقالت:

ـ عزيزي مسعود! كم كان بودّي أن أستبقيك للعشاء. إلا أن لديّ ضيوفاً آخرين سيجيئون في العاشرة. بعد ٧ دقائق تماماً. لا بُدّ أن أكون وقحة، وأنهي هذا اللقاء التاريخي.

قمتُ وأنا أحمل الحقيبة الجلدية الفاخرة وأفكّر في الضيوف المجهولين الذين سوف يصلون بعد ٧ دقائق تماماً. هل سيغادرون بحقائب جلدية فاخرة؟ ما هذه المرأة؟ ما هذه الشقة؟ ما القصّة؟

عند الباب توقّفتُ وقلت لها:

ـ لا أعرف كيف أعبّر عن شكري.

قالت:

ـ تستطيع أن تقبّلني.

كالعادة، تركتني في حيرة. هل تقصد ما تقول؟ هل تسخر مني؟ قبل أن أصل إلى قرار وضعتْ فمها على فمي وضغطت بقوّة. شعرت بأشياء غريبة تجتاح جسدي أغربها تلك القشعريرة في القلب. عندما استرجعتُ أنفاسي، قالت:

ـ والآن أستطيع أنا أن أقبّلك.

كانت القبلة الثانية أعنف وأطول، وأثارت أشياء أغرب، ونقلت القشعريرة إلى عمودي الفقري. قبل أن تغلق الباب، قالت:

ـ القبلة الأولى مني. والثانية من مفاتن. إبنتي.

ـ في الشارع صفعتني نسمة هواء باردة أرجعت بعض الصواب الذي تطاير مع الشمبانيا والكافيار والدولارات وقبلة الأم وقبلة الابنة. مدام مفاتن إبنتها؟! هل تمزح؟! ولم لا تكون إبنتها؟! كنت قد تركت سيارتي في رعاية بوّاب «الدورشستر» وبدأت أمشي في اتجاه الفندق. في الاتجاه المعاكس ظهر رجلان يرتديان ملابس الرياضة، ويركضان. جزي في العاشرة؟ وفي شارع جانبي من «ماي فير»؟ من يفهم هؤلاء الناس؟ عندما اقتربا مني أحكمتُ قبضتي على الحقيبة الجلدية. من يدري؟ حدث كل شيء بسرعة البرق. عندما حاذاني الرجلان، دفعني أحدهما بشدّة إلى الوراء. وكانت قدم الآخر وراء رجليّ. وجدت نفسي ملقى على الأرض. في اللحظة نفسها، انشقّت الأرض عن رجل ثالث اختطف الحقيبة الجلدية وبدأ يجري في اتجاه الفندق. عندما وقفتُ على قدميّ كانت في

إنتظاري لكمة على وجهي أعادتني إلى الأرض. عندما وقفت مرة أخرى كان الرجلان اللذان هاجماني قد اختفيا تماماً. أما الرجل الذي اختطف الحقيبة فقد كان يركض أمامي وحقيبتي، المليون دولار!، في يده. انطلقتُ أجري وراءه. قبل أن ينعطف في نهاية الشارع رأيت برقاً ينبعث من الحقيبة، وسمعت صوت إنفجار مروّع. ورأيت أشلاء الرجل تتطاير في الهواء، وتسقط مع أشلاء الحقيبة وأشلاء الزجاج الذي انهمر من كل مكان.

السبت

كانت السيّارة تعبر مروج الريف الإنجليزي وكنت، خلف المِقودْ، أعبر إنفجاراً بعد إنفجار. لم أنم البارحة غمضة عين. لم أصدّق أن ما حدث حدث، وحدث أمامي. قبلة الأم. وقبلة الإبنة. مزيج الكاڤيار والشمبانيا والشوق المكبوت. والحقيبة المملوءة بالموت. أستطيع أن أفتحها وأتأكد بنفسي. ماذا لو فعلت؟! ماذا لو فجرت نفسي والعجوز الساحرة معاً؟! حاولت أن أقنع نفسي أن ما حصل في «البنت هاوس» كان حلماً جميلاً أعقبه كابوس مرعب في الشارع. لا يُعقل أن يحدث ما حدث في «ماي فير». لا يحصل هذا حتّى في أفلام جيمس بوند. لا بُدّ أنني تخيّلت الأمسية كلّها: «البنت هاوس» والبتلر الأشيب الوقور، والحيزبون الصبية/العجوز ومأساة أسماك الكاڤيار، وحيوية برتراند رسل، والقبلتين، والإنفجار. إلاّ أن جرائد الصباح لم تدع لي أيّ مجال للهرب إلى الخيال. كان الخبر يتصدر الصفحة الأولى من كل جريدة. عضو في الجيش الجمهوري الإيرلندي. انفجرت به القنبلة قبل أن يتمكن من زرعها في هدف مجهول. قرب «الدورشستر». قد يكون «الدورشستر» نفسه الهدف. أيّها الجيش الإيرلندي الجمهوري! كم من الجرائم ترتكب بإسمك! وأنا؟ أنا؟ كيف تورّطت مع هذه العصابة من القتلة؟ أين حاستي السادسة المشهورة؟ وماذا عن الآن؟ الآن أنطلق إلى شخص اسمه ممدوح بارود. بارود! كان جدّه مسئولاً عن مخازن متفجّرات. ألم أُلدغ بما فيه الكفاية؟ رصاص وحقائب ملغومة! ماذا تبقّى؟ أسلحة الدمار الشامل؟!

على الباب وجدت ممدوح بارود في انتظاري. ممدوح رجل باهت الملامح يقترب حثيثاً من الستّين. لم يكن المنزل قصراً. كان كوخاً ريفياً توسّع وتوسّع حتى لم تعد تربطه بالبناء الأصلي سوى قرابة بعيدة. لم يكن هناك سوانا، وخادمة فرنسية عجوز. ظاهرة عجيبة! رجل عربستاني لا يحب المظاهر! رُبّما كان السبب

أصله الأرستقراطي. ليس من محدثي النعمة كمعظم أصدقائي. كان جدوده يخدمون السلاطين.

على طاولة طعام صغيرة بدأتْ الوجبة، وبدأ ممدوح الحديث:

ـ يا أستاذ مسعود! أنت تعرف الظروف العصيبة التي تمرّ بها الأمة. تعرف أننا نمرّ بمأزق صعب. تعرف أن عملية السلام تترنح.

ـ أعتقد أن عملية السلام تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ـ تماماً! هذا ما قصدته. تحتضر. في هذه الأوضاع الصعبة يصبح من واجبنا جميعاً أن نشدّ أزر أشقّائنا الفلسطينيين بكلّ ما أوتينا من قوّة.

ـ هذا واجب مقدّس.

ـ كيف نستطيع أن نشدّ أزرهم؟ هذا هو السؤال.

لم يكن يتوقع إجابة، ولم أقل شيئاً، وواصل:

ـ إذا لم تستطع الضغط عن طريق الحرب فلا وسيلة لديك سوى الضغط عن طريق السلام. الترهيب والترغيب. فقدنا للأسف، عبر هزائم منكرة متلاحقة، كل قدرة على الترهيب، ولم يبق لدينا من وسيلة سوى الترغيب. هل أنت معي؟

ـ أنا معك. تحليل دقيق جداً.

ـ أشكرك! عربستان X الآن تحاول إقناع إسرائيل بتقديم بعض التنازلات للأشقّاء الفلسطينيين الذين لم يعد لديهم ما يتنازلون عنه لأنهم تنازلوا، بالفعل، عن كل شيء. هل أنت معي؟

ـ أنا معك.

ـ نحن في عربستان X نرى أن واجبنا القومي يتطلّب منا تقديم تنازلات نيابة عن الفلسطينيين ولصالحهم. لا تُسيء فهمي! لا أقصد علاقات دبلوماسية كاملة. لا! لا! مجرّد تسهيلات تجارية. هناك، الآن، مفاوضات دقيقة وحسّاسة وسرّية، سرّية جداً، بيننا وبين إسرائيل تستهدف دفع إسرائيل إلى تقديم تنازلات للفلسطينيين مقابل التسهيلات التي ستنالها منا. هل أنت معي؟

ـ أنا معك على طول الخط. وأحيّي هذه الروح القومية النبيلة يا ممدوح بيك.

ـ لا شكر على واجب. هذا قدرنا. هناك مشكلة واحدة.

ـ خير؟

ـ السرّية. لا بُدّ، في هذه المرحلة، أن تبقى المفاوضات طيّ الكتمان. إذا

كُشف عنها النقاب الآن فسيتوقف كل شيء. ومن سيخسر في هذه الحالة؟

ـ الأشقاء الفلسطينيون.

ـ تماماً! أنا واثق أن بوسعي الإعتماد عليك لتفادي هذه الكارثة.

ـ عليّ أنا؟

ـ نعم. نحن في عربستان X نعرف مدى تفانيك في خدمة القضية.

ـ أنا جندي بسيط يا ممدوح بيك.

ـ أنت سلاح من أمضى أسلحتنا.

ـ ماذا تريد مني أن أفعل؟

ـ أرجوك، أتوسّل إليك، أن تحول بين الصحافة هنا وبين نشر أخبار عن الاتصالات في هذه المرحلة.

ـ سوف أبذل قصارى جهدي. ولكن يا ممدوح بيك يجب أن تعرف أني لا أستطيع التحكم إلاّ في جريدتي. لا أستطيع التأثير على الجرائد الأخرى.

ـ نحن، يا أستاذ مسعود، ندرك مدى نفوذك. لا مُبرّر لهذا التواضع.

ـ أستطيع أن أبذل جهدي في الإقناع.

ـ لا نطلب منك أكثر من هذا.

تشعّب الحديث إلى مباهج الحياة في الريف الإنجليزي. فور انتهاء الغداء البسيط استأذنت، وخرج ممدوح بارود يودعني إلى السيّارة. صافحني، وقدّم لي ظرفاً صغيراً وهو يقول:

ـ هذا شيء بسيط للمصاريف. نحن نعرف، تماماً، أن المهمة تحتاج إلى بعض المصاريف.

تمتمت وأنا أدخل الظرف في جيبي.

ـ شكراً! شكراً! سوف أخدم القضية بكل قوّتي.

أوقفت السيّارة بعد دقائق من مغادرة الكوخ الريفي، وأخرجت الظرف الصغير. هل أفتحه؟ لم لا؟ لا يموت الإنسان إلا في يومه. ولا يفرّ الإنسان من قدره. إذا كان القدر يريد أن أسلم من الموت بقنبلة في حقيبة لأموت بقنبلة في ظرف صغير فليكن. داخل الظرف وجدت شيكاً بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني من بنك سويسري. من حسن حظي أني فتحت حساباتي البنكية في سويسرا قبل أن تبدأ البنوك هناك تسأل: «من أين لك هذا؟». يا للوقاحة! تضع مالك في بنك ويرفض

البنك أن يستلمه إلا إذا أخبرته كيف حصلت عليه. هذا لا يهم الآن. ما يهم أن الاتصالات بين عربستان X وإسرائيل سوف تبقى طيّ الكتمان. مسعود أسعد يفي، دائماً وأبداً، بوعوده. أمانة الكلمة!

في المساء، كنت في حفلة صديقي شاهر نتّاش. كم عدد الحاضرين والحاضرات؟ ٣٠٠، على أقل تقدير. كيف يستطيع شاهر جمع هذه الحشود الكبيرة الغريبة؟ سيدات مجتمع وسيدات شوارع. وزراء ونشّالون. طبقة أرستقراطية وطبقة عمالية. عجائز ومراهقات. أصحاب بلايين وبؤساء. والجميع، على ما يبدو، يستمتعون بوقت طيب. في طرف القاعة الكبيرة كانت الفرقة العربستانية تعزف، والفرقة الغربية تستريح. وراء المطرب جلس الأعمى يقرع الدفّ. هنا وهناك شقراوات يرقصن على وقع «خارجة من بيت أبوها». وجْد تبتسم من بعيد، وتختفي مثل طيف. يونس أبو شختورة ينشر حوله الغمائم. الشمبانيا في كل مكان. والكاڤيار، الذي يبدو أنه لم ينقرض بعد، يرافق الشمبانيا. كنت في مزاج إحتفالي. نجوت من موت محقق البارحة، وحصلت اليوم على شيك بخُمس مليون جنيه. ربّما كان هذا المزاج الإحتفالي هو الذي قادني، على خلاف عادتي، إلى الحديث مع الإنجليزية الشقراء الحسناء التي تحرّشت بي. لا شيء يفزعني، عادة، مثل امرأة تتحرّش بي، مهما كان جمالها. التحرّش مهمّة الصيّاد لا الطريدة. ولكني هذه المرة استجبت. نظرة. فابتسامة. فكلام. فشمبانيا. فكاڤيار. فضحك. فرقص. فإلتصاق. فغرفة صغيرة في المنزل الكبير. ولم تكن هناك أيّ مقاومة. فيما بعد، كنت أدخّن، وكانت توشك أن تغادر الغرفة عندما توقفت عند الباب، وقالت:

ـ هل أعجبتك الهديّة؟

قلت بحيرة:

ـ أيّ هدية؟

ـ أنا.

ـ أنتِ هدية؟

ـ بكل تأكيد.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنا هديّة أرسلها لك صديقك رافع رفعت.

ـ هذا سخاء منه. اشكريه بإسمي.

ـ لا أعتقد أنك ستشكره عندما تعرف.

ـ أعرف ماذا؟

ـ أني مصابة بالإيدز.

غادرتْ الغرفة وهي تقهقه بلا حياء. الإيدز؟! لا بُدّ أنها تمزح. لا بد أن رافع يمزح. مزحة ثقيلة جداً. جداً جداً! العاهر ابن العاهرة!

الأحد

في بيت الرئيس في «ريشموند» انعقد الاجتماع الشهري للجنة المركزية للحزب الحورستاني الثوري. بدأتْ الجلسة بالطقوس المعتادة. قال الرئيس:

ـ الحورستانيون أمة مستقلة متميّزة عن بقيّة الأمم.

وقال عضو اللجنة الذي يجلس على يمينه:

ـ وخاصة الأمّة العربستانية البدوية.

وقال الرئيس:

ـ التي قتلت زعيمنا الخالد.

وقال العضو الذي يجلس على يساره:

ـ يحيا الزعيم الخالد!

وأنهى الرئيس الطقوس قائلاً:

ـ يحيا الحزب الحورستاني الثوري!

بعد ذلك نظر الرئيس في وجوه الحاضرين، ونظر إليّ طويلاً، وقال:

ـ باسم الأمة الحورستانية العظيمة صانعة الحضارة افتتح هذا الاجتماع. اسمحوا لي قبل أن ندخل في جدول الأعمال أن أعرب بإسم الحزب عن الشكر العميق للأستاذ مسعود أسعد على مساهمته التي بلغت رقماً قياسياً هذا الشهر، ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

صفّق الأعضاء بحرارة، واستمر الرئيس:

ـ الأخ مسعود أسعد قدوة لنا جميعاً، قدوة في إبقاء جذوة الثورة متّقدة،

وقدوة في الانتقام من العربستانيين السفلة الذين اغتالوا زعيمنا الخالد.

انتهى الاجتماع بعد ساعتين. خرجت وذراعي على كتف صديقي عدنان شهوان. تبادلنا آخر طرائف العربستانيين ونحن في الطريق إلى بار «وايت سوان» حيث نلتقي بمندوب السفارة الإسرائيلية في اللقاء الشهري المعتاد.

٤

الطبيب النفساني

إذا ساء فعل المرء ساءتْ ظنونه
وصدَّق ما يعتاده من توهّمِ
المتنبّي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: أنور مخايل مختارجي

- اسم الشهرة: أنور مختار
- المهنة: طبيب نفساني
- العمر: ٤٩ سنة
- الثروة: ٣ ملايين دولار (تقريباً)
- مكان الميلاد: عربستان X
- مكان العمل: لندن
- المؤهّلات الدراسية: بكالوريوس طب ـ جامعة سانت أندروز، دكتوراه علم النفس ـ جامعة سانت أندروز
- الحالة الاجتماعية: متزوج
- الأولاد: ابنة واحدة

الاثنين

فوجئت وأنا أدخل العيادة في الحادية عشرة صباحاً، كعادتي، بسكرتيرتي روث تقول إن السيد رافع رفعت طلب موعداً لرؤيتي في العيادة هذا الصباح. رافع رفعت؟! رافع صديق عزيز أراه كل أسبوع، وأحياناً أراه مرّتين في الأسبوع. لِمَ الزيارة في العيادة؟ هل أصيب، بغتة، بمرض نفسي؟ قلت لروث:

ـ متى اتّصل؟

ـ في التاسعة. والعاشرة. والعاشرة والنصف. كان يصرّ على رؤيتك في أسرع وقت ممكن.

ـ ماذا لديك من المواعيد؟

ـ الممثّل المسرحي.

ـ متى موعده؟

ـ في الواحدة.

ـ وغير الممثّل؟

ـ الصحفية.

ـ متى موعدها؟

ـ في الثالثة.

ـ هل يمكن تأجيل الموعدين إلى الغد؟

ـ أعتقد أن هذا ممكن.

ـ حسناً! ألغي الموعدين وأخبري رافع أن بوسعه القدوم الآن.

بعد دقائق دخل رافع مكتبي، واستلقى على الأريكة، وبدأ طوفانه اللفظي:

- اسمع يا أنور! لا تقاطعني! لا تقاطعني! دعني أتكلّم! أنت تستغرب لماذا طلبت موعداً في العيادة. لا تنكر! لا تنكر! أنت تستغرب. تقول لنفسك: «هذا صديقي. صديق العمر. وأنا أراه باستمرار. ونسهر معاً. ونشرب معاً. ونضحك معاً. ونفعل..». حسناً! حسناً! حسناً! أنت تعرف جيّداً الأشياء التي نفعلها معاً. أرجو ألاّ تقاطعني!

- لم أكن أنوي مقاطعتك.

- هل رأيت؟ ها أنت ذا قاطعتني. أرجوك يا أنور! أستحلفك باسم الصداقة، اسمع ولا تقاطع. أنا لم أجيء، الآن، باعتباري صديقاً. جئت بصفتي مريضاً. هل تفهم؟ هل تفهم؟ وأنت لا تستطيع أن تفشي أسرار المرضى. هذا صحيح، أليس كذلك؟ لا تقاطعني! أنا أعرف أن هذا صحيح. قسم سقراط...

- أبو...

- لا تقاطعني! حسناً! حسناً أبو سقراط. ماذا يهمّ؟ أبوه أو أمّه. المهمّ أن القسم يمنعك من إفشاء أسرار المريض، أليس كذلك؟ بالتأكيد! هذا ما أكّده لي الدكتور روكفورت. سألته، مرّة، عن صديق مشترك. مُجرّد سؤال. لا تُسيء فهمي، يا أنور. لم أكن أنوي أن أتطفّل. أو أتلصّص. أنا لا أتطفّل أو أتلصّص كما تعرف جيّداً. كانت المسألة مجرّد سؤال عن صديق. ولم يكن صديقاً مُهمّاً. لا تُسيء فهمي! أنا أعتقد أن كل البشر مهمّون. جميعهم. حتى الفقراء. لم يكن قصدي من السؤال سوى السؤال. فوجئت بالدكتور روكفورت يقول لي: «قسم سقراط...».

- أبو...

- حسناً! حسناً أبو سقراط. قسم أبو سقراط. قلت له: «يا دكتور! أنا لا أبحث معك الفلسفة. أنا أستفسر عن صديق» قال: «لا أستطيع أن أردّ على استفسارك قسم سقراط يمنعني...

- أبو...

- حسناً! حسناً! قسم أبو سقراط. لا تقاطعني! لا تقاطعني بحق أبو سقراط! قسم أبو سقراط يمنعه. قال لي إن كل طبيب ملتزم بهذا القسم. لا يُعطى الشهادة إلاّ إذا أقسم ويبقي، طيلة حياته، مقيّداً به. حتّى الأطباء النفسانيون! وأنت مقيّد بهذا القسم. ولن تبوح بسرّ من أسراري. خصوصاً للحمار ابن الحمارة. صاحب «صوت الجريمة». لا أستطيع نطق إسمه. لو مرّ إسمه على لساني لأصابني

الغثيان. ولكنني أعتقد أنك تعرف من أعني. وربّما كان صديقك. أعرف أنك لن تفشي له سرّاً من أسراري حتى لو دفع لك ١٠٠,٠٠٠ جنيه. خصوصاً إذا دفع لك ١٠٠,٠٠٠ جنيه. تذكّر أني مريض الآن. وأنت طبيب. لست صديقي الآن. أنت طبيبي. ولو أفشيت سرّاً من أسراري ستنتهي تماماً. تنتهي كطبيب. أيّ طبيب يفشي أسرار مرضاه ينتهي. خصوصاً في لندن. خذ الأسرار من لندن وماذا يبقى؟ الطبقات العاملة التي تحيا بلا أسرار. والتي كانت في الماضي تُسمّى الطبقات المجرمة. أما الطبقة الأرستقراطية فحياتها قائمة على الأسرار. قسم أرستوقراط! هاه! هاه! صفقات الأرستقراطي أسرار. غرامياته أسرار. صداقاته أسرار. خذ الأسرار من الرجل الشريف وماذا يبقى منه؟ أسألك بحق أبو سقراط، ماذا يبقى منه؟ لا تقاطعني يا أنور! هل تسمح بالتدخين في العيادة؟ تسمح! عفارم! عفارم! هذه قاعدة جيّدة. خصوصاً هذه الأيام. التي تضطهد المدخّنين. وتعاملهم معاملة المجذومين. لحظة! لحظة! سوف أشعل السيجار. لا داعي للمقراض. أنا أقضم السيجار بأسناني. عادة قديمة جداً. لا تقاطعني يا أنور! رجاءً لا تقاطعني. لا تقل أن قضم السيجار بالأسنان عمل مَرَضي. أو عدواني. أو يدلّ على نزعات جنسية خفيّة. لا تقل لي هذا رجاءً. كما قال لي مرة البروفسور وِندباج. كنت في منزلي أقضم سيجاري بأسناني وقال هذا الصعلوك إن قضم السيجار بالأسنان يدل على نزعات جنسية خفيّة. قال هذا أمام الضيوف. يأكل طعامي ويشرب شرابي ويتهجّم عليّ أمام ضيوفي. هل تعرف ماذا فعلت؟ بعد أن أشعلت السيجار أدخلته في مؤخّرته. من الخلف! احترق البنطلون، بطبيعة الحال. ثم طردته طرد الكلاب. وماذا حدث بعد ذلك؟ لم يحدث شيء. الهجوم أفضل وسيلة للدفاع. أرسلت له خطاباً أهدّده برفع دعوى ما لم يعتذر. عن طريق المحامي الشهير العقرب اللورد ستنجر. وماذا حدث؟ اعتذر الجبان. بكل ذلّة. في رسالة شخصية، بطبيعة الحال. هل تريد أن يُنشَر الاعتذار في الصحف؟ لا تقاطعني يا أنور! أرجوك! أرجوك! أدخلتُ السيجار في مؤخّرة الصعلوك. وانتهت القصّة باعتذاره. يتّهمني بنزعات جنسية خفيّة. هل أخاف منه أو من أبيه أو من أمّه حتى أخفي نزعاتي الجنسية؟ هل أخاف من أحد؟ لا تقل لي، يا أنور، إنك تؤمن أن قضم السيجار بالأسنان يدلّ على نزعات جنسيّة خفيّة. احذر! تذكّر أني أدخّن، الآن، سيجاراً. ولا توجد مؤخّرة بمنأى عن الخطر. هاه! هاه! مجرّد نكتة. الخلاصة أنك لا تستطيع أن تفشي أسراري. ولو أفشيتها لأطلقت عليك العقرب ستنجر. وسوف تنتهي تماماً. تماماً يا أنور! أنا أعرف أنك لن تفشي أسراري.

لأنك تحبّني. وأنا أحبّك. لو لم أحبّك هل كنت سأعطيك مالي لفتح العيادة؟ هل كنت سأفعل ذلك؟ فعلت ذلك بدافع الحب. والصداقة الطويلة. صداقة العمر. من أيام الجامعة. آه! الجامعة! هل تذكر أيام الجامعة؟ أكملت أنت، ولم أكمل أنا. أصبحت طبيباً نفسانياً تقصده الشخصيات البارزة. من كل مكان. يقصده مشاهير العربستانيين لأنه لا يقيم في عربستان. ويقصده مشاهير البريطانيين لأنه ليس بريطانياً. طبيب النجوم! هل لديك مريض واحد مغمور؟ لا تتواضع! أصبحت طبيباً نجماً يقصده المرضى النجوم. وألّفت ٤ كتب، والبقية تأتي. أما أنا فلم أكمل الدراسة. وماذا أصبحت؟ أصبحت مُجرّد بليونير. هل تعرف شقاء البليونير؟ لا تعرف، بطبيعة الحال. هذا أحسن. صدّقني! اسمع يا أنور! هل حاول أحد أن يبتزّك؟ لا! لم يحاول أحد أن يبتزك. ولماذا لم يحاول أحد أن يبتزك؟ لأنك لست بليونيراً. هل تجد كل يوم على طاولتك ألف رسالة من ألف جمعية خيرية؟ لا! ولماذا؟ لأنك لست بليونيراً. هل يطلب وجيه بعد وجيه استعارة طائرتك الخاصة؟ لا! ولماذا؟ لأنك لا تملك طائرة خاصة. ولماذا لا تملك طائرة خاصة؟ لأنك لست بليونيراً. هل تعرف كم تكلّف صيانة الطائرة الخاصة سنوياً؟ ٣ ملايين جنيه! لا تصدقني؟! هل تريد الفواتير؟ وأنت مرتاح من هذا العبء لأنك لست بليونيراً. أنت مُجرّد مليونير. أو شبه مليونير. أخبرتْني كلارا أنك أعطيتها عقداً بـ ١٠,٠٠٠ جنيه. هذا تبذير يا أنور. تبذير لا يليق بشبه مليونير. وأنا لستُ مقيداً بقسم. أنا مُجرّد بليونير. أفشي الأسرار إذا شئت، واحتفظ بها إذا أردت. ولكني لن أفشي قصة العقد لأحد. خصوصاً لتيريزا. أين زوجتك الآن؟ لم أرها منذ مدة. مع أهلها في البرازيل؟ لا تنسَ أني تعرفت على تيريزا قبلك في الجامعة. وعندما شعرت أنك تحبّها تنازلت لك عنها بطيبة خاطر. كنتَ أشطر مني في الدراسة. وكنتُ أشطر منك في النساء. اعترف يا أنور! هذه موهبة لا علاقة لها بالمال. الجاذبية الجنسية! اسمع يا أنور! لا بُدّ أن ترسل لي فاتورة بعد هذه الجلسة. لا بُدّ! إذا لم ترسل الفاتورة فقد لا ينطبق القسم. تصبح المسألة مجرد حديث بين أصدقاء. لا بُدّ أن تتقاضى ثمن العلاج. حتى أصبح مريضك قانوناً. أنا أثق فيك ثقتي في نفسي. ولكن ثقتي في نفسي مضعضعة. كلّ الذين أعرفهم انقلبوا عليّ. بمجرّد أن اكتشفوا أني لا أنوي مشاركتهم ثروتي. كل الأصدقاء. لا! لا! هذه مبالغة. معظم الأصدقاء. وأنا واثق أنك لن تنقلب عليّ. هل بوسعي أن ألقي الرماد هنا؟ هل هذه منفضة سجائر؟ تبدو كما لو كانت قطعة مجوهرات. لم أر منفضة بهذه الفخامة وأنا بليونير. حسناً! حسناً! يسعدني

أنك تسمح بالتدخين. وأنك لا ترى في قضم السيجار بالأسنان نزعات جنسية خفيّة. سيجار رائع. من هافانا مباشرة. من صديق الرفيق كاسترو. لا تُسىء فهمي، يا أنور! لا يزال الرفيق كاسترو شيوعياً ملتزماً. أما أصدقاؤه فقضية أخرى. هناك مفاوضات بيني وبين الصديق لفتح فندق في هافانا. وهذا، أيضاً، سرّ يحميه قسم أبو سقراط. دعني أخبرك سرّاً آخر. أعطتني كوبا من الإمتيازات والإعفاءات ما لا يوجد في أي دولة رأسمالية. صدّق أو لا تصدّق! أرض مجانية. وإعفاء ضريبي يستمر ٢٥ سنة. تصوّر! ٢٥ سنة! ولكني لم أجئك، يا صديق العمر، لأبحث في البزنس. أنت لا تفهم في البزنس. لو كنت تفهم في البزنس لأصبحتَ بليونيراً تطارده الجمعيات الخيرية والأيتام والأرامل واللصوص والقوّادون والعاهرات والمبتزون والجامعات المحترمة والجامعات المحتقرة. أما الآن فأنت لا يطاردك أحد. إلاّ كلارا، ربما. لماذا تعطيها عقداً بهذا المبلغ؟ هل فقدت صوابك؟ ألا تعرف ما يدور في بال المرأة إذا أعطيتها عقداً ثميناً؟ المرأة حيوان قذر، يا أنور. أقذر حيوان في التاريخ. وأقذر امرأة هي لولا. زوجتي السابقة. زوجتي المرحومة. كيف أصبحت مرحومة؟ سوف أخبرك. أنا أعرف أنك تعرفها جيّداً. أعني كنت تعرفها جيداً في الماضي. هل تعرف أن لولا كانت تخونني؟ ومع من؟ مع عدوّي الأكبر. مع منافسي الأخطر. شكري ياسر. وكيف عرفت؟ عن طريق المخبر الخاص. الذي ظل يتابعها حتى تأكد من الخيانة. وليت القذرة اكتفتْ بالخيانة السرّية. فعلتها على الملأ. والقذر صاحب «صوت الجريمة» عرف القصّة. وحاول إبتزازي. هل تعرف ماذا فعلت؟ سوف تضحك. دفعتُ لفتاة جميلة مصابة بفيروس الإيدز مبلغاً محترماً لكي تنام مع القذر. ونام الحمار معها. متوهّماً أنها أعجبت بجبينه الممزّق. توقّع موته خلال شهور. المبتزّ المرحوم! وتوقع موت لولا خلال شهور. لا تخف! لا تخف! أنا لا أؤمن بالعنف. سمّ؟ رصاص؟ حادثة سيارة؟ لا! لا! قلت لها، ألف مرة، إن الخيانة تعني الموت. واختارت الخيانة. اختارت الموت. ولكنه سوف يكون موتاً من طراز مختلف. جريمة لا يعاقب عليها القانون. هل تعرف ماذا فعلت؟ لم تعرف بعد؟ سلاحي السرّي. الفتاة الجميلة المصابة بالإيدز. أرسلتها إلى القذر شكري ياسر. وصدّق هو الآخر أنها معجبة بكرشه. ونام معها. عدّة مرات. لا بُدّ من التأكّد من إنتقال العدوى. أعتقد أن الفيروس وصل الآن إلى لولا. المرحومة! التي اختارت الخيانة واختارت الموت. كان بوسعها أن تخبرني ونفترق بلا فضائح وبلا خيانات. ولكنها اختارت لنفسها هذا المصير. احذر أن تنام معها، يا أنور!

هاه! هاه! مجرّد نكتة. واحذر أن تنام مع شكري! أو الكلب الآخر! هاه! هاه! مجرّد مداعبة! قلت لي إن تيريزا في البرازيل؟ هل هي بخير؟ حسناً! حسناً! لا بد أن أذهب الآن، يا دكتور. الطائرة في المطار، وعندي موعد هام في روما هذا المساء. لا تنسَ الفاتورة! تحياتي لتيريزا. ولوسي. كيف حال لوسي؟ لم أرها منذ مدة. أبلغها تحيات عمها رافع. إلى اللقاء!

بمجرّد خروج صديق العمر جريت إلى الحمام، واستفرغت. هذا الكاذب بالفطرة! هو الذي أعطاني ماله لفتح العيادة؟! أعطاني قرضاً سدّدته بفوائد تزيد على فوائد البنوك. وهو الذي تعرف على تيريزا قبلي؟! لا! لم يتعرّف على تيريزا قبلي. ولم يكن أشطر مني مع النساء. لم تجيء الشطارة إلاّ مع الثروة. وما هي قصة الإيدز؟ هل يكذب؟ شهوة الإنتقام عنده لا تعرف الحدود. ولا أستبعد أن يكون لجأ، بالفعل، إلى هذه الحيلة القاتلة. ولماذا يخبرني أنا بذلك؟ لماذا؟ لماذا؟ هل يتوقّع مني أن أحذّر لولا؟ وإذا كان يريد تحذيرها فلماذا لم يحذّرها بنفسه؟ هل يريد موت شكري وحده؟ وما هي حكاية قسم أبوقراط؟ الحق أني لم أر القسم منذ أيام الكلية. لا بد من مراجعته. أعتقد أنه موجود في كتاب النقابة. وفي الصفحة الأولى. نعم! نعم! وهذا هو الجزء المتعلق بالأسرار: «وكل شيء أراه أو أسمعه، سواء كان مرتبطاً بممارسة مهنتي أو لم يكن، في حياة الناس مما لا يجب الحديث عنه، فإني لن أفشيه، معتبراً كلّ هذه الأشياء أسراراً». لا أعتقد أن أبوقراط كان يستهدف حماية القتلة. ولا أعتقد أن صديق العمر المخبول يستحق حماية القسم.

اتصلت بلولا على الفور:

ـ لولا! لا بُدّ أن أراك الآن.

وجاء صوتها من الجانب الآخر:

ـ أنور؟ لم أسمع صوتك منذ مدة. لم أرك منذ زمن. هل تعرف أن الطلاق...

قاطعتها:

ـ لولا! أعرف! أعرف! وأريد أن أراك الآن.

ـ الآن. لديّ موعد...

ـ انسي الموعد. تعالي على الفور.

ـ إلى العيادة؟

ـ إلى العيادة الملحقة.

العيادة الملحقة شقّة تقع فوق العيادة تماماً. يمكن دخولها من باب منفصل، ويمكن الوصول إليها عن طريق سلّم في العيادة. ترتيب مريح لكلّ الأطراف. من يشكّ في امرأة تذهب إلى عمارة مليئة بعيادات الأطباء؟ ومن يعرف بوجود عيادة ملحقة بين العيادات؟

جلست في انتظار لولا، أستعرض قصتي معها. كانت في الحادية والعشرين عندما قابلتها، جميلة جداً وبريئة جداً. كان اسمها الحقيقي ليليان إلا أن الجميع كانوا يسمّونها لولا. أوه! متى كان ذلك؟ قبل عقد من الزمان. أو أكثر قليلاً. أو أقل قليلاً. كانت العلاقة بيننا غريبة بعض الشيء. كانت علاقة أفلاطونية إلى حد ما. إلى حد كبير. كنت أحتمي بها من القاذورات التي تحاصرني من كل جانب. من عفن هذا العالم. من عفن هذه المهنة. من عفن الطبيعة البشرية. من عفن الحياة اليومية. وذات يوم رآها رافع معي. كنت أتعشّى معها في مطعم فرنسي صغير قرب «سوهو». وجاء وقدمته لها. وبدأ يمدّ الشباك. الورود الحمراء. جولة في القارب. الرسائل العاطفية. الهدايا الرومانسية. وبُهرت الجميلة البريئة. وتزوجته رغم تحذيراتي. والآن التقت ببليونير آخر. والنتيجة؟ الموت؟

كنت في العيادة الملحقة أستعين بالويسكي على مواجهة الموقف عندما دخلت لولا. لا تزال جميلة جداً ولا تزال تبدو بريئة جداً. قبّلتني على خديّ وقبلتها على فمها، وقالت:

ـ ماذا بك؟ ماذا تريد؟ اضطررت إلى إلغاء الموعد. وغضب شوكي.

ـ شوكي؟!

ـ شكري. أنا أسمّيه شوكي.

ـ حسناً! بوسعك إسترضاء شوكي فيما بعد. اجلسي. هل تشربين شيئاً؟

جلست ترتشف الشمبانيا وتنظر إليّ، وأنا أحاول أن أتلمس طريقي إلى الموضوع. قلت:

ـ لولا! هذا موضوع حسّاس. وتحتاج معالجته إلى ذكاء ولباقة ومن الصعب. . .

قاطعتني:

ـ أنور! لا أستطيع أن أبقى هنا طويلاً. ما هو هذا الموضوع؟

ـ الموضوع يتعلّق بشكري.

ـ هل أخبرتك أننا على وشك الزواج؟ هل أخبرتك أني لم أعرف السعادة، قبل أن ألتقي به؟ لم أر رجلاً في حياتي يشبهه رقة وعذوبة ووفاء...

ـ الوفاء، يا لولا، خصلة معدومة. وأنا، كما تعرفين، أتحدّث من موقع المطّلع. الرجل الذي يعرف كلّ شيء.

ـ إذا كانت الخيانة هي القاعدة فشكري هو الإستثناء.

ـ لا! لا يوجد رجل مُستثنى من القاعدة. أنتِ الآن تسهّلين عليّ العملية. أقام شكري مؤخّراً علاقة مع فتاة...

قاطعتني بشدّة:

ـ لا أصدّق! لا أصدّق!

ـ وهذه الفتاة تحمل ڤيروس مرض خطير...

ـ لا أصدّق! لا أصدّق!

ـ ومن الممكن أن يكون المرض قد انتقل إليه..

ـ لا أصدّق! لا أصدّق!

ـ ومن الممكن أن تنتقل العدوى إليك. أو ربّما انتقلت.

صمتت لولا. ثم نظرت إلي غاضبة، وقالت بصوت عال:

ـ أنور! أنور! لم أكن أصدّق أن بوسعك أن تنحدر إلى هذا المستوى. أعرف أنك لا تزال تحبّني. وأعرف أنك تتمنى أن تعود علاقتنا بعد الطلاق من رافع. ولكني لم أتصور أن...

قاطعتها بحزم:

ـ لولا! اسمعي! شعوري نحوك، كائناً ما كان، ليس له علاقة بما أقوله لك. أنا أحذّرك. قد تموتين! هل تسمعينني؟ قد تموتين! أنا أتكلّم عن الإيدز.

ـ الإيدز؟!

ـ نعم.

ـ شكري نام مع فتاة مصابة بالإيدز؟

ـ نعم.

ـ وكيف عرفت؟

ـ أخشى أن قسم أبوقراط يمنعني من الإفصاح بالمزيد.

ـ هل تتعالج هذه الفتاة عندك؟

ـ لولا! لا أستطيع الإجابة.

نظرت إليّ لولا باحتقار، وقالت وكأنها تبصق:

ـ أنا أكرهك! أنا أكرهك!

وخرجت.

الثلاثاء

بدأتُ اليوم بجلسة مع الممثّل المسرحي الشهير. لم يُخطىء رافع رفعت عندما قال إني طبيب النجوم. ولم يخطىء في تحليل السبب. البريطانيون يثقون في الطبيب الأجنبي الغريب. الذي لا يعرفه أصدقاؤهم ولا يعرف أعداءهم. والعربستانيون يثقون في الطبيب البريطاني، العربستاني سابقاً. الذي لا يدين المريض أخلاقياً. ويستمع بلا أحكام مُسبَقة.

مشكلة الممثل المسرحي هي الخوف من المسرح. كل مرّة يقف فيها على المسرح يشعر بكل أعراض القلق المعروفة. تتسارع نبضات القلب. يجفّ اللسان. تبرد اليد. يشعر أنه على وشك الإغماء. يشعر أنه سوف يعمل عملاً جنونياً. يحطّم شيئاً. أو ينزع ثيابه. أو يموت. بدأ العلاج قبل ٣ شهور. وبدأتُ بالمشكلة نفسها. لم أطلب منه أن يتحدّث عن طفولته. أنا لا أضيع كثيراً من وقتي مع الطفولة. ولا مع عقد فرويد. كان فرويد عبقرياً في زمنه ولكن الزمن يتجاوز كل العباقرة. كلّهم! نبّهنا فرويد إلى أشياء هامة مثل العقل الباطن ولغة الأحلام، وانتهت الحفلة. الأساطير الإغريقية التي جاء بها لا تعدو أن تكون أساطير. إدانة بعض الممارسات الجنسية لا تعدو أن تكون صدى التابو الجنسي الموجود في أيامه. أنا أحاول أن أتحدث مع مرضاي عن الحاضر. أبحث مشاكلهم الراهنة. ماذا سأجد في طفولة المريض؟ ماذا سأجد في أيّ طفولة؟ القصص المعتادة التي لا تتغير عبر الدنيا، ولم تتغير عبر التاريخ. هنا أب قاس. هناك أمّ فظّة. هنا أيتام. هناك زوجة أب. هنا أسرة سعيدة. هناك أسرة شقية. هنا تحرّش جنسي. هناك إغتصاب. لو أن كل طفولة تشوبها الشوائب أنتجتْ مرضى نفسيين لما كان في العالم إنسان سويّ واحد.

قلت للممثل المشهور:

ـ مستر هامر سمث! ألم تقرأ الكتاب الذي أعطيتك إياه؟ لم يوجد ممثّل مسرحي عبر التاريخ، ممثّل واحد، واجه الجمهور دون أن يحس برهبة. الخوف من المسرح ظاهرة معروفة، جرّبها كل من تعامل مع الجمهور.

ـ ولكن الأمر، يا دكتور مختار، يزداد سوءاً. في البداية، كانت هناك لحظة قلق عند دخولي المسرح. دقيقة من القلق. دقائق من القلق. وتمر الأزمة. ويعود كل شيء إلى طبيعته. أما الآن فالقلق يبدأ قبل أن أصل إلى المسرح. لا يكاد القلق يفارقني، قبل المسرحية وأثناءها وبعدها. ألا ترى أن الأمر يزداد خطورة؟

ـ لا توجد خطورة. توجد أعراض مزعجة بوسعنا أن نتعامل معها. متى بدأت الأعراض تزداد؟

ـ قبل ٣ أسابيع تقريباً.

ـ ولكنك شعرت بتحسّن بعد أن بدأنا العلاج.

ـ شعرت بتحسّنْ كبير. ثم حدثتْ انتكاسة.

ـ لا بُدّ أن نبحث عن سبب الإنتكاسة. لن نجد السبب على خشبة المسرح.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أعني أننا يجب أن نعرف ما حدث في حياتك وأدّى إلى الانتكاسة.

ـ لم تطرأ تغييرات كبيرة.

ـ ليس من الضروري أن تكون التغييرات كبيرة. يكفي أن تسبّب لك الانزعاج.

ـ لم يحدث شيء سبّب لي انزعاجاً.

ـ حاول أن تتذكّر ما حدث في تلك الفترة. مهما كان الأمر تافهاً، أو صغيراً.

ـ لا أستطيع أن أتذكّر شيئاً مُحدّداً.

ـ لا تستعجلْ. خُذ ما شئت من الوقت في التفكير.

ساد الغرفة صمت استمر عدة دقائق ثم قال هامر سمث:

ـ الشيء الوحيد الذي أتذكّره هو انفصالي عن مارجريت في تلك الأيام.

ـ من هي مارجريت؟

ـ صديقتي.

ـ لم تحدّثني عنها من قبل.

ـ لم تسألني عن صديقات. ولم أر من الضروري أن أزجّ بها في الحديث.

ـ تستطيع أن تحدثني عنها الآن.

- هي قصة طويلة، يا دكتور، ومملّة.

- وظيفتي الإستماع إلى القصص الطويلة المملّة.

- بدأتْ القصة حين كنا في المدرسة الابتدائية. تستطيع أن تعتبرها قصة حب منذ الطفولة...

كانت القصة طويلة، وانتهتْ الجلسة دون أن نتجاوز مراحلها الأولى. لِمَ العجلة؟ طلبتُ من الممثل المسرحي أن يحاول كتابة القصة. الكتابة، أحياناً، تساعد على تركيز الأفكار وأحياناً تؤدّي إلى بعثرتها.

بعد خروج هامر سمث جاءت بستان أزهر الصحفية العربستانية المعروفة. بستان! إسم غريب بعض الشيء. إلاّ إنه اسمها الحقيقي. كنت أعرف والدها معرفة شخصية وثيقة وأعرف أنه سمّاها، بالفعل، بستان. هذه الصلة العائلية هي التي قادت بستان إليّ. وهي التي تجعلني أعالجها بلا مقابل. هل ورد شيء عن العلاج المجّاني في قسم أبوقراط؟ بستان في الثلاثين، أو أكثر قليلاً، وهي تعتز بثقافتها الواسعة قدر اعتزازها بجمالها الساحر. مشكلة بستان بسيطة للغاية. أعني أن وصفها بسيط للغاية. المسلك الجديد الذي يتعارض مع القيم القديمة. سرّ الاضطراب النفسي عند معظم المرضى النفسيين. الصدمة الحضارية. التغيير السريع في المجتمعات. العولمة. الغزو الثقافي. كيف تستطيع البنت الشرقية التي حُفر في مخّها أنها لزوجها أو للقبر أن تتعامل مع حرية جنسية بلا حدود؟ هذه قصة بستان. هذه مأساة بستان. لا تستطيع أن تزيل القيم القديمة ولا تستطيع أن تضحّي بالحرية الجديدة، حرية الكتابة، وحرية الحركة، وحرية الكلام، وحرية الحب. والنتيجة؟ النتيجة أنها تجد نفسها في ورطة بعد ورطة. وأنا أستمع إليها. والحديث عن ورطاتها يساعدها على تلمّس المشكلة. هذا كل ما يستطيع الطبيب النفساني، أيّ طبيب نفساني، عمله: أن يساعد المريض على تفهّم المواقف التي تواجهه.

آخر ورطة هي غرامها المشتعل مع رئيس التحرير المشهور سفيان نعيم. وأين الورطة؟ الورطة أن رئيس التحرير في عمر أبيها. وأنه متزوج. ولا يشاركها الغرام المشتعل. رئيس التحرير يستمتع بالجسد الجميل وبالعقل الذكيّ. وبستان، لو استعملت عقلها الذكيّ، لأدركت طبيعة العلاقة. إلا أنها تتعامل مع الموقف بمشاعرها، ومشاعرها أبعد ما تكون عن العقلانية. مشاعرها أقنعتها أن الحب بينها وبين الكهل المتزوج حب متبادل.

نفثت بستان دخان سيجارتها وقالت:

ـ ليته يملك الجرأة على أن يفعل ما يريد فعله. لو كان شجاعاً لانتهت المشكلة. مشكلتي، ومشكلته.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنه يريد تطليق زوجته، ويريد أن يتزوّجني، ولكنه لا يملك الشجاعة اللازمة لتنفيذ القرار.

ـ كيف عرفت أنه يريد تطليق زوجته ويريد أن يتزوّجك؟

ـ غريزة الأنثى.

ـ غريزة الأنثى، كغريزة الرجل، لا يمكن الركون إليها في غياب الأدلة والقرائن. هل قال لك أنه يكره زوجته؟

ـ لا.

ـ هل قال لك أنه ينوي تطليقها؟

ـ لا.

ـ هل قال أنه يتمنّى لو تزوّجك؟

ـ لا.

ـ إذن، كيف عرفت؟

ـ قلت لك. غريزة الأنثى.

ـ من أقوى الغرائز، عند الأنثى والذكر، تصديق ما يرغب الواحد مِنّا تصديقه.

ـ هل تعتقد أني أكذب عليك؟

ـ لا. أعتقد أنك تنقلين الأحداث بأمانة، ولكنك تعطينها التفسير الذي يلائمك.

ـ ألا تظنّ أنه يحبّني ويريد أن يتزوّجني؟

ـ لا أعرف. ولكني أعرف أنه لا يوجد ما يمنعه من الطلاق والزواج لو أراد.

ـ قلت لك إنه لا يملك الشجاعة الكافية.

ـ أو الرغبة الكافية. الرغبة القوية تُولّد، في العادة، الشجاعة الكافية.

ـ إذنْ، لماذا يستمرّ في العلاقة؟

ـ بستان! كل رجل له عينان يتمنّى لو كانت له علاقة بك.

ـ عمّو أنور! عمّو أنور!

ـ حتّى عمّو أنور!

ـ تقصد أنه. . .

ـ بستان! لا أستطيع أن أعرف دوافعه. لم أبحث معه الموضوع. لماذا لا تحدّثينني عن دوافعك أنت؟ ماذا تريدين من العلاقة؟

ـ ماذا تريد أيّ امرأة إذا أحبّت رجلاً؟

ـ لا يوجد جواب واحد. هناك أجوبة بقدر النساء.

ـ أعتقد أن كل امرأة تودّ الزواج من الرجل الذي تحبّ.

ـ هذا تعميم غير دقيق. المرأة التي تريد الزواج فعلاً لا تحبّ رجلاً متزوّجاً.

ـ عمّو أنور! هل الحب قرار بيد الإنسان؟ هل يستطيع الإنسان أن يدخل الحب بإرادته، ويخرج من الحب بإرادته؟

ـ بستان! أنت امرأة ذكيّة قويّة الشخصية. لا تقولي لي، رجاءً، إنك لا تعرفين ما تفعلينه. لا تقولي لي إن قوة مجهولة خفيّة دفعتك دفعاً إلى بدء العلاقة، وتدفعك الآن إلى إبقائها.

ـ هل تعتقد أنني تعمّدت تعقيد حياتي بالإرتباط برجل متزوّج؟

ـ رجل متزوّج وفي سن أبيك.

ـ سنّ أبي! سنّ أبي! ألن تنتهي هذه الأسطوانة؟

ـ هذه ليست أسطوانة. هذه حقيقة بيولوجية تعرفينها أنت، ويعرفها هو، ويعرفها كل الناس.

ـ عمّو أنور! لا تنقلب فرويدياً الآن! لا تقل إني أعشق فيه المرحوم أبي. لا تقل لي إن غرائزي الجنسية المكبوتة نحو أبي وجدت المتنفّس أخيراً في رجل في سن أبي.

ـ لم أكن أنوي أن أقول لك شيئاً من ذلك. عقدة أوديب مجرّد أسطورة. لا داعي للتنقيب في أعماق الطفولة. رئيس التحرير شخصية جذّابة جداً وله علاقات نسائية. . . .

ـ أرجوك عمّو أنور! أرجوك! لا تصدّق هذه الإشاعات السخيفة عنه.

ـ لم أكن لأصدّقها لولا أنه هو الذي يتباهى بها.

ـ كان هذا قبل أن يعرفني.

ـ ربّما. المهم أن إعجاب امرأة به أمر مفهوم. ألم تسمعي بالكاريزما الجنسية؟

هذه توجد عند الرجال كما توجد عند النساء.

ـ لم يكن الأمر مجرّد إعجاب. أو مجرّد كاريزما. أحببته منذ اللحظة الأولى. أحببته حباً صامتاً عنيفاً استمر عدة شهور. وكنت أعتقد أنه حب من جانبي وحدي. حتّى فاجأني ذات يوم بطلب اللقاء. وتبيّن أن الحبّ كان متبادلاً.

ـ لا توجد مفاجآت في العلاقات الإنسانية. لا بُدّ أنك خلال تلك الفترة أرسلت له من الرسائل ما شجّعه على طلب اللقاء.

ـ رسائل؟ لم أكتب له حرفاً واحداً.

ـ لا أقصد الرسائل المكتوبة. أقصد الرسائل التي توجّهها الأنثى، أيّ أنثى، إلى الرجل، أيّ رجل، إذا أرادت أن تشعره أنها مهتمة به.

ـ صدّقني أني كنت أبذل جهدي لإخفاء مشاعري.

ـ ألا تعتقدين أن إخفاء المشاعر، في حد ذاته، قد يكون هو الرسالة؟ البوح الصامت.

ـ عمّو أنور! هل أصبحت شاعراً؟

ـ آه! كنت شاعراً ذات يوم. لمدة شهر واحد. في المدرسة الابتدائية. فلنعدْ إلى صاحبنا. أعجبت به وأحببته، وطلب هو أن يراك. ما الذي يجعلك تظنين أن الأمر، في حالته، يتعدّى الشهوة الجنسية؟

ـ ألم تقل أنت بنفسك أن لديه علاقات كثيرة. لم يكن بحاجة إلى علاقة جديدة.

ـ كلما زاد العدد كلما زاد المرح، كما يقول المثل الإنجليزي.

ـ هل تعني أني مجرد واحدة ضمن أخريات، مجرد جسد؟

ـ أعني أنه لا يمكن أن نحكم بأن كل رجل ينام مع امرأة يحبّها ويريد أن يتزوّجها.

ـ ولا نستطيع أن ننفي ذلك.

ـ هذا صحيح. الأفضل أن تبقى الخيارات مفتوحة. ربّما كان يحبّك، وربما كان يبحث عن وقت ممتع معك.

ـ علاقتنا، الآن، عمرها سنة ونصف. لو كان الأمر مجرد صبوة عابرة لانتهت.

ـ لا يوجد للصبوات العابرة، وأنا أحبّ هذا التعبير، عمر معروف مُحدّد.

ـ ولكني متأكدة أنه يحبّني. عمّو أنور! متأكدة! لو رأيت نظراته. لو سمعت كلماته. لو. . .

ـ بستان! ألا تذكرين من كتاب المطالعة قصة الصيّاد الذي يذبح العصافير وعينه تدمع؟ لا تنظري إلى دمع عينيه. بل انظري إلى فعل يديه.

ـ إذا كنت تحاول أن تقنعني بأن العلاقة من طرف واحد فلن أقتنع. أبداً! أبداً! أبداً!

ـ أنا لا أحاول أن أقنعك بشيء. أحاول أن أساعدك على معرفة الصورة الكاملة. الصورة الحقيقية. لا أودّ أن تُصابي بإحباط إذا اكتشفت أنه لا ينوي تطليق زوجته ولا ينوي الزواج بك.

ـ هل أصبحت تقرأ المستقبل؟

ـ لا! بوسعك مراجعة صديقي بصير العارف إذا أردت قراءة المستقبل. أنا من أنصار الحاضر. إذا جدّت في المستقبل تطورات يمكن التعامل معها في وقتها.

ـ عمّو أنور! أنت لست امرأة. المرأة تعرف هذه الأمور. تعرفها بحاستها. أنا متأكدة، تماماً، أن العلاقة التي تربطه بي أعمق. . .

لا تستطيع بستان أن تتعايش مع المسلك الجديد، التحرّر الجنسي، إلا إذا ربطته بالقيم القديمة. المرأة لزوجها، أو للرجل الذي سوف يصبح زوجها. ذهبت بستان وهي تقسم أن الدونجوان الكهل يحبّها. سوف نستأنف الحديث في الأسبوع القادم، والذي يليه، والذي يليه، ولن تقتنع. لن تقتنع إلا إذا رأت الدونجوان الكهل بعينيها مع امرأة أخرى، صحفية أخرى على الأرجح. لم يكن من حقي، ولا من واجبي، أن أقول لبستان إني رأيت الدونجوان الكهل بعينيّ مع امرأة أخرى قبل بضعة أيام. كان يتناول الغداء معها في مطعم صغير. أردت تجاهلهما إلا أنه سلّم علي بحرارة، قبّلني في الواقع، وأصرّ على تقديمي إلى صديقته. القاضي لا يقضي بعلمه، ولا الطبيب النفساني.

كان الموعد الثالث والأخير (أنا أحرص على ألا تتجاوز المواعيد ثلاثة في اليوم) مع المحامي النجم. بطل قضايا التشهير. الذي يتقاضى مقابل بعض القضايا مليون جنيه. بدأ المحامي، بعد وصوله سن الخمسين، يشعر بتأنيب الضمير. آه! سن الخمسين! سنّ الغرائب! سنّ صحوة الضمير أو موت الضمير. سن قدوم الشيخوخة أو عودة المراهقة. سن الزوجة الجديدة أو العشيقة القديمة. لا يعرف المحامي، بطبيعة الحال، سبب مشكلته. هو يعاني الكآبة ولا يعرف مبرراً للكآبة.

أحواله المادية ممتازة. أحواله الزوجية ممتازة. علاقته مع أولاده ممتازة. وضعه الصحي ممتاز. وضعه السياسي متميز (منحته الملكة قبل سنتين لقب سير). ومع ذلك يشعر بكآبة تزداد يوماً بعد يوم. كان يستعين بأقراص مضادّة للكآبة بدأت بمرور الوقت، تفقد، ككل الأقراص، مفعولها. أرسله طبيبه إليّ. ومنذ الشهر الأول اتضح لي أن المسلك الجديد، قضايا التشهير التي يتولاّها، يتعارض مع القيم القديمة المحفورة في أعماقه، قيم العدالة والحق والخير. حلقة مفرغة! مزيد من القضايا، ومزيد من المال، ومزيد من الكآبة، ومزيد من القضايا. أرجو أن أتمكن من مساعدته على معرفة الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكآبة: التقاعد. لا بُدّ أن يكون القرار قراره، ولا بُدّ أن يتوصّل إليه بنفسه. الطبيب النفساني الذي ينصح محامياً شهيراً دخلُه عدة ملايين من الجنيهات في السنة بالتقاعد، سرعان ما يجد نفسه في مصحّة نفسية. وأنا لا أنوي دخول مصحة نفسية الآن. فيما بعد، ربّما! ليس الآن.

ضحك السير نيجل، وقال:

ـ كيف حالك يا دكتور مختار؟

ـ كما هو متوقّع. كما هو متوقّع. كيف حالك أنت؟

ـ أسوأ مما هو متوقّع.

ـ قرأت في الجريدة أنك كسبت هذا الأسبوع قضية كبرى.

ـ لا أودّ الحديث عن هذه القضيّة.

ـ سير نيجل! لا بُدّ أن نتحدّث عن هذه القضية.

ـ لا أودّ أن أتحدّث عن هذه القضية. سوف نتحدث عن قضية أخرى إذا أردت.

ـ حسناً فلنتحدث عن قضية أخرى.

أنا أعرف، تماماً، لماذا لا يريد السير نيجل أن يتحدث عن القضية الكبرى. كان يمثّل صحيفة من صحف الفضائح سبق أن نشرت خبراً كاذباً يسيء إلى سمعة لاعب كرة شهير. وأقام اللاعب دعوى ضد الصحيفة. واستعانت الصحيفة بالسير نيجل الذي استطاع أن يحرج اللاعب في قاعة المحكمة. جعله يبدو أمام المحلّفين كما لو كان معتوهاً. أثاره بأسئلة خبيثة ملتوية. وأصدر المحلفون حكماً ببراءة الصحيفة. وهي أبعد ما تكون عن البراءة. ونشرت الصحف صورة اللاعب وبقربه زوجته وهي تبكي. خسر اللاعب كل ما يملك في هذه القضية. والسير

نيجل لا يودّ أن يبحث القضية. لأنه لا يودّ أن يعرف أن دموع الزوجة هي التي تسبّب له الكآبة. السير نيجل يودّ أن يحدثني عن قضية أخرى خاضها دفاعاً عن مظلوم بريء، حسناً! لم العجلة؟ فلنتحدثْ عن قضية أخرى.

الأربعاء

قضيت اليوم، بأكمله، في جامعة لوبستر. كنت أحضر ندوة علمية موضوعها: «الجنس بين الحيوانات والبشر: نحو تفهّم أفضل». لم أكن لأضيع وقتي في مؤتمر كهذا لولا أن مريضاً من مرضايَ انتحر بعد أن ماتت كلبته التي كانت تشاركه الفراش. كانت من فصيلة «لاسي» وكانت، فعلاً، تشاركه الفراش. لا بُدّ في عالم الحرية الجنسية المتصاعدة أن يكون الطبيب مُلمّاً بكل نشاط جنسي، حتى النشاط البشري/الحيواني.

بدأتْ الندوة ببحث أخصائي قام به فريق من جامعة ستاندرد. اسمه «بعد كينزي: الصورة الجديدة». بإختصار، يقول البحث إن أرقام الباحث الجنسي الرائد كينزي عن الإتصالات الجنسية بين البشر والحيوانات كانت بعيدة عن الدقة. يقول البحث إن هذه الإتصالات أكثر، أضعافاً مضاعفة، من النسب الضئيلة التي ذكرها الباحث. ويضيف البحث أن هذه الاتصالات لم تقتصر، كما توهم الباحث الشهير، على الشباب المراهقين في المناطق الريفية والزراعية. أصبحت المدن الكبرى، طبقاً للبحث الجديد، هي المكان الرئيسي الذي تدور فيه هذه الممارسات. وإنتهى البحث إلى أنه من كل ألف شخص يعيشون في مدينة غربية كبرى هناك واحد، على الأقل، جرّب مرّة واحدة على الأقل، نوعاً من أنواع الممارسة الجنسية البشرية/الحيوانية.

وكان البحث الثاني عن «انتقال العدوى الجنسية بين البشر والحيوانات». المزيد من الأخبار السيئة. حالات العدوى أكثر بكثير مما كان متوقعاً. وكان البحث الثالث بعنوان «القانون والجنس البشري/الحيواني». دعا البحث إلى تغيير القوانين الجامدة التي لم تتغير منذ قرون وتشريع قوانين «أكثر تفهّماً». التفهم، على أية حال، مطلوب في كل الظروف والأحوال. كان أطرف جزء في البحث الجزء الذي يتعلق «بكيفية تحديد الرضا بالعلاقة الجنسية عند الطرف الحيواني». المزيد من الغرائب! عندما انتهى اليوم كنت أنظر إلى كل حيوان أراه في الطريق بكثير من الحذر. حتى كلبتي الصغيرة، بامبي، التي استقبلتني عند دخولي بترحابها المعهود لم تجد مني سوى الفتور. من يدري ما يدور في بال كلبة؟ كيف أضمن أن

ترحيبها لا يتضمّن عنصر الرضا؟!

في المنزل وجدت ابنتي لوسي مُكبّة على كتاب من كتب يونج. لوسي تدرس علم النفس وتنوي أن تصبح طبيبة نفسانية. عقدة أوديب؟! ولوسي، كالعادة، تودّ أن تبحث معي موضوع علاقتي مع أمها. لعلّها تتصور أنها تستطيع البدء في ممارسة المهنة الآن. قالت:

ـ تحدّثت مع أمي اليوم. تبلّغك تحياتها. قالت إنها لن تأتي في الأسبوع القادم.

ـ لوسي! سبق أن أخبرتك عدّة مرات أن أمّك وأنا اتفقنا على أن تقضي ٤ شهور في البرازيل. لن تعود في الأسبوع القادم. ستعود بعد شهرين.

ـ ولكني لا أفهم...

ـ ولا تستطيعين أن تفهمي في هذه السنّ. ستفهمين عندما تكبرين.

ـ لا تنسَ أني أستطيع فهم النظريات النفسية المعقّدة.

ـ أنا لا أتحدّث عن نظرية نفسية. أتحدّث عن علاقة بشرية. لا توجد علاقتان بشريتان متماثلتان. العلاقة بيني وبين أمك تمرّ بمرحلة حرجة.

ـ أليس الحلّ أن تجلسا وتتحدّثا بصراحة؟ أليس هذا ما تنصح به مرضاك؟ أن يواجهوا المشاكل بدلاً من الهروب منها؟

ـ لم يهرب أحد من المشكلة. ناقشناها ألف مرّة. بمنتهى الصراحة. لم يبق إلاّ اتخاذ القرار. هل يتحول الزواج إلى مجرد ترتيب مريح، أو ينتهي كلّية.

ـ ولكنكما تحبّان...

ـ لوسي! الموضوع ليس له علاقة بالحب. الزواج فقد سحره وإذا...

ـ طبيب نفساني يتحدّث عن السحر؟! «طبيب فودو»؟

ـ أنت تعرفين ما أقصد. بوسعنا أن نستمرّ في زواج بلا سحر. وبوسعنا أن نبحث عن سحر بلا زواج. هذا قرار رئيسي لا ينبغي لأحد أن يتخذه على عجل. نحتاج، أمك وأنا، إلى مهلة للمزيد من التفكير. سوف نصل إلى القرار الصحيح. صدّقيني!

ـ القرار الصحيح هو أن تعودا إلى العيش معاً وبالسحر القديم.

ـ آه! لوسي! هل تؤمنين الآن بسانتا كلوز؟ هل تستطيعين، الآن، أن تصدّقي أنه ينزل من المدخنة ويترك هداياه تحت الشجرة ثم يعود إلى القطب؟

هذا هو السحر! هل تستطيعين إعادته إلى حياتك؟

ـ أنا لم أفقد إيماني بسانتا كلوز لحظة واحدة.

ـ وأنا أعتقد أن البابا بروتستانتي.

ضحكت لوسي وعادت إلى كتابها.

وجدتُ في جهاز استقبال الرسائل عدة مكالمات، معظمها من أصدقاء، ومعظمها روتينية. إلا أن بعضها كان يطلب، بإلحاح، أن أتصل فور استلام الرسالة. بدأت بلولا. وجاء صوتها مختنقاً بالشهقات:

ـ أنور! أنور! أعتذر لك! أعتذر بحرارة! أرجو أن تغفر لي. إعترفَ الوغد القذر.

ـ لولا! اهدأي! ماذا حدث؟

ـ واجهت الوغد القذر بخيانته وتردّد في البداية. ثم اعترف. قال إنها نزوة جسدية عابرة لا تعني شيئاً. تصوّر! كنت أحبه، كنت على وشك الزواج به، وهو يمارس نزوات جسدية عابرة. هل تعرف يا أنور ما سأفعله؟ سوف أنتحر! هذا هو الحل الوحيد.

قلت بقلق متزايد:

ـ لولا! لولا! اهدأي! اتركي عنك هذا الكلام الصبياني. دعينا نتقابل ونتحدث.

ـ لا أريد أن أصبح مريضة نفسية.

ـ لايوجد ما يدعو إلى أن تصبحي مريضة نفسية. سوف نتقابل كأصدقاء. من الضروري أن أطمئن على صحّتك.

ـ صحّتي؟! فقدت الحب الأكبر في حياتي وأنت تتحدّث عن صحّتي؟!

ـ حسناً! سوف نتحدث عن الحب الأكبر في حياتك إذا شئت. المهمّ أن أراك.

ـ سوف أفكّر في الموضوع

ـ عديني ألاّ تفعلي شيئاً أحمق.

ـ لن أفعل شيئاً إلا بعد مشورتك.

ـ ومتى أراك؟

ـ سوف أتصل بك قريباً.

ـ عديني!

ـ أعدك!

رددتُ المكالمة الثانية وانطلق صوت رافع:

ـ أنور! أنور! اشتقت إليك. لم أرك منذ مدة. هل سمعت الأخبار؟ أخبار مدهشة! لولا وشكري. تركته. انفصلت عنه. طردته طرد الكلاب. والسبب؟ هل تعرف السبب؟ واجهته بخيانته. واعترف المغفّل. الحمار! هل يوجد عاقل يعترف بمغامرة جنسية؟ أسألك، يا أنور، هل يوجد عاقل يفعل ذلك؟ هل اعترفت أنت بمغامرة جنسية في حياتك كلها؟ المهم أن المغفل اعترف. وانفصلا. يبقى السؤال: من الذي أخبر لولا؟ سؤال لا أستطيع أن أجيب عليه. مستحيل أن تكون أنت مصدر الخبر. مستحيل! قسم أبو سقراط! لا أدري كيف عَرفتْ. المهمّ أنها عرفت. تأكد، يا أنور، أني لا أشكّ فيك. أثق فيك أكثر مما أثق في نفسي. والآن أعرف أنك تتساءل كيف أستطيع قتل لولا وشكري عن طريق الإيدز. أعرف أنك تتساءل. وأعرف أنك تستغرب. صديقك. صديق العمر، رافع رفعت! يقتل أحداً؟ هل هذا معقول؟ هل تسجّل المكالمات، يا أنور، كما يسجّلها القذر صاحب «صوت الجريمة»؟ ولو سجّلتها ماذا ستفعل بها؟ المكالمات يسري عليها قسم أبو سقراط. أليس كذلك؟ بالتأكيد! أكّد لي ذلك العقرب بنفسه. يبقى التساؤل: هل من المعقول أن أقتل زوجتي السابقة وعشيقها؟ ربّما! ولكن كيف نعرف؟ كيف نتأكد؟ فترة الحضانة. أليس هذا هو التعبير الذي تستعملونه معشر الأطباء؟ حضانة الڤيروس تستغرق بضعة شهور، من ثلاثة إلى سنة. هذا ما قاله لي الأخصائيون. بعد ٦ شهور تتضح الحقيقة. هل كنت أمزح؟ هل أرسلت حسناء معافاة وزعمت أنها مريضة؟ هل تعتقد أنت أني كنت أمزح؟ المهم أن لولا انفصلت عن شكري. والاثنان مصابان، الآن، بالقلق. والقلق، بدوره، قد يقتل. آه! والثالث! نسيت الكلب صاحب «صوت الجريمة»! سيموت بدوره. لا! لا! كنت، بالتأكيد، أمزح. مجرد مقلب من مقالب رافع المشهورة. ولكن يجب أن تعترف، يا أنور، أن هناك احتمالاً قويّاً أنني لا أمزح، ليس من الصعب العثور على فتاة جميلة مصابة بالإيدز. هل أشرح لك الطريقة؟ لا! لا! لا أعتقد أنك تحتاج إلى خدمات كهذه. أنت طبيب نفساني متحضّر. أما أنا فمجرد بليونير همجي. يؤمن بالإنتقام. ويؤمن بالمقالب. لا بد أن تنتظر ٦ شهور حتى تعرف. حتى نعرف جميعاً. وفي هذه الأثناء لا تنس قسم أبو سقراط. أراك قريباً! مع السلامة!

هذا السادي المخبول الخطر! أقسم أنه لو ظهرت أعراض المرض على لولا فسوف أخبر البوليس بما حدث. وليذهب أبوقراط وقسمه إلى الجحيم!

كانت المكالمة الثالثة مع نجمة النجوم. نيران! ملكة الإغراء السينمائي والتيلفزيوني في الأمة العربستانية. الممثلة الأشهر، والأشهى. نيران تجيء من عاصمتها مرة كل ٤ شهور وتقضي معي يوماً كاملاً. وما هي مشكلة نيران؟ المشكلة المعتادة. السلوك الجديد الذي يتعارض مع القيم القديمة. والسلوك الجديد هو سلوك أي نجمة في أي مكان في العالم. الأصدقاء. العشاق. المنتجون. المخرجون. الهدايا الثمينة. الثروة. والقيم القديمة هي قيم العائلة الفقيرة. الفقيرة جداً. من قيم هذه العائلة الفقيرة جداً أن الفقراء يبقون، على الدوام، فقراء. وإذا إغتنوا فإن الغنى لن يدوم. سيذهب فجأة كما جاء فجأة. بضربة عين. أو بعمل سحري. أو بمؤامرة حقيرة. يتطاير كل شيء وتعود الفتاة الفقيرة إلى بؤسها. نيران لا تصدّق، على المستوى العاطفي، أنها تعيش حياة فعلية. تعتقد أنها تحيا في حلم مؤقت. حلم الثروة. حلم الشهرة. حلم الرجال. وتعتقد أن الحلم سيذهب فجأة. بفعل السحر، على الأغلب. تقضي في كل زيارة للندن يوماً كاملاً معي تبحث مخاوفها. ويوماً كاملاً مع صديقي بصير، الفلكي الروحاني، يحبطان أعمال السحر. جاء صوتها المثير:

ـ دكتور! آسفة! قدمت، هذه المرّة، بدون موعد. هناك مشكلة عاجلة. عاجلة جداً. أريد أن أراك بأقرب وقت ممكن. الليلة!

ـ نيران! الليلة؟! أنا على وشك النوم.

ـ إذن، غداً.

ـ لا أستطيع أن أراك في الصباح.

ـ إذن، بعد الظهر. أرجوك يا دكتور. المشكلة عاجلة سوف أجيء في الثانية.

ـ تعالي في الثالثة.

قبل أن أنام كانت صورة نيران تملأ حواسي كلها. الجسد المتفجّر. الوجه الصبوح. الصوت الشهواني. شعرت بالرغبة تشتعل في جسمي، من رأسي إلى قدمي. عودة المراهق! وماذا عنك يا جدّنا أبوقراط؟ اسمع! ما رأيك في حلّ وسط؟. «ولن أغوي الرجال أو النساء أو الأحرار أو العبيد». أتعهّد بأني لن أغوي الرجال ولن أتعرّض للعبيد. ما رأيك؟! والنساء؟! حسناً لن أغوي النساء

ولكني لن أمنعهن من إغوائي. أليست هذه اتفاقية معقولة؟ تغيّر السلوك كثيراً منذ أيامك يا جدّنا العزيز ولا بد أن تتغير القيم القديمة بعض الشيء على الأقل. بعض الشيء.

الخميس

كان الموعد الأول مع رجل الأعمال الذي بدأ يدمن الكحول. لا أدري هل سيستمرّ رجل الأعمال في مراجعتي إذا عرف أني أستهلك نصف زجاجة من الكحول يومياً. لن أخبره ولكني سأجيبه لو سأل. أحاول تدريب رجل الأعمال على الإدمان المنظّم. الإدمان على الطريقة التشرشلية. كان تشرشل يستهلك من الكحول أكثر مما يستهلكه ٢٠ مدمناً، ولكن أحداً لم يتّهمه بالإدمان. لأن إدمانه كان منظّماً. وويلي براندت، المستشار الألماني الأسبق، كان يشرب زجاجة ونصف من البراندي كل يوم. كان اسمه بين العامة «براندي ويلي». ومع ذلك لم يسمح للإدمان بتدمير حياته. الإدمان المنظّم.

أقول لرجل الأعمال:

- اسمع يا مستر هاكسل! هناك طريقتان، لا ثالث لهما، للتعامل مع الإدمان. الطريقة الأولى هي أن تترك الكحول نهائياً. نهائياً! وفي هذه الحالة يمكنك أن تدخل مصحّاً متخصصاً حيث يتم تجفيفك كما يقولون. ٣ أسابيع من المهدّئات والمنوّمات والسبات العميق. ثم تخرج وتصبح «ولداً طيّباً».

- مشكلتي، يا دكتور، أني لا أستطيع أن أصبح «ولداً طيّباً».

- هذا ما توقّعته. لا بد أن أقول لك، بصراحة، إن الإحصائيات ضد «الولد الطيّب». تقول الإحصائيات إنه من كل حالات إدمان الكحول التي يتم علاجها في المصحّات، لا يتجاوز عدد «الأولاد الطيّبين» ١٠٪. بقية الحالات، ٩٠٪، تعود إلى الكحول. خذ كل ممثل شهير أدمن الخمر ودخل مصحّاً. الجميع عادوا إلى الشرب. والممثلات المدمنات.

- ماذا أفعل، إذن، يا دكتور مختار؟ لا أودّ أن يقضي الكحول عليّ. لا أود أن أنتهي وقد أصبحت موضع الرثاء والشفقة. لا أودّ أن تنهار الإمبراطورية التجارية التي بنيتها بالعرق والدموع عبر ٣٠ سنة.

- لا يوجد ما يحتّم ذلك يا مستر هاكسل. الخيار الثاني العملي هو أن تتعلم كيف تتعايش مع إدمانك. قال لي أبي، مرّة، وأنا مراهق: «الزجاجة لا تعرف

الحياد. إما أن تكون أنت سيّدها، أو تكون هي سيّدتك». وكان أبي على حق.

ـ قال لي أبي شيئاً مماثلاً.

ـ كان أبوك على حق.

ـ ولكن ما العمل؟ كي يستطيع الإنسان أن يمنع تحوّل الخادمة إلى سيّدة؟

ـ آه! بدأنا نصل إلى صلب الموضوع. تحتاج العملية إلى قدر من الانضباط. قدر معقول. لا يُقارن بالانضباط الخارق الذي تتطلّبه عملية الترك الكامل.

ـ وكيف يستطيع الإنسان الحصول على هذا القدر من الانضباط؟

ـ الانضباط، كمعظم الأشياء، عادة تجيء مع المران. دعني، أوّلاً، أوضّح لك الفرق بين الإدمان وبين الإفراط في الشرب. الناس لا يقولون عن الذي يفرط في الشرب أنه مدمن إلا مع ظهور ٣ مؤشرات...

ـ كنت أعتقد، يا دكتور، أن كل من يفرط في الشرب هو، بالضرورة، مدمن.

ـ قد يكون مدمناً، وقد لا يكون. فلنأخذ المؤشّرات الثلاثة. المؤشّر الأول يتعلّق بالعمل. المدمن يتغيّب عن عمله يومين أو ثلاثة في الأسبوع، وقد يتغيّب أكثر. وإذا لم يكن مثلك، صاحب الشركة التي يعمل فيها، فسرعان ما يؤدّي غيابه المتكرّر إلى فصله. إذا كان المدمن صاحب مهنة حرّة فسرعان ما يجد نفسه بلا زبائن. من يثق في جرّاح مخمور؟ ومن يستطيع التعامل مع محام يدخل المحكمة وهو سكران؟ القاعدة الذهبية الأولى هي: لا تسمح للزجاجة أن تتدخل على أي نحو، أيّ نحو، في عملك. أنجز عملك أولاً، ثم اشرب كما تشاء.

ـ أنا أحاول أن أفعل ذلك ولكني لا أفلح دائماً. أحياناً أجد رغبة عارمة في أن أشرب في الصباح.

ـ لا تقاوم الرغبة. أجّلها. أجّلها إلى أن ينتهي العمل. والمؤشر الثاني على الإدمان هو تدهور العلاقة الأسرية. عندما يبدأ المفرط في الشراب يضرب زوجته أو أولاده لك أن تستنتج أنه بدأ يدخل مرحلة الإدمان. القاعدة الذهبية الثانية هي: لا تسمح للزجاجة بأن تسمّم علاقتك مع أسرتك. إذا شعرت بظمأ شديد اذهب إلى مكان بعيد واشرب ولا تعد إلى أسرتك إلا بعد زوال الظمأ.

ـ الحقيقة، يا دكتور، أنني لم أجئك إلاّ بعد أن هدّدتني زوجتي بالطلاق.

ـ ناقوس خطر! ولكن يمكن تدارك الموقف. المؤشّر الثالث هو تدهور العلاقات الاجتماعية. عندما يبدأ الناس يتحاشون دعوتك. عندما يبدأ الأصدقاء يعتذرون عن...

ذهب المستر هاكسل وعلى وجهه علامات الإرتياح. لا أدري هل سينجح في التحكّم في إدمانه إلاّ أن إمكانيات النجاح معي أفضل من إمكانيات النجاح في المصحّ. لا بُدّ أن أتعامل مع مرضاي بأمانة. كان بوسعي أن أجلس معه شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة نتحدث عن العقد المترسّبة التي تدفعه إلى الإدمان. أيّ عقد؟! أثبت العلم، على وجه يكاد يكون قاطعاً، أن الإدمان له علاقة وطيدة بالجينات الموروثة وليس له علاقة مؤكّدة بالعقد النفسية. كثير من المعقدين نفسياً لا يشربون، وكثير من الذين يشربون لا يعانون أيّ عقد نفسية.

جاء المريض الثاني، الأسقف. مشكلة الأسقف أنه يحبّ رجلاً أصغر منه، فتًى إذا أردنا الدقة. كانت للأسقف في الماضي علاقات من هذا النوع استطاع إخفاءها. إلاّ أنه، الآن، يرى أنه خدع نفسه، وخدع الآخرين بما فيه الكفاية، ويودّ الوصول إلى قرار حاسم. الأسقف رجل واسع الثقافة، ولا أرى مبرّراً للف والدوران معه. قلت:

- مشكلتك هي المشكلة التقليدية: اصطدام السلوك الجديد بالقيم القديمة. لن أحاول أن أضيّع وقتك أو وقتي. لا حلّ إلا بالتخلّي عن المسلك أو التخلّي عن القيم.

- كيف أستطيع أن أتخلّى عن الحب الحقيقي الوحيد في حياتي؟

- أنا لا أعرف ما هو الحب الحقيقي الوحيد في حياتك. إذا كانت الكنيسة هي الحب فلا بُدّ أن تكون لقيم الكنيسة الأولوية. إذا كان الحب الآخر هو الحب الحقيقي فيجب أن تكون له الأولوية. لا أستطيع أن أتخذ القرار نيابة عنك. لا يستطيع أحد أن يتخذ القرار نيابة عنك. هذا قرارك وحدك.

- ولكن يا دكتور. . .

خرج الأسقف واجماً حزيناً. وجاءت المريضة الثالثة، الأرملة غير الطروب. لا توجد أي مشاكل من أي نوع لدى هذه المليونيرة شبه الشابة شبه الحسناء سوى الملل. والملل هو الذي يقودها إلى نشاطات اجتماعية وخيرية عديدة. وهو الذي يقودها إلى عيادتي. وأنا لا أفعل شيئاً سوى الاستماع، وإبداء الكثير من التعاطف. بدأت الليدي كيدنج، كالعادة، بمسائل الصحة:

- صحّتي، يا دكتور مختار، صحتي آخذة في التدهور. هل تصدّق أني فقدت ٣ أرطال هذا الأسبوع؟ بدأت أفقد شهيّتي تماماً. لا آكل إلا بصعوبة. وهناك موضوع الإمساك. هذه مشكلة تتفاقم يوماً بعد يوم. لم يعد أي عقار يفيد. ولا

أقراص النخالة. عندما يجتمع الإمساك والبواسير تصبح الحالة مأساوية. وهناك مشكلة النوم. أصحو ٣ مرات في الليلة. على الأقل. هل هذا وضع طبيعي يا دكتور؟ لا تقل لي إن هذا وضع طبيعي. كنت أنام كالأطفال أما الآن فأتقلّب على الفراش طيلة الليل. وأنا لا أود استخدام الأقراص المنومة. هناك خطر الإدمان، أليس كذلك يا دكتور؟ ثم الحساسية! يا ربّاه! يا ربّاه! الحساسية، هذه الأيام، تقتلني قتلاً. أقول لك تقتلني قتلاً. انظر إلى عينيّ. انظر إلى أنفي. لا أستطيع أن أتنفّس. لا أستطيع أن أتكلم إلا بصعوبة. ألا تلاحظ أن صوتي متحشرج؟ وبعد هذا كله هناك التهاب المفاصل...

أشدتُ بشجاعة الأرملة الأرستقراطية في وجه هذه الكوارث الطبيّة، وانتقلتْ إلى موضوعها المفضل الثاني، الخدم:

ـ هل تعرف أن الوصيفة تركت الخدمة هذا الأسبوع؟ تركت الخدمة، فجأة، وبلا إنذار. وقد كنت أعاملها كما أعامل ابنتي. أعاملها برقّة لا يتصوّرها أحد. تركتني، بغتة، بلا إنذار. لا بد أنها وجدت رجلاً أغراها بترك الخدمة، رجلاً سيحتال عليها ويأخذ منها كل ما جمعته خلال عملها معي. وعندها، ماذا ستفعل؟ ستعود إليّ. وتبكي. وتعتذر. تطلب أن أعيدها إلى الخدمة. ولكني لن أعيدها. عاملتها كما أعامل إبنة ولم تقدّر موقفي. بوسعها أن تعمل في مكان آخر. ولكنني لن أمدّ إليها اليد التي عضّتها. وفي اليوم نفسه يجيئني السائق ويقول إن ظروفه تضطره إلى ترك العمل. أيّ ظروف؟ ألا تعتقد أنه أغرى الوصيفة بترك العمل ليحصل على مدّخراتها؟ أنا واثقة من ذلك. كان خطأً منّي أن أوظّفه، خطأً جسيماً. كان يجب أن أعرف أن شعره الطويل وبنطلونه الضيق وتصرفات «الجيكلو» علامات خطر. أدفع الآن ثمن خطأي. ذهب بلا إنذار. هل انتهت مشاكلي مع هؤلاء الناس؟ الطباخ بعث لي رسالة يطلب فيها زيادة راتبه. وماذا يعمل الطبّاخ؟ سبق أن قلت لك أني فقدت شهيتي...

هنّأتُ الأرملة على تماسكها في وجه الخيانات المتوالية والخدم السيئين وأوصيتها بالحذر مستقبلاً عند تعيين خدم جدد. وانتقلتْ إلى موضوعها المفضل الثالث، الصاحبات والأصحاب:

ـ لا أدري ماذا حصل للذوق هذه الأيام. ماذا حصل للذوق يا دكتور؟ إختفى نهائياً من حياة الناس. لم يعد هناك جنتلمان واحد، ولم تعد هناك ليدي واحدة. تصوّر! أدعو مجموعة من الصديقات والأصدقاء للشاي وتجيء واحدة ترتدي

فستاناً أقرب ما يكون إلى المايوه. تصوّر! وهي في الستّين! تصوّر! لولا الحياء لطلبت منها أن تصعد إلى غرفتي وتختار روباً تغطي به عريها. تظاهرتُ أني لم ألاحظ شيئاً. والأسوأ منها عشيقها. جاء وهو يرتدي «تي شيرت». تصوّر! «تي شيرت» عليه صورة مطرب «روك أند رول». تصوّر! رجل عجوز يرتدي قميصاً من قمصان المراهقين. أقول لك إن الذوق لم يعد له وجود. والأدهى من ذلك تلك الضيفة التي أبدتْ استياءها لأنها لم تجد ساندوتشات خيار. تصوّر! ضيفة عندي وتحاسبني على...

أكّدت للأرملة الأرستقراطية أنني أتفق معها، تماماً، في رأيها عن إنقراض الذوق. وطلبت منها التحلّي بالحلم في عالم يموج بالسفلة والسافلات. وأعطيتها دواءً جديداً للإمساك. خرجت وهي تضحك. طبيب نفساني يعطي دواءً للإمساك؟! لم لا؟ عندما يتحوّل الإمساك إلى مشكلة نفسية لا بُدّ أن يجيء العلاج من الطبيب النفساني.

قررت أن أتحدّث تيلفونياً مع صديقي الفلكي الروحاني قبل أن تجيء نيران. تعوّدنا، أنا وهو، على تبادل المعلومات حول الزبائن المشتركين. قلت:

- سلامات يا دكتور بصير.

(الحقيقة أنه ليس دكتوراً، ولكنه يصرّ على اللقب).

- أهلاً دكتور أنور. اشتقنا لك.

- ونحن كذلك. هل زارتك نيران؟

- نعم.

- وما هي المشكلة هذه المرّة؟

- المشكلة، هذه المرة، جنّي.

- جنّي؟!

- جنّي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّ جنّياً يتقمّص ممثلتنا الجميلة.

- وهل نجحت في إخراجه؟

- لا أزال أحاول. بهذه المناسبة يا أنور هل بوسعك أن ترى هيذر؟

- صديقتك؟

ـ نعم.

ـ ما هي مشكلتها؟

ـ من الأفضل أن تروي لك المشكلة بنفسها. أنا أعتقد أنها في حاجة إلى طبيب نفساني.

ـ حسناً! سوف أراها.

ـ متى؟

ـ سأطلب من السكرتيرة أن تراجع مواعيدي وتتّصل بها. وسوف أراها في أقرب فرصة.

ـ في أقرب وقت ممكن.

ـ حسناً! سأحاول أن أراها غداً.

جاءت نيران. وُفّق الذي اختار لها هذا الاسم الفنّي (اسمها الأصلي دُرّية، ولكن هذه قصة أخرى). كل شيء في نيران يلتهب ويحرق. لو لم أكن أعرف أنها في السادسة والثلاثين لاعتقدت أنها في السادسة والعشرين. أو السادسة عشرة. رغم السهر. رغم أضواء الأستديو. رغم أنها لا تمارس أيّ نوع من أنواع الرياضة. يبدو جسدها مشدوداً كما لو كانت بطلة من بطلات الجري. هناك أشخاص يُولدون بموهبة الجمال، وموهبة الشباب الدائم. وهناك أطفال يولدون وهم كهول. سرّ لا يستطيع العلم فهمه، ولا أحاول أنا فهمه. أنا أعترف بعجزي عن فهم كثير من الأشياء التي تغصّ بها الأرض. آخذ الأشياء كما أراها. استلقتْ نيران على الأريكة وبدأت تدخن وهي صامتة. أنهتْ السيجارة الأولى، وأشعلت الثانية، وبدأت تتكلّم:

ـ آسفة على إزعاجك يا دكتور. كان من الضروري أن أراك. تصوّر أن خطيبي قطع علاقته بي. وكنا على وشك الزواج.

ـ هذه ليست مشكلة. سوف تجدين خطيباً آخر.

ـ ولكنني أحبّه يا دكتور. أحبه حبّاً جنونياً.

ـ نيران! أنت تقولين هذا عن كل خطيب جديد.

ـ ولكن هذا خطيب لقطة. لقطة يا دكتور! صاحب شركة كبرى. وسيم. وهو فوق ذلك. . .

قاطعتها:

ـ نيران! متى تفهمين أنك أنت العروس اللقطة وأن بوسعك اختيار أي رجل تريدينه؟

ـ دكتور! أنت تجاملني. أنت تعرف أن هذه ليست حقيقة. انظر إليّ! انظر إليّ! بدأت أترهّل. من سيعجب بامرأة عجوز؟

ـ هناك، على الأقل، معجب واحد مضمون.

ـ من هو يا دكتور؟

ضحكت ولم أجب، وقالت:

ـ أنت تجاملني مرّة أخرى. أشكرك علي أيّ حال. يجب أن تعرف يا دكتور أني لا أستطيع أن أستمرّ في فقد خطيب بعد خطيب بعد خطيب.

ـ القرار كان قرارك. أنتِ التي تخلّصتِ منهم واحداً بعد الآخر.

ـ أنت واهم، يا دكتور. صدّقني! صدّقني! كلّما أُعجبت بإنسان وتوثّقت العلاقة بيننا حدث شيء عجيب. شيء خارج عن إرادتي. فجأة، ألاحظ أنه بدأ يكرهني. فجأة، ألاحظ...

ـ وأنت تعتقدين أن هذا بسبب السحر؟

ـ هل هناك تفسير آخر؟ عندما يعشقك رجل اليوم ويجيء في الغد وهو لا يطيق مشاهدتك، هل هناك تفسير آخر؟ وعندما تتفقان في المساء على الزواج وتضعان الخطط المفصّلة، ويجيء في الصباح ويقول إن ظروفه تمنعه من الزواج، هل هناك تفسير آخر؟

ـ هناك ألف تفسير وتفسير.

ـ كيف؟

ـ رُبّما كان صادقاً. أحياناً، تذهب السكرة وتأتي الفكرة. ألم تسمعي عن كلام الليل الذي يمحوه النهار؟ ربما لاحظ أنك لم تكوني جادة عند الكلام عن الزواج. ورُبّما...

قاطعتني:

ـ وربّما كان هناك سحر جعله يكرهني. هل تعرف تأثير السحر؟ ينظر المسحور إلى وجه المرأة الجميلة فيرى وجه قرد. قرد حقيقي! شمبانزي! هذا ما أكّده لي العارفون. تصوّر أن يتحوّل وجهي إلى وجه قرد. وجهي أنا!

لم أتمالك نفسي من الضحك. عادة سيئة جداً أن يضحك الطبيب من أي شيء

يقوله المريض ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر، مع احترامي لكل السحرة في التاريخ، أن يتحوّل وجه نيران إلى وجه قرد.

اندفعت نيران:

ـ أنت تضحك! تضحك! لن تضحك لو حدث لك هذا الشيء. هل تتحدّاني؟ هل تريد أن أعمل لك عملاً يجعلك ترى وجه زوجتك وقد تحول إلى وجه قرد؟

ـ فكرة رائعة، يا نيران. أنا لا أكره القرود. وقد حضرت هذا الأسبوع مؤتمراً عن العلاقات الجنسية بين البشر والحيوانات.

ـ الحيوانات؟ الحيوانات! هؤلاء الغربيون كلهم حيوانات.

ـ ولهذا، رُبّما، لا ينتج السحر مفعولاً في الغرب. لو رأى الواحد من هؤلاء وجه صاحبته وقد تحوّل إلى وجه قرد فقد يزداد حبّه لها.

ـ دكتور! لا تمزح! أنا أعاني من مشكلة حقيقية. أنا أحتاج إلى مساعدتك. عندما ذهب سمسم...

ـ عفواً؟ سمسم؟!

ـ آه! حسام! خطيبي الذي كنت أحدّثك عنه. عندما ذهب ضاقت الدنيا في وجهي. فكرت جدّياً في الانتحار. هل تعرف ماذا حدث في الليلة التي تركني فيها؟

ـ ماذا حدث؟

ـ كنّا معاً. أنت تعرف أنه كان خطيبي وكنّا على وشك الزواج وكنّا معاً. أنت تفهم ما أعنيه؟

ـ بطبيعة الحال. تعتبران في حكم المتزوجين.

ـ تماماً! تماماً! وفجأة، شعرت بأني لم أعد مع رجل واحد. فجأة شعرت في داخلي بأشياء... لا أستطيع أن أصف شعوري. لن تصدقني على أية حال.

ـ نيران! أنا أصدّق كل شيء.

ـ حسناً! حسناً! سوف أتكلم معك بصراحة. كان هناك رجل آخر، جنّي في داخلي. هل ستضحك؟

ـ لن أضحك.

ـ هل تصدّقني؟

- أكملي.
- كان هناك جنّي في داخلي. شعرت به في داخلي. هل تفهم المقصود؟
- أفهم المقصود.
- وشعر به سمسم أيضاً. أعني حسام. هنا المأساة! شعر حسام بالجنّي وبدأ يصرخ فجأة. يصرخ بأعلى صوته. ترك ملابسه وانطلق عريان إلى الشارع. هل تصدّقني؟
- ولم لا أصدقك؟
- وبعد خروجه سمعت صوت ضحك في الغرفة. لم أرَ شيئاً ولكني سمعت صوت ضحك. ثم سمعت صوت همس في أذني. هل تصدّقني، يا دكتور؟
- أصدّقك. تحدث أشياء أغرب من الضحك والهمس.
- وهل تعرف ما قاله... ما قاله..
- الجنّي؟
- الجني.
- ماذا قال؟
- قال: «سوف أذهب الآن. وأعود إذا رأيتك مع رجل غيري. وأقطع...». لا أستطيع أن أقول الكلمة، يا دكتور. أنت تعرف ماذا كان يقصد.
- مقصده واضح جداً. سوف يقضي على رجولة الرجل الذي يراه معك.
- تماماً! تماماً! هل تعرف معنى هذا، يا دكتور؟ معنى هذا أني لن أتزوج أبداً. أبداً! سوف أبور. سوف أصبح عانساً. سوف يجيء الجني كلما اقترب منّي رجل ويقطع... أنت تفهم ما أقصد. ماذا أفعل؟ لا وسيلة سوى الإنتحار.
- نيران! هل استمتعت بوجود الجنّي؟
- دكتور! دكتور! ما هذا السؤال؟
- حسناً؟!
- كانت تجربة مختلفة تماماً عن... عن...
- عن الجنس مع البشر؟
- نعم.
- نيران! هل تودّين عودة الجنّي؟
- دكتور! دكتور! كيف تسألني سؤالاً كهذا؟ أودّ أن أتزوّج وأنجب قبل فوات

الأوان. ماذا أفعل بجنّي؟

ـ نيران! ربما كان الجنّي يمزح معك. فعلها مرّة واحدة ولا ينوي أن يعود.

ـ ولكن ماذا لو عاد؟

ـ نيران؟ هل حدث بينك وبين رجل آخر. . .

ـ دكتور! دكتور! كيف تسألني سؤالاً كهذا؟ حدث ما حدث في الأسبوع الماضي. وكان حسام خطيبي. هل تتوقع مني أن أكون. . .

ـ لن نعرف إذا كان الجني صادقاً في تهديده إلاّ بالتجربة.

ـ تعني؟ تعني. . .

ـ نيران! الساعة، الآن، الخامسة. وأنا أنهي عملي في العيادة في الخامسة تماماً.

ـ ولكني يا دكتور سوف أسافر غداً. لا بُدّ أن تجد لي حلاً على الفور.

ـ ما رأيك في أن نستأنف الحديث في مكان آخر؟

ـ أين؟

ـ في العيادة الملحقة.

ـ وأين العيادة الملحقة؟

ـ العيادة الملحقة شقّة مريحة فوق هذه العيادة. فلننتقل إليها، ونواصل الحديث.

خرجتْ نيران من العيادة الملحقة بعد منتصف الليل. أجرينا تجربة عملية ولم يجيء الجنّي. أو ربّما جاء ولم ينفّذ تهديده. لم أر، من قبل، أنثى تتصرّف في الفراش على هذا النحو. لعلّ الجني يقيم في داخلها بصورة دائمة وينشط عند الحاجة. المهمّ أنها خرجت مقتنعة أن الجنّي كان يمزح معها. وأن بوسعها أن تبحث عن خطيب جديد بلا خوف. آه يا جدّنا أبوقراط! كان هذا جزءاً من العلاج، جزءاً ضرورياً جدّاً. الطب النفسي نوع فريد من أنواع الطبّ. لا بُدّ أن تلجأ إلى كل وسيلة إذا كنت تعتقد أنها ستفيد. وأنا لم أغوها يا جدّنا أبوقراط. أقسم بك! والحقّ أنها لم تغوني. الحقّ أن الجني هو الذي فعل كل شيء. يجب أن تفهم يا جدّنا أبوقراط أن نيران، ابنة الأسرة الفقيرة جداً المحافظة جداً، لا تستطيع ممارسة الجنس مع رجل إلا إذا أقنعت نفسها أنه خطيبها أو. . . أو. . . أو. . . إذا كان الجنس الوسيلة الوحيدة للعلاج.

كان المريض الأول صحفياً بريطانياً مشهوراً ـ يبدو أن هذا أسبوع الصحافة! ـ يتخصّص في الكتابة عن الفضائح. وبدأ يشكو من الأرق مؤخراً. أراد أن يتحدث عن طفولته. كل المرضى يودّون الحديث عن طفولتهم. إرث فرويد القاتل! دهش صحفي الفضائح عندما أخبرته أني لا أبدأ الحديث مع أيّ مريض عن أيّ موضوع إلاّ بعد فحص طبي شامل في مركز طبّي متقدّم. حاول التهرب. قال إنه يجري فحوصاً بانتظام. تمسكت بموقفي. لم يقتنع إلاّ عندما شرحت له أن الفحص الطبي الشامل كثيراً ما يكشف عن وجود سبب عضوي لمشكلة المريض. وهذا الإكتشاف يوفّر على المريض وعليّ الكثير من العناء. وأضفت أن الأرق الذي يشكو منه قد يكون نتيجة مرض جسماني لا علاقة له بالعقل الباطن أو الطفولة أو اللاشعور. أرسلته إلى مركز متخصّص أتعامل معه، وأخبرته أني سوف أحدّد له موعداً بمجردّ أن أستلم التقرير من المركز.

وكانت المريضة الثانية بروفسورة في الخمسين وقعت في غرام طالب من طلبتها لم يبلغ العشرين. لم يحدث شيء بينهما بعد، ولكنها تحسّ أن الشيء على وشك الحدوث. منذ أكثر من ٥ شهور وهي تزورني لتتحدّث عن هذا الشيء. إنطباعي الشخصي أن هذا الشيء لن يحدث أبداً. إنطباعي الأكيد أن الحب الجارف الذي يعصف بحياتها هو حب من جانب واحد. بدلاً من أن تتأقلم البروفسورة مع الخمسين هربت إلى حبّ في العشرين. حسناً! أعتقد أننا بحاجة إلى ٥ شهور أخرى قبل أن تتفهم حقيقة الموقف. وحتّى ذلك الحين، فإن من واجبي أن أصغي بإنتباه كامل إلى البروفسورة وهي تتحدّث، بفصاحة منقطعة النظير، عن إتصال جنسي لم يحدث، وليس من المتوقّع أن يحدث، وعن عذاب الضمير الذي يسبّبه لها.

وكان المريض الثالث صديقي سفيان نعيم، رئيس التحرير الأشيب. ألم أقل إن هذا أسبوع الصحافة؟ سفيان نعيم صاحب بستان. تردّدت قبل أن أعطيه موعداً، ولكني قرّرت أن الوسيلة المثلى هي أن أقابله وأشرح له بنفسي، وفي العيادة، لماذا يتعذّر علي أن أقبله ضمن مرضاي. . بدأ، فور دخوله، الحديث عن مشكلة زوجية خطيرة. وأردف أنه لا يشكو أيّ مرض نفسي ولكنه يريد التشاور معي حول مشكلته الزوجية. قلت له إنه يسعدني جداً أن أقدّم له النصح، إلا أنني لا

أستطيع. أبدى شيئاً من الإستغراب. قلت له إن تقاليد المهنة تجعل من الصعب عليّ أن أعالج صديقاً. لا بُدّ من أن يكون هناك قدر من الحياد يستحيل أن يتوفّر عندما يكون المريض صديق الطبيب. أقنعته بصعوبة وأعطيته إسم زميل آخر متخصّص في المشاكل الزوجية. أرجو ألا تسمع بستان بمشكلة الأشيب الزوجية. لو سمعت لاعتقدت أنه على وشك تطليق زوجته، وتزوّجها هي. حقيقة الأمر، أنه حريص كل الحرص على إبقاء الزواج، وأن زوجته هي التي بدأتِ تتململ. أرجو أن يقول له زميلي ما لم أستطع أن أقوله أنا: إضراب مؤقت عن العشيقات كفيل بإعادة السلام إلى بيت الزوجية.

جاءت هيذر التي أصرّ بصير العارف ـ عفواً! الدكتور بصير العارف! ـ على أن أراها في أسرع فرصة. قلت لها:

ـ هيذر! لا يبدو أنك في حاجة إلى طبيب نفساني.

ـ أعتقد أنك على حق.

ـ إذن، لماذا طلبت رؤيتي؟ وبهذا الإصرار؟

ـ لم أطلب أنا. هو الذي طلب.

ـ حسناً! ولماذا طلب هو؟

ـ لأنه يعتقد أني بدأت أتوهّم أشياء. بدأت أفقد عقلي.

ـ جميعنا نتوهّم أشياء ولا نفقد عقولنا.

ـ ولكنني لم أتوهّم شيئاً.

ـ حسناً! ما هي المشكلة؟

ـ المشكلة، يا أنور، أن صديقك بدأ يجنّ.

ـ بصير؟!

ـ بصير.

ـ كيف؟

ـ أنت تعرف أن عملنا بأكمله يقوم على جمع المعلومات، وعلى الفراسة، وعلى بعض الحيل البريئة، وعلى بيع الأمل للناس، وعلى...

ـ أعتقد أن لديّ فكرة جيدة عن طبيعة عملكم.

ـ مؤخّراً بدأ بصير يصدّق أنه روحاني وأنه يستطيع أن يتعامل مع أشخاص من عوالم أخرى.

ـ أنت تمزحين؟
ـ لا أمزح.
ـ بصير؟ أنا أعرف أن بصير يضحك في أعماقه على الزبائن الذين يرتّب لقاءهم بالأرواح.
ـ صحيح. إلا أن الأمور تغيّرت مؤخّراً.
ـ ماذا تقصدين؟
ـ بدأ يؤمن إيماناً راسخاً أنه يستطيع الإتصال بالجنّ، وبجنّي واحد، بالذات، يقول إنه أصبح من أعزّ أصدقائه.
ـ بصير يصادق جنّياً؟!
ـ هذا ما يقوله.
ـ وماذا فعلت أنت؟
ـ قلت له، بصراحة، إنه بدأ يفقد صوابه.
ـ وماذا كان ردّ فعله؟
ـ أرسلني إليك. قال إني مصابة بالبارانويا. قال إن صداقته مع الجني لم تؤثّر على قواه العقلية.
ـ هيذر! لنفترض أنه صادق. ما الذي يزعجك من هذه العلاقة؟
ـ لم يعد ينام معي منذ وصول الجني.
ـ آه!
ـ إلا أن هذا ليس مُهمّاً. أعني أن هذا لا يخيفني. بدأ يقضي ساعات طويلة بمفرده مع الجنّي. لم يعد يقدم نصيحة لأحد الزبائن إلا بعد استشارة الجنّي. إذا استمر الوضع فسوف ينتهي صديقك في مستشفى الأمراض العقلية.
ـ أعتقد أنك مصيبة.
ـ وماذا يمكننا أن نفعل لنتفادى ذلك؟
ـ القاعدة الذهبية في الطب النفسي هي أنه لا جدوى من محاولة العلاج ما لم يعترف المريض أن لديه مشكلة وما لم يطلب بنفسه العلاج.
ـ بصير لا يعترف بوجود أيّ مشكلة.
ـ إذن، لن أستطيع مساعدته.
ـ أنور! هذا صديقك! كيف تتركه ينحدر إلى الجنون؟

- لا أستطيع مساعدته ما لم يكن راغباً في مساعدة نفسه.

- وماذا أفعل أنا؟

- حاولي أن تقنعيه بزيارة طبيب نفساني، غيري. من الصعب عليه، وعليّ، أن يعترف لي بمشكلة. قد يكون الأمر أسهل مع طبيب آخر.

- وإذا رفض؟

- لا يكون أمامنا إلاّ أن نصبر... ونصلّي.

قضيت المساء في منزل صديقي شاهر نتّاش. كالعادة، كانت هناك حفلة صاخبة. وكالعادة، كانت هناك تشكيلة غريبة من الضيوف. كنت أحاول الإستماع إلى المطرب العربستاني عندما هجم عليّ شكري ياسر هجوماً صاعقاً، وأخذني إلى زاوية بعيدة، وبدأ يتحدث:

- أنور! اشتقت لك. لم أرك منذ مدة. اسمع! لديّ قصّة ممتعة. أنت طبيب نفساني وتحبّ القصص الممتعة. هل تودّ الاستماع إلى قصّتي؟ أنا واثق أنك ستستمتع بها. فلنسمّها قصة البليونيريْن، البليونير رقم ١، والبليونير رقم ٢. البليونير رقم ١، يحبّ اختطاف الأشياء من الناس، من كل الناس، وخاصة من البليونير رقم ٢. عادة كريهة جداً! كان البليونير رقم ٢ على وشك شراء فندق «ستار» - أنت تعرف فندق «ستار»؟! - عندما جاء البليونير رقم ١ كالحدأة واختطف الصفقة. بطرق ملتوية. بطرق غير شريفة. بطبيعة الحال، انزعج البليونير رقم ٢...

في هذه الأثناء، اقتربت فتاة شقراء جميلة منا، وقاطعت شكري:

- شكري! أليس هذا أنور مختار؟ الكاتب الشهير؟

ردّ شكري، الذي أزعجه أن تُقطع قصته على هذا النحو، بخشونة:

- نعم! هو بعينه! أنور! أقدّم لك جيسكا.

انطلقت جيسكا:

- دكتور مختار! كم أنا سعيدة بمقابلتك. لا تتصوّر مدى إعجابي بكتبك. خصوصاً «طبيب الڤودو». لا تتصور...

قاطعها شكري:

- جيسكا! لديّ الآن حديث مهمّ مع الدكتور. اذهبي والعبي بعيداً. بوسعك أن تعبّري له عن إعجابك في وقت آخر.

نظرت جيسكا إلي وهي تقول:

ـ حسناً! حسناً! هل من الممكن أن أحصل على بطاقتك يا دكتور؟ هل تسمح لي أن أتصل بك؟

ذهبت الشقراء الحسناء بعد أن أخذت مني البطاقة والإذن بالاتصال عندما تشاء، وعاود شكري قصته:

ـ كنت أقول لك إن البليونير رقم ١ خطف، بدون وجه حق، صفقة هامة من البليونير رقم ٢. إلاّ أن البليونير رقم ٢ قرّر أن ينتقم من البليونير رقم ١. عادة كريهة، عادة الانتقام. قرّر أن يأخذ من البليونير رقم ١ أثمن ما لديه. أثمن ما لديه على الإطلاق. وأثمن ما لديه زوجته الحسناء الشابة. لم يكن الأمر صعباً. بقليل من الدهاء، أقام البليونير رقم ٢ علاقة مع زوجة البليونير رقم ١. وكان البليونير رقم ٢ حريصاً على أن يعرف البليونير رقم ١ أن زوجته خانته. ووصلت المعلومة إلى البليونير رقم ١ وجَنّ جنونه. إلى هذا الحدّ والأمور طبيعية. خطف بخطف. واحدة بواحدة. زوجة بفندق. إلا أن المسألة تعقّدت عندما بدأت زوجة البليونير رقم ١ تطالب البليونير رقم ٢ بالزواج. أصيبت بحالة مزعجة من العشق المكثف. لم يكن هذا ضمن الخطة. كان لا بُدّ من حل يريح البليونير رقم ٢ من الزوجة التي أصبحت عبئاً عليه بعد أن حققت هدف الإنتقام. وجاء المخرج بلا تخطيط. كان البليونير رقم ٢ في مكتبه عندما زارته فتاة جميلة تعمل متطوّعة لدى مستشفى للإيدز تطلبُ تبرعاً للمستشفى. البليونير رقم ٢ يعرف عقلية البليونير رقم ١. أعطى الفتاة تبرعاً ضخماً للمستشفى، ومبلغاً أضخم للفتاة مقابل إشتراكها في تنفيذ خطة جهنّمية. طلب منها أن تذهب إلى البليونير رقم ١ وترجوه أن يتبرع لمستشفى الإيدز، ثم تضيف أنها، شخصياً، مصابة بهذا المرض. بمجرّد أن عرف البليونير رقم ١ أن الفتاة مصابة بالإيدز تحركت لديه غريزة الانتقام وكلّفها بمهمّتين مُحدّدتين، مقابل مبلغ ضخم جداً. المهمّة الأولى أن تنام مع صحفي حاول إبتزازه. والمهمّة الثانية أن تنام مع البليونير رقم ٢. وبطريقة ما أخبر زوجته أن البليونير رقم ٢ ينام مع الفتاة. وقرّرتْ الزوجة أن تترك البليونير رقم ٢. وهكذا ارتاح الجميع. البليونير رقم ٢ انتقم بالفعل من البليونير رقم ١ الذي اعتقد أنه انتقم من البليونير رقم ٢. ولم يصب أحد بأيّ ضرر. وتوتة توتة خلصت الحدوتة. ما رأيك؟

قبل أن أجيب تركني شكري ياسر وانصرف وهو يقهقه بصوت عال. شعرت

أن عبئاً هائلاً قد أزيح عن صدري. لولا، إذن، غير مصابة بالمرض. والموضوع، إذن، مجرّد مداعبات بين بليونيْرين. ذهبت إلى أقرب تيلفون أكلم لولا وأطلب منها أن تزورني غداً مساء في العيادة الملحقة.

السبت

كعادتي كل سبت، خصّصت معظم اليوم للكتابة. جلبتْ الكتب لي من الشهرة، والمال، ما لم تجلبه العيادة. كان كتابي الأول بعنوان «القديم والجديد: إختر أحدهما». شرحت في الكتاب نظريتي التي كانت محور رسالة الدكتوراه. كثير من الاضطرابات النفسية تنشأ نتيجة إصطدام سلوك جديد بقيم قديمة. إذا تخلّينا عن السلوك الجديد أو القيم القديمة اختفى الإضطراب. أثار الكتاب ضجة، وتُرجم إلى عدد من اللغات. وكان كتابي الثاني بعنوان «طبيب الڤودو». هاجمت في الكتاب كلّ مفاهيم فرويد، كلّها تقريباً، وشبّهتها بطب الڤودو. فاق الكتاب الثاني سالفه في المبيعات، وأثار هزّة في الأوساط العلمية. لم يحقّق الكتاب الثالث نجاحاً يذكر لأن موضوعه لا يهم القارىء الغربي. اسم الكتاب «الغجر الجدد: العربستانيون في أوروبا» وموضوعه المشاكل النفسية التي يتعرّض لها العربستانيون المقيمون في أوروبا. حقّق الكتاب الرابع مبيعات هائلة جعلته، عبر عدة أسابيع، أكثر الكتب رواجاً في عدد من العواصم الأوروبية. اسم الكتاب «الجنس.. علاجاً» وموضوعه المشاكل النفسية العديدة التي يمكن أن تحلّها العلاقة الجنسية الصحّية. وأنا أعكف الآن على إعداد الكتاب الخامس. لم أختر الاسم بعد إلاّ أن الموضوع يتبلور يوماً بعد يوم. يتضمن الكتاب تعديلاً على النظرية الأصلية التي احتواها الكتاب الأول. يصعب، في كثير من الحالات، التخلّي عن القيم القديمة نهائياً، أو عن السلوك الجديد نهائياً. لا بُدّ، إذن، من البحث عن حل وسط يوائم بين السلوك والقيم. تنازل من الطرفين! أعتقد أني سوف أسمّي الكتاب «الحل الوسط».

في المساء جاءت لولا متألّقة. أخبرتها أنه لا خوف عليها من المرض. لم أستطع أن أخبرها بالتفاصيل. قسم أبوقراط! واحتفلنا معاً. واستمر الاحتفال فترة طويلة. ثم وجدنا أنفسنا، بلا قرار مسبق، معاً في الفراش. «الجنس.. علاجاً»!

كعادتنا كل أحد تناولنا معاً، لوسي وأنا، طعام الغداء. اختارت لوسي مطعماً جميلاً يطلّ على النهر. لم تثر لوسي، لحسن الحظ، موضوع أمها. كان الحديث، بأكمله، عن علم النفس. لوسي بدأت تعاملني معاملة زميل المهنة، الند للندّ. ولم لا؟ إذا كنت قد سمحت لنفسي أن أسمّي الأستاذ الأعظم «طبيب الفودو» فكيف لا أسمح لإبنتي أن تعترض على بعض نظرياتي؟ ستكتشف صحتها بمرور الزمن. لم العجلة؟

في المساء اضطررت إلى استقبال الشقراء الحسناء التي قابلتها في حفلة شاهر في منزلي. اتصلتْ عدّة مرات وقالت إنها يجب أن تراني فوراً. كان في صوتها شيء من الهستيريا. وكان في إلحاحها من نذر الخطر ما جعلني أتخلّى عن القاعدة التي التزمت بها طيلة حياتي المهنية، العلاج في العيادة لا في المنزل. جاءت جيسكا وهي شاحبة ظاهرة الاضطراب، واندفعت بلا مُقدّمات:

ـ كان لا بد أن أراك بأسرع وقت ممكن. وأقول لك الحقيقة بأسرع وقت ممكن. أعتقد أن شكري كان يروي لك قصّتي. كان من الواضح أنه يتحدّث عني. ووجدت من واجبي أن أخبرك. لا أدري لماذا أخبرك أنت بالذات. لديّ شعور أنك تستطيع أن تفعل شيئاً ما، أيّ شيء. لا بد أن تفعل شيئاً.

ـ جيسكا! إهدأي! اشرحي لي ما حدث. لم أفهم شيئاً من كلامك.

ـ حدث أني أخبرت رافع أني مصابة بالإيدز وأرسلني. . .

ـ أعرف القصة. وأرسلك إلى. . .

ـ حسناً! حسناً! أنت تعرف بعض الحقيقة. الحقيقة الكاملة التي لا تعرفها أنت ولا يعرفها شكري أنني، بالفعل، مصابة بفيروس الإيدز.

دارت الأرض بي دورة سريعة قصيرة، وهمست:

ـ جيسكا! جيسكا! ماذا تقولين؟

ـ أقول لك إني مصابة بالإيدز. كل التقارير تؤكّد ذلك.

لا أذكر كيف غادرت جيسكا. كلّ الذي أذكره أني قضيتُ الليلة، بأكملها، أنتقل من الفراش، حيث كنت أتصبّب عرقاً، إلى الحمام حيث كنت أستفرغ. . وأستفرغ. . وأستفرغ. لا شيء أسوأ من الموت بالإيدز. لا شيء!

٥

الفلكي الروحاني

يقولون: تأثير الكواكب في الورى
فما باله تأثيرُه في الكواكبِ؟!
المتنبّي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: بصراوي علوان معروف

اسم الشهرة: الدكتور بصير العارف

المهنة: فلكي روحاني

العمر: ٥٤ سنة

الثروة: ٢٣ مليون دولار

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: لندن ـ وأماكن أخرى من العالم.

المؤهلات الدراسية: بكالوريوس علم نفس ـ جامعة طارق بن زياد. ماجستير علم نفس ـ جامعة ليڤربول. دكتوراة في الروحانيات (مُزيّفة) من جامعة دِلْهي بورت (غير موجودة)

الحالة الاجتماعية: أعزب

الأولاد: بدون.

الاثنين

بدأت اليوم، كعادتي صباح كل اثنين، بكتابة مقالي الأسبوعي لمجلة «الرجل الجديد»، وقد اخترت له عنوان «البروج. . في دقائق»:

الحمل: ٢١ مارس ـ ٢٠ أبريل

أهم خصائص مواليد الحمل: النشاط. حب المغامرة. الطاقة الجنسية الزائدة.
أهم مشكلة في حياتهم: النزعة إلى المنافسة الشديدة، القاتلة أحياناً.
العيب الأساسي في شخصيتهم: الأنانية.

الثور: ٢١ أبريل ـ ٢٠ مايو

أهم خصائص مواليد الثور: الصبر. الدأب. الولاء.
أهمّ مشكلة في حياتهم: إثارتهم الملل في نفوس الآخرين.
العيب الأساسي في شخصيتهم: الإفتقار إلى الخيال والإبتكار.

الجوزاء: ٢١ مايو ـ ٢١ يونيو

أهم خصائص مواليد الجوزاء: الطموح. النشاط. القلق.
أهمّ مشكلة في حياتهم: ضعف البنية وما يصاحبه من أمراض.
العيب الأساسي في شخصيتهم: الإستخفاف بمشاعر الآخرين.

السرطان: ٢٢ يونيو ـ ٢٢ يوليو

أهم خصائص مواليد السرطان: الذكاء. الجاذبية. الدقّة.
أهمّ مشكلة في حياتهم: الحساسية المفرطة.

العيب الأساسي في شخصيتهم: الميل إلى الكآبة.

الأسد: ٢٣ يوليو ـ ٢٣ أغسطس

أهم خصائص مواليد الأسد: الشجاعة. حب السلطة. العناد.
المشكلة الكبرى في حياتهم: تهويل المشاكل وتضخيمها.
العيب الأساسي في شخصيتهم: الغرور.

العذراء: ٢٤ أغسطس ـ ٢٣ سبتمبر

أهم خصائص مواليد العذراء: المرونة. الروح العملية. التأقلم.
المشكلة الكبرى في حياتهم: صعوبة الإسترخاء.
العيب الأساسي في شخصيتهم: عدم صلاحيتهم لمواقع الرئاسة.

الميزان: ٢٤ سبتمبر ـ ٢٣ أكتوبر

أهم خصائص مواليد الميزان: الثقة بالنفس. الفطنة. المظهر الحسن.
المشكلة الكبرى في حياتهم: عجزهم عن فهم مشاعر الآخرين.
العيب الأساسي في شخصيتهم: العاطفية المفرطة.

العقرب: ٢٤ اكتوبر ـ ٢٣ نوفمبر

أهم خصائص مواليد العقرب: الحساسية. حب العمل. الوفاء.
المشكلة الكبرى في حياتهم: النزعة إلى الإدمان بأنواعه.
العيب الأساسي في شخصيتهم: عدم القدرة على الإعتراف بالخطأ.

القوس: ٢٤ نوفمبر ـ ٢١ ديسمبر

أهم خصائص مواليد القوس: حب الحرية. الحماسة. روح المغامرة.
المشكلة الكبرى في حياتهم: تسليم مصائرهم إلى شخصيات أقوى.
العيب الأساسي في شخصيتهم: إنعدام اللباقة.

الجدي ٢٢ ديسمبر ـ ٢٠ يناير

أهم خصائص مواليد الجدي: الطموح. الطاقة المتجددة. تحمّل المشاق.
المشكلة الكبرى في حياتهم: الحياء الشديد.

العيب الأساسي في شخصيتهم: الطمع.

الدلو: ٢١ يناير ـ ١٩ فبراير

أهم خصائص مواليد الدلو: قوة الشخصية. الإستقلالية. الثبات على المبدأ.

المشكلة الكبرى في حياتهم: إستخدام الآخرين لمصالحهم الخاصة.

العيب الأساسي في شخصيتهم: إنعدام المرونة.

الحوت: ٢٠ فبراير ـ ٢٠ مارس

أهم خصائص مواليد الحوت: الإبداع. المسالمة. المواهب الروحية.

أهم مشكلة في حياتهم: الحساسية المفرطة إزاء الآخرين.

العيب الأساسي في شخصيتهم: تقلّب المزاج المفاجىء.

حسناً! قرأت مئات الكتب (ورُبّما أكثر) عن الأبراج. وتفرّغت لدراستها سنة كاملة. وألّفت عنها ٤ كتب متداولة. ولا يمرّ بي يوم واحد دون أن أقرأ لزبون من زبائني برجه (بالكومبيتر ـ والنتيجة عشرات الصفحات). هل أؤمن، في قرارة نفسي، بالأبراج؟ هل أؤمن، حقاً حقاً، بما أقوله وأكتبه للآخرين؟ الجواب، بكل تأكيد، هو لا. الإعتقاد أن وضع الأجرام السماوية في لحظة الميلاد يؤثّر على حياة الوليد وهم لا يقوم على أساس علمي، رغم أنه وهم يعود إلى آلاف السنين. والجواب، بكل تأكيد، هو نعم. أؤمن بالأبراج وبتأثيرها الهائل، أكرّر الهائل، على حياة البشر. كيف؟ الإيحاء! ٩٠٪ من عملي يعتمد على الإيحاء. ينزع كل الناس، أكرّر كل الناس، إلى التصرّف بالطريقة التي يعتقدون أن برجهم يفرضها عليهم. مواليد برج الأسد ينزعون إلى السيطرة على الآخرين، ومواليد برج الحوت يبحثون عن هواية فنّية، ومواليد برج الثور لا يفقدون الأمل مهما كانت العقبات. لماذا؟ لأن هذه خصائص البرج، والبرج، في نظرهم، هو قدرهم المحتوم. قامت جامعة أوروبية قبل سنوات بدراسة إحصائية شملت ٥٠,٠٠٠ عيّنة. وجدت الدراسة، بوضوح، أن مواليد بعض الأبراج يكثرون في مهن معيّنة. كثير من الساسة من مواليد برج الأسد، وكثير من الممثلين من مواليد برج الحوت، وكثير من رجال الأعمال من مواليد برج الحمل. لماذا؟ الإيحاء! جميع زبائني بلا إستثناء، أكرّر بلا إستثناء، من المؤمنين بالأبراج. لو لم يوجد الإيمان بالأبراج لكنت، الآن، مجرّد محاضر فقير في جامعة عربستانية مغمورة.

زبوني الأول، هذا الصباح، لم يجيء لأقرأ برجه. جاء لأساعده في العودة إلى السلطة التي انتُزعتْ منه في انقلاب عسكري، كما سبق أن انتزعها هو في إنقلاب عسكري. قبل أن أتحدّث عن هذا الزبون لا بُدّ أن أقول إن الفضل في نجاحي يعود بنسبة ٥٠٪ إلى توافر المعلومات، المعلومات الدقيقة المُفصّلة، وبنسبة ٥٠٪ إلى مواهبي الروحية. هذه المواهب، التي تفتحت منذ كنت في العاشرة، ولا تزال تتفتّح، تشمل الفراسة وقراءة الأفكار وقراءة الكف والقدرة على مخاطبة القوى غير المنظورة. في مكتبي هنا معلومات عن الشخصيات العربستانية الهامة لا تضاهيها في دقّتها المعلومات المتوفّرة لدى أعظم جهاز مخابرات (ولا عند صديقي مسعود أسعد!). في قسم المعلومات هناك ١٥ موظفاً، ١١ منهم من عباقرة الجواسيس والباقون من عباقرة الكومبيتر. بفضل المعلومات التي يجلبها الجواسيس من المصادر المكشوفة والخفيّة (وكما هو الحال في أيّ جهاز مخابرات، الصحف والمجلات هي المصدر الأهم)، وبفضل فهرستها وتنظيمها في الكومبيتر، أصبح بوسعي أن أعرف في لحظات، أكرّر في لحظات، كلّ ما يمكن معرفته عن أي زبون محتمل (ولا بد لكي يكون الإنسان زبوناً محتملاً أن يكون غنيّاً جداً). لديّ في مركز المعلومات بيانات وافية عن ٥٠٠٠ شخص ـ وهذه القائمة تشمل كل إنسان في عربستان، أكرّر كل إنسان، يحتل مركزاً قيادياً في قمة السلطة، وكل إنسان في عربستان، أكرّر كل إنسان، تتجاوز ثروته ٢٠٠ مليون دولار. يمثّل هؤلاء السّادة والسيّدات السوق الذي أبيع فيه منتجاتي. وما هي منتجاتي؟ بإختصار شديد، أنا أتاجر في الأمل. أبيع الأمل للباحثين عن الأمل، ولكي أستطيع أن أمنح الإنسان أملاً لا بد أن أعرف كل شيء عنه. وأنا أتقاضى الكثير مقابل الأمل. ولم لا؟ معظم الذين يدفعون لي الكثير حصلوا على الكثير الكثير بلا مجهود. وأنا أعرف بالتفصيل، أكرّر، بالتفصيل، مشكلة الزبون المحترم الذي يشرّفني بالزيارة لأوّل مرة.

قمت أعانق الأدميرال وأنا أردّد:

ـ أهلاً بفخامة الرئيس. شرّفت مكتبي المتواضع. خطوة عزيزة يا فخامة الرئيس.

ابتسم الأدميرال وهو يتنهّد:

ـ الرئيس؟! كان ذلك في الماضي.

قلت على الفور:

ـ كان هذا في الماضي. وسوف يعود الماضي. أكرّر، يا فخامة الرئيس، سوف يعود الماضي. وسوف ترجع إلى الوطن بأسرع مما تتصوّر. كنت قبل قدوم فخامتكم أتأمل في البلّورة. موعد رجوعكم أقرب مما تتصور.

بدتْ على وجه الأدميرال علامات فرحة مشوبة بشيء من الدهشة، وواصلت الهجوم:

ـ ما هي إلا أسابيع قليلة، يا فخامة الرئيس، وتعود ظافراً مظفراً إلى وطنك الذي ينتظرك بفارغ الصبر.

ما الفرق بين ظافر ومُظفّر؟ لا أدري. ولا أعتقد أن الأدميرال يدري ولكني أدري أن التعبير سرّه. قلت:

ـ تعال معي، يا فخامة الرئيس، إلى غرفة البلّورة. وسوف ترى وتسمع كل شيء بنفسك.

صَمّمتُ غرفة البلورة كما صمّمَت كل شيء، أكرّر كل شيء، في المكتب بنفسي. غرفة البلورة مليئة بالمرايا. السقوف والجدران والأرضية، كلّها، مُغطاة بالمرايا. وهناك أنوار كاشفة مُخبأة. وهناك منافذ الغاز الخفيّة، الغاز المهدّىء للأعصاب. وليس في الغرفة من أثاث سوى طاولة، هي، بدورها، مرآة، وغير كرسيين. على الطاولة تُوجد أضخم بلّورة في العالم، وقد صمّمتها، خصيصاً، في ألمانيا. دخلت الغرفة مع الأدميرال، وطلبت منه أن يجلس أمامي. في هذه الأثناء بدأت هيذر، صديقتي وشريكتي، تعبث بالأنوار: ظلام، نور ساطع، نور خافت. وبدأ الغاز يتسرّب من المنافذ. ضغطت على زر تحت مقعدي وبدأتْ البلورة تمتلىء، شيئاً فشيئاً، بالدخان. تحت تأثير الأنوار والغاز والدخان المائج في البلّورة بدا الأدميرال مستعدّاً لتصديق أيّ شيء. تأمّلتُ البلورة عدّة دقائق دون أن أقول شيئاً وأغمضتُ عينيّ وفتحتهما (بعد العملية الجراحية التي أجريتها في السويد تضاعف حجم عينيّ، وتأثيرهما) وقلتُ:

ـ يا فخامة الرئيس! أرى صورة رجل ببدلة عسكرية. أنا لا أفهم في الرتب العسكرية. ولكني أرى على كتفيه طائراً ونجمتين و. . .

قاطعني الأدميرال:

ـ عقيد.

ـ نعم. عقيد. وهو يريد إرسال رسالة إلى فخامتكم عن طريقي. رسالة تلباثية، بطبيعة الحال. سوف أسأله عن إسمه، أوّلاً، وأنقل إليكم كلّ ما يقوله.

صمتُ متأمّلاً الدخان، ثم قلت:

ـ يرفض العقيد الإفصاح عن إسمه يا فخامة الرئيس. يقول إنك ستعرفه عندما أخبرك أن الرسالة من «مفتاح».

بمجرد أن سمع الأدميرال كلمة «مفتاح» ندّت عنه صرخة صغيرة، واستأنفتُ أنا:

ـ يود «مفتاح»، يا فخامة الرئيس، أن يبلغكم أن الترتيبات توشك أن تنتهي. لا تزال هناك بعض الصعوبة مع «مرجان» و «رُمّان» ولكن...

قاطعتني صرخة أخرى صادرة من الأدميرال تجاهلتها، ومضيت:

ـ ولكن الإخوان بصدد التفاهم معهما. وحالما يتمّ التفاهم فسوف يكون كل شيء جاهزاً لعودة فخامتكم.

فتح الأدميرال فمه، ولم يتمكن من النطق، وقلت:

ـ يعتقد «مفتاح»، يا فخامة الرئيس، أن الحركة يمكن أن تقع بعد ٣ شهور، ورُبّما قبل ذلك، ولكن لا بُدّ من إلتزام الحذر، الحذر الشديد.

عدتُ بالأدميرال، الذي لا يزال تحت تأثير الصدمات المتوالية، إلى مكتبي، حيث قدّمتْ هيذر له فنجان يانسون (أفاد مركز المعلومات أن اليانسون شراب الأدميرال المفضّل). إرتشف من الفنجان وهو يقول:

ـ دكتور بصير! هذا شيء مذهل! هذا شيء لا يُصدّق! سمعتُ الكثير عن قواك الروحية ولو لم أرها بعينيّ لما صدّقت. شيء مذهل حقاً!

قلتُ بتواضع شديد:

ـ مواهب من الله، يا فخامة الرئيس، أضعها في خدمة عباده المستحقين، أبطال الحرّية والكرامة الوطنية مثل فخامتكم.

ـ لا أدري ما أقول. أنا حقاً عاجز...

قاطعته بأدب:

ـ يا فخامة الرئيس! لنترك الشكر حتّى تنتهي الأزمة ويعود فخامتكم إلى الوطن. هناك، كما سمعتم، عقبات لم تُذلّل بعد، ولكني أريد أن أطمئنكم أنني سأذلّلها، سأبذل كل طاقتي الروحية...

قاطعني الأدميرال:

ـ ماذا ستفعل يا دكتور؟

ـ سوف أخصص جلسة ليلية أصوّب خلالها شحنات كهربائية/ مغناطيسية/ روحية على العدوّ النذل الذي اغتصب الحكم من فخامتكم. سوف أركّز على تدمير معنوياته، أكرّر تدمير معنوياته. الحرب النفسية الروحية، يا فخامة الرئيس، سلاح فتّاك. بعد فترة وجيزة سوف يفقد الحقير الثقة في نفسه، يفقدها نهائياً. وعندها سيلاحظ الجميع، أكرّر الجميع، تغيّراً واضحاً في تصرفاته. عندها، وعندها فقط، يمكن لفخامتكم إعطاء الضوء الأخضر لأنصاركم.

ـ دكتور بصير! لا أعرف كيف..

قاطعته:

ـ ولكن يجب أن تساعدني يا فخامة الرئيس.

ـ أنا تحت أمرك يا دكتور. قل وسأنفّذ.

ـ العفو! العفو! أريد منك كل مساء، أكرّر كل مساء، أن تركّز كل أفكارك على العدو النذل. ضع صورته أمامك حتّى تساعدك على التركيز. أريد أن تنظر إلى الصورة وتقول بصوت مرتفع، أكرّر مرتفع، تقول: «أنت مجرّد معتصب. وأنا الحاكم الشرعي. أنا الحاكم الشرعي. أنا الحاكم الشرعي». يجب أن تكرّر هذا الكلام، بحذافيره، ٩٩ مرة، ٩٩ مرّة بالضبط. أريد أن تبدأ في تمام التاسعة، أكرّر تمام التاسعة، وسوف أبدأ أنا في الوقت نفسه. بين جهودي وجهودك سوف يفقد الحقير كلّ قدرة على المقاومة ويهوي كثمرة متعفّنة إلى الأرض.

مدّ الأدميرال يده إلى جيبه وأخرج دفتر شيكات فتحه وهو يتمتم:

ـ دكتور بصير! أنا لا أعرف... لا أعرف.. لا أدري...

قاطعته:

ـ يا فخامة الرئيس! هناك صندوق في الغرفة الخيرية. اذهب إلى الغرفة واكتب المبلغ الذي تراه وضع الشيك في فتحة الصندوق. ريْع الصندوق، بأسره، مُخصّص للأعمال الخيرية، وأنا لا آخذ سوى مصاريفي الفعلية. لا يجوز لإنسان منحه الله مواهب روحية أن يستفيد منها، شخصياً، على أي نحو، أكرّر على أيّ نحو.

ذهب الأدميرال إلى الغرفة الخيرية، وخرج، وذهبت معه أودّعه إلى سيارته. عندما عدت وجدت هيذر تبتسم. قلتُ:

ـ مرّ كل شيء كما أردناه.

ـ كم تعتقدين أن بشارة العودة التي تلقّاها الأدميرال تستحق؟

ـ ٣٠,٠٠٠ جنيه؟

هذه الأسكتلندية؟ هذه الأسكتلندية البخيلة بالفطرة! قلت مستنكراً:

ـ هيذر هل جُننت؟ دفعتُ ضعف هذا المبلغ لأعرف الأسماء الحركية للضباط الذين يتعاملون مع الأدميرال. أعتقد أن فخامة الرئيس سيتبرع للأعمال الخيرية بما لا يقل عن ربع مليون جنيه.

ـ لا أظنّ.

ـ تراهنين؟

ـ من الأسهل أن نفتح الصندوق.

ـ ونغتصب أموال المشاريع الخيرية؟!

ضحكنا ونحن نفتح الصندوق. تبيّن أن فخامة الرئيس أبخل مما توقّعت، وأكرم مما توقّعت هيذر. كان الشيك بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه. بداية جيّدة لليوم، أكرّر بداية جيّدة.

كانت زبونتي التالية السيدة فائقة، أغنى امرأة في عربستان X. قبل أن تجيء بدقائق أحضرتْ لي هيذر البطاقة الصغيرة التي تذكرني بالمعلومات الأساسية التي سبق أن درستها بعناية. قرت البطاقة:

الاسم: فائقة...

السن: ٦٥ سنة (وتدعي أن عمرها ٤١).

الثروة: ٤٥٠ مليون دولار.

المشكلة: تعتقد أن زوجها الشاب يوشك أن يتزوّج امرأة أخرى (الواقع أن زوجها الشاب تزوّج المرأة الأخرى ولكن السيدة فائقة لا تعرف هذه الحقيقة).

سبب الزيارة: التفريق بين زوجها وحبيبته (زوجته الجديدة).

الطريقة التي تثق بها صاحبة المشكلة: قراءة الفنجان.

حالة السيدة فائقة تتكرّر أمامي برتابة قاتلة، أكرّر قاتلة. الزوجة الثرية العجوز التي تشتري الشاب الوسيم بالمال، ولا يلبث هذا الشاب أن يأخذ ما تيسّر ويبحث عن زوجة شابة وسيمة. ولا تملك الزوجة العجوز من وسيلة لإبقائه سوى الإستعانة بالقوى فوق الطبيعية، ووسيطها المتواضع الدكتور بصير العارف. قليلٌ من الأمل لا يضرّ. أكرّر لا يضرّ، وربما ينفع. وقد أعددت للسيدة فائقة جرعة هائلة من الأمل، جرعة لم تخطر لها ببال.

قمت أحيّيها بإحترام مبالغ فيه وأنا أقول:

- نورّت يا صاحبة العصمة. شرّفت المكتب وصاحب المكتب.

ابتسمت السيدة فائقة، التي يبدو أنها لم تسمع لقب صاحبة العصمة من قبل، بسرور واضح، وقالت:

- سمعت الكثير عنك يا دكتور بصير. الكثير الكثير! قالت لي السيدة رجاء...

لا شيء، أكرّر لا شيء، يبعث الملل في نفسي مثل الاستماع إلى حكايات عن معجزاتي وخوارقي، والتوابل التي تضاف إليها، ومع ذلك أنصتُ إلى السيدة فائقة متظاهراً بالإهتمام الشديد. بعد دقائق جاءت هيذر بفنجانين من القهوة التركية، وضعت فنجاناً أمامي وفنجاناً أمام السيدة فائقة التي قطعت حديثها ونظرت إلى هيذر بتمعّن، وسألت:

- زوجتك؟

- خطيبتي.

- امرأة جميلة.

- أشكرك. لا يعرف الجمال سوى أهله.

- هل هي إنجليزية؟

- أسكتلندية.

- ولكنك تخاطبها باللغة الإنجليزية.

اكتشفت، يا لبطء فهمي أحياناً، أن صاحبة العصمة لا تعرف الفرق بين أسكتلندا وإنجلترا. قلت:

- إنجليزية بالفعل. ولكنها مقيمة في مدينة تُسمى أسكتلندا. مدينة إنجليزية.

- إمرأة جميلة جداً.

شعرت بشيء من القلق. هل لدى السيدة فائقة ميول لم يفلح مركز المعلومات في الكشف عنها؟ قلت:

- يا صاحبة العصمة! الجمال مهمّ ولكن الذكاء أهم، وعندما تجتمع الخصلتان في امرأة واحدة، أكرّر واحدة، مثلك، يا صاحبة العصمة، تصبح هذه المرأة نادرة، أكرّر نادرة، جوهرة لا تُقدّر بثمن. من يقدّر المرأة النادرة في هذا الزمان الفاسد، زمان الخيانة والغدر؟

أصبتُ الهدف، قلب الهدف. احمرّت وجنتا السيّدة فائقة، وواصلتُ الهجوم:

ـ فسد العالم، يا صاحبة العصمة، فسد نهائياً. لم يعد بوسع أحد أن يثق بأيّ إنسان، أكرّر بأيّ إنسان. حتّى الذين يحسن المرء إليهم لا يستطيع أن يأمن شرهم.

هزّتْ السيدة فائقة رأسها، بشدّة، مؤيّدة كل حكم من أحكامي القاسية التي استمرت تنهمر:

ـ نحن نعيش في غابة. لا يشعر الإنسان بإطمئنان. غدر من كل جانب. خيانة من كل جهة. والأدهى من ذلك. . .

لاحظتُ أن السيّدة فائقة انتهتْ من إرتشاف فنجان القهوة وقلبته على الصحن بحركة إنسيابية تلقائية تدلّ على أنها قامت بهذه الحركة من قبل آلاف المرات. قلت:

ـ والأدهى من ذلك أن يجيء الغدر من أقرب الناس. ناوليني الفنجان، رجاءً، يا صاحبة العصمة.

قضيت عدة دقائق أتأمّل الفنجان، صامتاً، ثم نظرت إليها، ثم بدأت أتحدّث ببطء:

ـ أرى صورة رجل. رجل أسمر. معتدل القامة. له شارب خفيف. في الثلاثين من العمر. سنّه قريب من سنّك يا صاحبة العصمة. أحاول، الآن، أن أتبيّن إسمه. أ. . ألف. . أحمد! نعم! هذا إسمه!

شهقت السيدة فائقة عندما سمعت الإسم. تجاهلتها، ومضيت:

ـ وأرى بقربه إمرأة. إمرأة رخيصة بذيئة. إعذريني، يا صاحبة العصمة، إذا قلت إن المرأة التي أراها في الفنجان بقرب أحمد هي بنت من بنات الشوارع، أكرّر من بنات الشوارع. وهذه المرأة القذرة تتآمر عليك مع أحمد.

صمتُّ قليلاً أتأمّل وجه السيدة فائقة يحمرّ ثم يصفرّ، وقلت:

ـ يريدان أن يعقدا اتفاقاً من نوع ما. لا أستطيع أن أقرأ في الفنجان نوع الاتفاق. شركة. محل تجاري. صفقة. زواج. لا أدري. الواضح أنها مؤامرة وأنتِ، يا صاحبة العصمة، الضحيّة، أكرّر الضحية.

بدأت السيدة فائقة تبكي بصوت منخفض سرعان ما ارتفع وأخذت تتمتم بين تأوّهاتها:

ـ صدقت يا دكتور بصير. صدقت في كل كلمة قلتها. صدقت ١٠٠٪. أحمد

هو زوجي، يا دكتور. وهو ينوي أن يتزوّج هذه المرأة الشنيعة. بعد أن أحسنت إليه كما لم أحسن إلى أحد. بعد أن أعطيته أعزّ ما أملك. بعد. . .

قاطعتها:

ـ لا تيأسي، يا صاحبة العصمة. لا تيأسي. سنوقف الخائن الغادر عند حده. تعالي معي إلى غرفة الفراق.

غرفة الفراق من إبتكاري وتصميمي وهي مُعدّة، خصيصاً، لممارسة الطقوس الضرورية للتفريق بين حبيبين. جدران الغرفة وسقوفها وأرضيتها مغطاة باللون الأسود الداكن، لون الحداد، لون الفراق. لا يوجد، بالإضافة إلى منافذ الغاز الخفية، سوى مقعدين وشاشة صغيرة. طلبت من السيدة فائقة أن تجلس على أحدهما، وقلت:

ـ انتبهي يا صاحبة العصمة. أريد منك أن تركّزي. أريد أن تستخدمي كل قدرتك على التركيز. انظري إلى الشاشة وركّزي أفكارك على أحمد، والقذرة التي معه، وسوف أركّز معك، سوف أستعين بكل جاذبيتي المغناطيسية. ركّزي! انظري!

في هذه الأثناء كانت هيذر تعرض عبر ثقب لا يُرى «السلايدات» التي سبق إعدادها بدقّة. ظهرت على الشاشة صورة رجلٍ ملتصق بامرأة. التفاصيل غير واضحة، تعمّدت أن تكون غير واضحة، إلاّ أن الصورة هي صورة الزوج، وصورة المرأة الأخرى هي صورة العشيقة (أعني الزوجة الجديدة).

بدأت السيدة فائقة تلهث بصوت مسموع، وتردّد كلمات غير مفهومة. قلتُ بحزم:

ـ عفواً! يا صاحبة العصمة! عفواً! أرجو أن تسكتي. ركّزي أفكارك بهدوء. ودعيني أعمل.

نظرت في الشاشة وقلت بصوت جهوري (ضخّمه مكبّر الصوت الذي أخفيه في ياقة المعطف وأديره عند الحاجة):

ـ آمرك يا أحمد يا إبن زهرة. . .

صرخت السيدة فائقة عندما سمعت اسم الأم. نظرتُ إليها بغضب، وواصلت:

ـ آمرك يا أحمد يا ابن زهرة بالسلطة الروحانية الموضوعة تحت تصرّفي من ملوك العالم السفلي، آمرك أن تترك هذه المرأة ناهد بنت سكينة. . .

صرخت السيدة فائقة، مرة أخرى، وتجاهلتها، ومضيت:

- وآمرك بالسلطة الروحانية الموضوعة تحت تصرّفي من خدّام الأبراج العلوية. . .

مضيت على هذا النحو قرابة ٥ دقائق. في هذه الأثناء كانت السيدة فائقة تبكي وترتجف بشدة، وكانت صورة أحمد بن زهرة تبتعد، تدريجياً، عن صورة ناهد بنت سكينة حتى تختفي نهائياً.

عدتُ بالسيدة فائقة إلى مكتبي وهي في حالة واضحة من الاضطراب. قلت:

- اطمئنّي، يا صاحبة العصمة، اطمئنّي. سوف أستمر في شن حملاتي الروحانية حتّى يحدث الفراق، ولكن لا بُدّ من الصبر. يتطلب الأمر عدة أسابيع.

قالت السيدة فائقة وهي ترتجف:

- دكتور بصير! سوف أصبر عدة شهور إذا لزم الأمر. الآن، الآن فقط، أدركت أني سوف أربح المعركة. الآن، الآن فقط، أدركت لماذا يعتبرك الجميع ملك الروحانيين.

ابتسمت وقلت:

- العفو! العفو!

- وأعظم ما فيك، يا دكتور، هو أنك تتبرّع بكل قرش يصلك للأعمال الخيرية. لا تنكر! لا تنكر! أكدت لي السيدة فوزية أنها. . .

قاطعتها:

- مواهب من الله، يا صاحبة العصمة، وما تدرّه هو من حق عباد الله الفقراء والمساكين.

ابتسمت السيدة فائقة، وقالت:

- أين الغرفة الخيرية؟!

استدعيت هيذر، وطلبت منها اصطحاب السيدة فائقة إلى الغرفة الخيرية وتركها، هناك، بمفردها. عندما خرجت السيّدة فائقة ودعتها إلى الباب، وعدتُ إلى الغرفة الخيرية حيث وجدت هيذر تتمتم بذهول:

- انظر إلى هذا المال. نقداً! نقداً! لم تستطع إدخاله في الصندوق فتركته بقربه. لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ جنيه. نقداً! كيف تمشي إمرأة ومعها هذا المبلغ نقداً؟ هل هي مجنونة؟

- أنت المجنونة بالبخل أيّتها الأسكتلندية الجميلة.

عدت إلى مكتبي أقرأ بعض المعلومات عن زبائن الأيام القادمة عندما قطعتْ عليّ الأسكتلندية خلوتي بمكالمة تيلفونية:

ـ هناك حالة خيرية. هل تريد أن تراها؟

جرى العمل ألاّ أستقبل أحداً إلا بترتيب مُسبّق. أسبوع على الأقل، حتى يتسنّى جمع المعلومات اللازمة. إلا أنه يصدف أحياناً، أكرّر أحياناً، أن يجيء إلى المكتب إنسان من غير المهمّين، إنسان ليس لديه ملفّ عندنا، رجل أو إمرأة من الفقراء. عندما أكون في مزاج نفسي ملائم أستقبل هذه الحالات التي أسمّيها الخيرية. لأنني أعطي الزائر ولا آخذ منه. روبن هود الروحاني! يأخذ من الأغنياء ويعطي الفقراء. دخلتْ هيذر وأعطتني بطاقة صغيرة قرأتها بسرعة، وقلت:

ـ أدخليها.

دخلت الفتاة. من الواضح جداً أنها عربستانية جدّاً. ومن الواضح للعين البصيرة، أكرّر للعين البصيرة، أنها حامل، في بداية الحمل. ومن الواضح من ثيابها أنها ليست في قائمة «فورشن» لأغنياء العالم. رحّبت بها بفتور، وقلت:

ـ اجلسي.

وضعت يديها على حجرها وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ دكتور بصير! جئت من غير موعد. أعتذر. دفعني اليأس. لم أدر ماذا أفعل. سمعت الكثير عنك وعن حبك للخير وعمّا تقوم به...

قاطعتها:

ـ سلوى! هاتي يدك!

دهشت الفتاة عندما سمعت إسمها. نسيتْ أنها كتبته بنفسها، قبل قليل، في البطاقة التي جاءت بها هيذر.

قلت:

ـ اليسرى! يدك اليسرى!

تأملت يدها، ونظرت إليها، وقلت:

ـ من مواليد برج القوس، أليس كذلك؟

ازدادت دهشتها. نسيتْ أنها كتبت تاريخ ميلادها بنفسها على البطاقة. تأمّلتُ يدها دقيقتين أو ثلاثاً ثم قلت:

ـ سلوى! ليس من المقدّر أن تحتفظي بالجنين.

لم تستطع كتمان الصرخة، ومضيت:

ـ سوف يكون لك في المستقبل، بإذن الله، أولاد، صبيّان وبنت. ولكن بعد أن تتزوجي. صاحبك هذا لن يتزوّجك.

صدرت منها صرخة أخرى أعلى من سابقتها، وقلت:

ـ سلوى! اسمعي! لقد ذهب ولن يعود، أكرّر لن يعود.

قالتْ بصوت متحشرج:

ـ وماذا أفعل، الآن، يا دكتور؟ أوضاعي. . .

سحبت يدي من يدها، وأدخلتها في الدرج، وأخرجت مظرفاً يحتوي على ٥,٠٠٠ جنيه، أعطيته لها وقلت:

ـ خذي الظرف. تخلّصي من الجنين. وانتظري حتى يجيء الرجل المناسب، الزوج المناسب، أكرّر المناسب.

أخذت الظرف وهي تتمتم:

ـ دكتور بصير! لا أعرف. . .

قاطعتها:

ـ مع السلامة.

خرجت سلوى وفكّرت في كتاب صديقي أنور مختار «الغجر الجدد». وهذه واحدة منهن. ومن مواليد برج القوس. حبّ الحرية. والنزعة إلى الاستسلام لشخصيات أقوى. وهذه هي النتيجة!

الثلاثاء

منذ أكثر من شهر طلب السيد بهنس موعداً، وتركته ينتظر طيلة هذه المدة. كنت أتوقع زيارته منذ توفيت زوجته قبل ٧ شهور. كنت أعرف أنه بعد فترة، تطول أو تقصر، سيحضر لزيارتي. وصلتني الأخبار أنه لم يدع وسيطاً روحياً شهيراً في أوروبا وأمريكا إلاّ وزاره. كنتُ على ثقة أن دوري سيجيء. وماذا يريد السيد بهنس؟ يريد أن يتحدّث مع زوجته، أعني مع روح زوجته. ولماذا هذا الحرص الزائد على مخاطبة امرأة بعد موتها بعد أن خاطبها في حياتها أكثر من ٤٠ سنة؟ هذا هو السرّ الذي لم يستطع أي وسيط، أكرّر أي وسيط، قبلي أن يعرفه، وبالتالي لم يتمكن أحد من تقديم الجواب الذي يتطلّع إليه السيد بهنس. والسرّ بسيط: يريد السيد بهنس أن يعرف هل ماتت زوجته ميتة طبيعية أو ماتت

منتحرة. لماذا، إذن، لم يطلب تشريح الجثة؟ السبب بسيط. التشريح قد يقود إلى فضيحة لا يريدها السيد بهنس ولا مستشاروه الماليون. وما هي الحقيقة؟ الحقيقة أنها ماتت منتحرة بتناول كمية كبيرة من الأقراص المنوّمة. وكيف عرفت الحقيقة؟ عرفتها من صديقي أنور مختار. وكيف عرف هو الحقيقة؟ كانت المرحومة، السيّدة مائسة، من زبائنه، تتعالج عنده من الكآبة النفسية التي اعترتها منذ أن عرفت أنها أصيبت بسرطان الرئة. لم تكتشف المرض إلا بعد أن انتشر في الخلايا وتعذّر العلاج. في آخر زيارة قالت لأنور إنها لا تنوي الانتظار وتحمّل شهور من الألم، وإنها قررت أن تنهي حياتها. ولماذا باح لي أنور بسرّ من أسرار مرضاه؟ لأننا نتبادل الأسرار ـ عملية مفيدة جداً للطرفين. والسيّد بهنس، الآن، يعاني من تأنيب ضمير هائل. يعتقد أنه قصّر في حق زوجته لأنه كان مسافراً في الليلة التي تُوفيت فيها. لا يستطيع السيّد بهنس أن يقضي بقية أيامه في سلام إلاّ إذا تأكّد أن زوجته ماتت ميتة طبيعية. من حق الرجل أن يعيش بسلام، وسوف يجد السلام عندي.

دخل السيد بهنس، وقفزت أحيّيه:

ـ أهلاً بعطوفة الباشا، أهلاً وسهلاً.

السيد بهنس لم يكن، قط، باشا، وأنا لا أعرف، أكرّر لا أعرف، معنى عطوفة، إلاّ أن الزائر سُرّ سروراً واضحاً بلقبه الجديد. وابتسم وقال:

ـ أهلاً بالدكتور بصير. سمعت عنك الكثير. حدّثني معالي الوزير...

استمعت إلى قصة من قصص خوارقي المعتادة، وقلت:

ـ مواهب من الله، يا عطوفة الباشا. مواهب أضعها في خدمة عباد الله. أنا مجرّد وسيط، مُجرّد ساعي بريد ينقل رسائل الأرواح إلى أحبابها.

كالعادة، أصبت قلب الهدف، وتنحنح السيد بهنس وقال بحرج:

ـ في الحقيقة، يا دكتور، أني أتيت اليوم...

قاطعته بحزم يشوبه الأدب:

ـ يا عطوفة الباشا! أرجو أن تعرف من البداية أني لا أعد بشيء، أكرّر لا أعد بشيء. لا أستطيع أن أحضّر الأرواح. كل الذين يزعمون أنهم يستطيعون تحضير الأرواح يكذبون، أكرّر يكذبون. كل ما أستطيع عمله هو أن أهيّء الجوّ الملائم، وإذا أرادت روح كريمة، أيّ روح كريمة، أن تحضر فعلى الرحب والسعة. لا

تصدّق أيّ دجال يدّعي أنه يستطيع إجبار روح على الحضور.

ـ الحقيقة أني لاحظت من تجارب سابقة. . .

ـ لاحظت، يا عطوفة الباشا، أن بعض الوسطاء الروحيين المزعومين يعدون ولا يفون بوعودهم. يعطونك كلاماً غائماً مائعاً ويزعمون أنه من كلام هذه الروح أو تلك.

بدت علامات الدهشة على وجه السيد بهنس، وطوّرت الهجوم:

ـ ولكنك لن تجد شيئاً من هذا عندي يا عطوفة الباشا. لن تجد سوى الصدق. سأحاول ولكني لا أعدك بشيء. قد تحضر روح وقد لا تحضر. أقول لك، مُقدّماً، إني لا أودّ معرفة الروح الكريمة التي تودّ أن تتّصل بها لأن هذه المعرفة لن تفيدني، أكرّر لن تفيدني. إذا كانت الروح الكريمة مستعدة للحضور وإيصال رسالة فسوف تحضر. فلننتقل إلى غرفة الأرواح يا عطوفة الباشا.

غرفة الأرواح، بلا جدال، جوهرة الغرف. أنفقتُ الكثير من الوقت والجهد والمال في تصميمها. الجدران والأسقف والأرضية مغطاة بالمرمر الأبيض الناصع. والأضواء يمكن أن تضفي على المرمر أيّ لون آخر. وهناك أجهزة تسجيل خفيّة يمكن أن تصدر أيّ صوت، أكرّر أي صوت، يخطر بالبال، من كلام البشر، إلى رنين الموسيقى، إلى صداح الطيور، إلى زئير الأسود. بالإضافة إلى منافذ الغاز الخفيّة، هناك منافذ أخرى يمكن أن تنساب عبرها أشذاء العطور أو البخور. وهناك ماكينة العرض التي تستطيع أن تعكس على الجدران أو السقوف أو الأرضية أي صورة، أكرّر أي صورة، أريد أن تُعكس.

أدخلت السيد بهنس غرفة الأرواح. هناك ٩ مقاعد صُنعت على هيئة دائرة كاملة. على الكراسي جلس بعض الموظفين العاملين في قسم المعلومات وكل منهم يرتدي روباً أبيض ويضع على رأسه عمامة بيضاء.

أجلست السيد بهنس بقربي، وهمست في أذنه:

ـ يا عطوفة الباشا! كل هؤلاء الذين تراهم أمامهم وسطاء روحيون اخترتهم بعناية. وأنا، بكل تواضع، أملك مواهب روحية لا بأس بها. ويبدو لي، يا عطوفة الباشا، أنك، أيضاً، موهوب روحياً. أريد منك، الآن، أن تمسك بيدك اليسرى يد جارك وتمسك بيدك اليمنى يدي حتى تكتمل الحلقة الروحية. أريدك بعد ذلك أن تركّز كل أفكارك، أكرّر كل أفكارك، على الروح الكريمة التي تودّ الإتصال بها.

في هذه الأثناء، كانت هيذر قد أطفأت جميع الأنوار، ووضعت موسيقى كلاسيكية هادئة. من منفذ في الغرفة دخل نسيم يحمل عطر «سوڤاج»، عطر المرحومة المفضّل. أحسست بيد السيد بهنس تهتزّ بشدة في يدي مع دخول العطر. فجأة، انطلق من مكان ما في السقف صوت نسائي يقول:

ـ نونو!

نونو هو إسم الدلع الذي كانت المرحومة تطلقه على السيد بهنس، والمشتق من إسمه الأول نبيل، إسم الدلع الذي لم يكن يعرفه سوى القلّة من أصدقائهما الخُلّص. بدأ السيد بهنس ينشج بهدوء، واستمرّ الصوت من السقف:

ـ نونو! لا أستطيع البقاء طويلاً هنا. سُمح لي بزيارة قصيرة. كل ما أريدك أن تعرفه أني انتقلتُ خلال نومي، بهدوء وسلام. لم يكن هناك شيء مما يخطر ببالك. أعوذ بالله! نونو! بلّغ تحياتي للأولاد. وقبّل «بسبوسة». مع السلامة!

«بسبوسة» هي القطة المدلّلة التي تركتها المرحومة وراءها. وصوت المرحومة كان في الحقيقة، صوت النجمة الشهيرة نيران، وقد سجّلت الكلام الذي أبكى السيد بهنس عندما كانت تزورني في الأسبوع الماضي، سجلته عبر جهاز يغيّر نبرات الصوت. أُضيئتْ الأنوار، وتحول نشيج السيد بهنس المكتوم إلى بكاء بدموع غزيرة، دموع الفرحة.

عدتُ بالسيد بهنس إلى مكتبي، وبدأتْ المحاضرة المعتادة:

ـ دكتور بصير! شيء مذهل! شيء لا يُصدّق! شيء فوق الخيال!

قلت بتواضعي المعتاد:

ـ صدّقني، يا عطوفة الباشا، أنني لم أفهم شيئاً ممّا دار. لا أعرف من هي الروح التي تكلّمت، ولم أفهم المقصود بنونو، ولا «بسبوسة»، ولا أدري مضمون الرسالة.

ـ ولكني فهمت كل شيء. كل شيء! كانت هذه روح المرحومة زوجتي، بلا جدال. ألم تشمّ عطر «سوڤاج»؟

ـ شممت عطراً، ولكني لا أعرف إسمه. كثيراً ما تأتي الروح ومعها الرائحة التي تحبها. أحياناً، أشمّ رائحة طعام.

ـ هذا عطر زوجتي. لم تستعمل غيره طيلة حياتنا الزوجية. وكانت الروح روح زوجتي. لا توجد ذرة من الشك. مستحيل أن يعرف أحد غيرها الأشياء التي قالتها. دكتور بصير! لا أعرف كيف...

قاطعته:

ـ عطوفة الباشا! لم أفعل شيئاً. جاءت الروح الكريمة لأنها أرادت المجيء، وسُمح لها بالمجيء.

ـ ولكني حاولت من قبل، عشرات المرات، ولم...

ـ مواهب من الله.

أخرج دفتر الشيكات وهو يقول:

ـ سمعت عن مشاريعك الخيرية وأودّ...

قاطعته:

ـ ضع ما تريد في الصندوق الخيري الموجود في الغرفة الخيرية. سوف أتبرّع بالمبلغ باسم المرحومة... بالمناسبة، ما هو اسم المرحومة حرمكم؟

قال بسرور بالغ:

ـ مائسة. مائسة خوخي.

ذهب إلى الغرفة الخيرية، وعاد، وأوصلته إلى سيّارته. كانت هيذر في إنتظاري في الغرفة الخيرية. قبّلتها بحرارة، وقلت:

ـ هيذر! كنتِ أكثر من رائعة. وكان التوقيت مدهشاً. حتى أنا صدّقت أن روحاً كريمة تفضّلت بزيارتنا.

ـ من يدري. ربما كانت هناك روح كريمة.

ـ ماذا عن الشيك؟

ـ ١٠٠,٠٠٠ جنيه.

ـ مبلغ لا بأس به!

بدأت كتابة مقالي الأسبوعي لمجلة «حسنائي»، وقد اخترت له عنوان «كيف تقرأ كفّك في دقيقة»، عندما دخلت هيذر، وقالت:

ـ هناك شخص يودّ أن يراك فوراً.

ـ ولكني مشغول الآن. لديّ مقالي الأسبوعي.

ـ يقول إنك تعرفه جيّداً وستسمح له بالدخول بمجرّد أن تسمع إسمه.

ـ ما إسمه؟

ـ العقيد صقر الفنتير. الملحق العسكري لدولة...

قاطعتها:

- أدخليه!

لم يضع العقيد أيّ وقت في المجاملات. قال بمجرد جلوسه على المقعد:

- لديّ رسالة من صاحب الجناب رئيس الدولة.

- أنا في أمر جنابه. وفي أمرك.

- يريد صاحب الجناب أن تزوره في عربستان X وأن تصل يوم الخميس. وقد أخبرني جنابه أنه سوف يرسل طائرة خاصة...

صرخت دون شعور:

- لا! لا! لا!

دُهش العقيد، وقلت:

- لا أريد طائرة خاصة. هناك طيران منتظم كلّ يوم وبوسعي أن أكون عند جنابه في الوقت المُحدّد.

- ولكن الطائرة...

قاطعته:

- يا أخ صقر! رجاءً! رجاءً! بلّغ صاحب الجناب أني سوف أكون في عاصمته المعمورة صباح الخميس.

- حسناً! وماذا عن المصاريف؟

ضحكت وقلت:

- المصاريف؟ صاحب الجناب صديقي منذ أكثر من ١٥ سنة وقد أغدق عليّ الكثير من أفضاله. ليس بيني وبين جنابه مصاريف.

ذهب العقيد، وبقيت أفكّر. علاقتي بصاحب الجناب قديمة بالفعل. زارني عدّة مرات في المكتب قبل أن يتولّى الحكم، وزرته في عاصمته عدة مرات بعد أن تولّى الحكم. إلاّ أن هذه هي المرة الأولى التي يتصل بي فيها منذ قرابة ٨ سنوات. ماذا يريد الآن؟ في الماضي، كانت هناك الطلبات المعتادة: إمرأة يريد أن تعشقه، أو حاسد يريد شلّ حركته. ولكن، ماذا يريد الآن؟ لا أعتقد أن أي إمرأة، أكرّر أيّ امرأة، تستعصي عليه الآن، ولا توجد في مركز المعلومات أي إشارة إلى مؤامرة محتملة. ولماذا يوم الخميس بالذات؟ طلبت من هيذر أن تحضّر لي ملفاً عن أهم مائة شخصية في عربستان X. وطلبت منها أن تطلب لي على التيلفون صديقي مسعود أسعد. جاءتني ضحكته المجلجلة:

ـ دكتور بصير! سبحان الله! كنتُ أفكّر فيك هذه اللحظة. كنت أنوي الإتصال بك هذه اللحظة. هذا ما تسمّونه «التيليباثي»، أليس كذلك؟

ـ هو بعينه. مسعود! أريد مساعدتك.

ـ أنت تعرف أنني، دوماً، تحت تصرّفك.

ـ صاحب الجناب رئيس دولة عربستان X يريد رؤيتي.

ـ أبشر «برولز رويس».

ـ هناك مشكلة.

ـ ما هي؟

ـ لا أعرف لماذا يريد رؤيتي.

ـ لماذا لا تسأل البلّورة؟

ـ مسعود! أنا جاد! هل لديك معلومات عن موضوع يُقلق، حالياً، صاحب الجناب؟

ـ أعتقد أنه الموضوع المعتاد.

ـ أيّ موضوع؟

ـ الجنس.

ـ لا أعتقد أنه يعاني أي مشاكل جنسية.

ـ أؤكّد لك أن الأمر يتعلّق بالجنس.

ـ ما شأني أنا بالجنس؟ لديه العديد من الأطباء.

ـ آه! الأطباء! ذكرتني بالسبب الذي دفعني إلى التفكير في طلبك. أريد أن تقرأ كفّي.

ضحكت طويلاً، وقلت:

ـ أخيراً! أخيراً! أخيراً اقتنعت بقواي الروحية.

ـ بصير! لم أشكّ، لحظة، في قواك الروحية.

ـ ماذا يشغل بالك؟

ـ لا شيء بالتحديد. أودّ أن تقرأ كفّي والسلام.

ـ بكل سرور. تعال غداً.

ـ متى؟

- عندما تشاء. لن تستغرق العملية سوى بضع دقائق.

حاولت أن أعود إلى المقال، ولكن أفكاري كانت مشتّتة، تشرد إلى صاحب الجناب، والمشكلة العاجلة التي تطلّبت وجودي يوم الخميس. والطائرة الخاصة! من حسن الحظ أن العقيد لم يصرّ على الطائرة الخاصة، ولو أصرّ لرفضت بإصرار، أكرّر بإصرار. ولِم الخوف من الطائرة الخاصة؟ الأمر يتعلق بالحياة والموت. موتي، كما أعرف يقيناً، سوف يكون على طائرة خاصة. وكيف عرفت؟ آه! عرفت بالمصادفة. من القواعد المقدّسة، أكرر المُقدّسة، عند الفلكيين الروحانيين أن لا يجوز للواحد منا أن يحاول معرفة مصيره الشخصي. ومن القواعد المقدسة، أكرر المقدسة، عند الفلكيين الروحانيين أن الواحد منا لا يجوز له أن يحدّث الزبون عن موته. حتّى عندما يرى مؤشرات على هذا الموت في الكف أو في البلورة. كيف عرفت، إذن؟ بمحض المصادفة. كنت في زيارتي السنوية لأستاذي العظيم، إمبراطور الفلكيين الروحانيين والسحرة، الجورو منجو جتني في بومبي، عندما قلت له، عرضاً، إني قدمت بطائرة خاصة. فوجئت برد فعل الجورو. قرأ الجورو برجي عشرات المرات، وقرأ كفي عشرات المرات. لماذا اربدّت ملامحه، فجأة، عندما سمع كلمة طائرة خاصة؟ قلت له:

- ما القصة يا مولاي؟

قال:

- إياك أن تركب طائرة خاصة بعد اليوم.

- لماذا يا مولاي؟

- لا أستطيع أن أخبرك السبب.

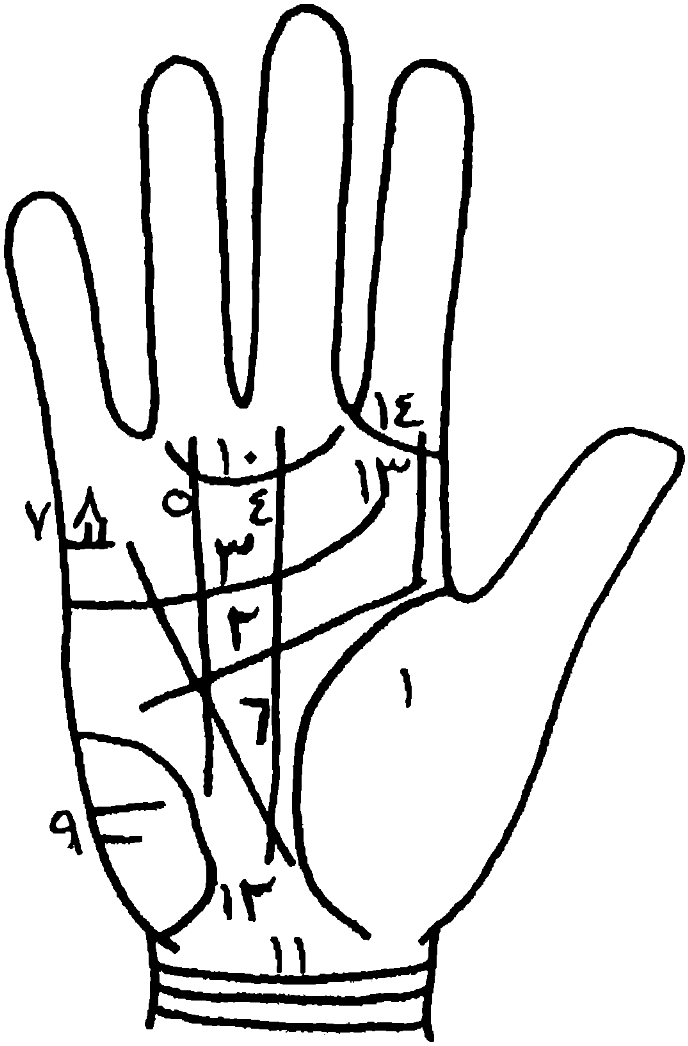
- إذن، فالأمر يتعلق بوفاتي؟

- لك أن تستنتج ما شئت. ولكن إيّاك، إيّاك، إيّاك، أن تركب طائرة خاصة مهما كانت الظروف والأحوال.

من حسن الحظ أن العقيد صرف النظر عن الطائرة الخاصة. لم تكذب، حتى الآن، نبوءة واحدة من نبوءات الجورو منجو جتني.

الأربعاء

أكملت اليوم مقال «كيف تقرأ كفك في دقيقة؟»، وأرفقت رسماً يوضّح الخطوط:



١ ـ خط الحياة

هذا الخط هو أهمّ الخطوط على الإطلاق، ويكاد الناس جميعاً يعرفونه. إذا ظهر الخط واضحاً بدون تقطّعات أو انحناءات كان معنى ذلك أن صاحب اليد يتمتع بالصحة والنشاط وأن أمامه حياة طويلة، تطول بقدر ما يقترب الخط من أسفل اليد. أمّا عندما يكون خط الحياة متقطّعاً أو متعرّجاً فإن معنى ذلك أن صحة صاحب اليد ضعيفة وأنه عرضة للأمراض والإصابات المختلفة. عندما ينقطع

الخط، فجأة، ينقطع نهائياً، ثم يواصل سيره فمعنى هذا أن في حياة صاحب الكف حادثة خطيرة أو مرضاً قاتلاً.

٢ ـ خط العقل

هذا هو الخط الذي يحدّد هل صاحب اليد محكوم بعواطفه وإنفعالاته أم بمنطقه وذكائه. بقدر ما يقترب هذا الخط من خط الحياة بقدر ما يعني ذلك أن صاحب اليد شخص حذر يتجنّب المغامرة، ويحبّ الأشياء المألوفة. وبقدر ما يبتعد عن خط الحياة فإن ذلك يعني أن صاحب الكف ينزع إلى المغامرة والمخاطرة (والمقامرة). بقدر ما يكون الخط طويلاً، وواضحاً بقدر ما يعني ذلك أن صاحب الكف يملك القدرة على التركيز، والسيطرة على التفاصيل الدقيقة. أمّا الخط الباهت المتموّج فإنه يعني عجز صاحب الكف عن اتخاذ القرارات العقلانية ونزعته إلى ترك مصيره في يد الآخرين.

٣ ـ خط القلب

هناك أكفّ نادرة لا يُرى فيها هذا الخط على الإطلاق، أو يرى ممتزجاً تماماً بخط العقل، وفي هذه الحالات فإن العقل يتحكّم تحكّماً مطلقاً في القلب. عندما يكون الخط واضحاً وقوياً فمعنى ذلك أن صاحب الكف يمتلك القدرة على العطاء والمحبّة وأنه سيكون زوجاً ممتازاً (أو زوجة ممتازة). عندما يكون الخط ضئيلاً فإن ذلك يعني أن صاحب الكف شخص انطوائي ولا يستطيع أن يتفاعل ويتعامل، بسهولة، مع الآخرين.

٤ ـ خط القدر

هذا الخط لا يظهر إلاّ في قرابة نصف الأكفّ. اختفاء الخط يعني أن صاحب الكف عاجز عن رسم مصيره بنفسه وأنه يسمح لحياته بأن تسير على غير هدى. أمّا عندما يظهر الخط فمعنى ذلك أن صاحب الكف يتخذ بنفسه كل القرارات المصيرية وأنه قادر على تحمل المسؤولية. كلما كان الخط عميقاً كلما كان صاحب الكف ذا نزعة استقلالية ولا يحتاج إلى الآخرين.

٥ ـ خط الشمس

بعض قرّاء الكفّ يسمّون هذا الخط خط النجاح لأنه كثيراً ما يكون مرتبطاً بالأمل والتفاؤل والإنشراح. بقدر ما يكون الخط ظاهراً بقدر ما يكون نصيب

صاحب الكف من الجاه والشهرة والسعادة عظيماً. واختفاء الخط يعني أن أيّ مسعى يقوم به صاحب الكف سوف يكون مشوباً بكثير من الإحباط وخيبة الأمل.

٦ ـ خط الصحة

غياب هذا الخط، نهائياً، هو بشرى سعيدة جداً لصاحب الكف، لأن معنى ذلك أنه سوف يتمتع بصحّة ممتازة طيلة حياته. عندما يظهر الخط، ويظهر واضحاً ومتّصلاً، فمعنى ذلك أن صاحب الكف يتمتع، إجمالاً، بصحّة طيبة. عندما يكون الخط منقطعاً أو باهتاً فإنّ ذلك يعني أن صحة صاحب الكف ليست على خير ما يرام. عندما ينقطع الخط، فجأة، فهذا ناقوس خطر ينبّه على مرض قريب عضال.

٧ ـ خط الزواج

عندما يكون هناك خط واضح مُتّصل فمعنى ذلك أن صاحب الكف سوف يتزوّج زواجاً واحداً، سعيداً على الأرجح. عندما ينقسم الخط إلى خطّين واضحين رئيسين فمعنى ذلك أن صاحب الخط سوف يتزوج مرّتين، وسوف يكون كل زواج منهما، على الأرجح، سعيداً. عندما ينقسم الخط إلى ٣ أقسام أو أكثر فمعنى ذلك أنه يصعب على صاحب الخط أن يقيم علاقة مستقرة ثابتة مع شريك من الجنس الآخر، ويغلب أن تكون حياته مليئة بالعلاقات العابرة.

٨ ـ خط الأولاد

ليس لهذا الخط أي علاقة بعدد الأولاد، بخلاف ما يتصوّر كثير من الهواة والدجالين في الشرق والغرب. وجود الخط يعطينا فكرة عن مدى قدرة صاحب الكف على التعامل مع الأطفال ولا يعطينا أي فكرة عن عددهم. عندما توجد عدة خطوط مستقيمة فمعنى ذلك أن صاحب الكف يحب الأطفال ويستطيع أن يمنحهم الكثير من السعادة والعناية. عندما تكون الخطوط متقطّعة فمعنى ذلك أن من الصعب على صاحب الكف أن يتعامل مع الأطفال، وأن يمنحهم الحب أو الحنان.

٩ ـ خطوط السفر

هذه الخطوط تعكس حرص صاحب الكف على الإستقرار أو رغبته في التنقل

الدائم. بقدر ما تزيد هذه الخطوط بقدر ما تزيد الرحلات والسفرات الهامة في حياة صاحب الكف.

١٠ ـ خطوط الحساسية

هذه ليست خطوطاً بالمعنى الدقيق ولكنها إشارات يصعب تبيّنها إلاّ بمعرفة الخبراء. هناك إشارة تشبه علامة زائد + وإشارة أخرى تشبه القوس ⌒ ووجودهما يدلّ دلالة قاطعة على مواهب روحية كامنة لدى صاحب الكف تشمل، ضمن ما تشمل، الأحلام التي تصدق، والتليباثي والقدرة، في أحوال نادرة، على قراءة الأفكار.

١١ ـ خطوط الحظ

وهذه الخطوط، بدورها، ليست خطوطاً بالمعنى الدقيق ولكنها علامات يمكن تبيّنها في مؤخّرة الكف وتبدو العلامة منها على هيئة مربع □. كلما زاد عدد المربعات كلما كان ذلك يعني أن صاحب الكف يتمتع بالحظ السعيد. وكما قلت كان معنى ذلك أن الحظ السيء سوف يرافق صاحب الكف. هناك، في حالات نادرة، علامة على هيئة مُثلّث △ ، وإذا ظهرتْ هذه العلامة كانت دليل حظ سعيد يفوق المعتاد.

١٢ ـ خط الفراسة

وهذا الخط، هو الآخر، ليس خطّاً بالمعنى الدقيق ولكنه يظهر على شكل علامة شبه دائرة ◯ لا يستطيع الهواة ملاحظتها. عندما توجد هذه العلامة فإنّ معنى ذلك أن صاحب الكف يتمتع بفراسة غير عادية، تجعله قادراً على أن يحكم على أيّ شخص يقابله حكماً صحيحاً دقيقاً من النظرة الأولى. ومعظم الوسطاء الروحيين توجد في أكفّهم هذه العلامة.

١٣ ـ خط المال

ربّما كان هذا هو الخط الذي يحرص كل الناس على رؤيته وتفسيره، وربّما كان أسهل الخطوط تفسيراً. عندما يظهر الخط قوياً عميقاً متّصلاً يعني ذلك أن صاحب الكف سوف يكون من الأثرياء ورجال الأعمال البارزين. وبمقدار ما يبدو الخط مهتزّاً وضعيفاً بمقدار ما يعني ذلك أن صاحب الكف سوف يواجه صعوبة مالية بعد أخرى.

١٤ ـ خط الروحانيات

هذا خط لا يبدو للعين المُجرّدة. ولهذا يعمد قرّاء الكف المحترفون في سبيل العثور عليه إلى استعمال المكبّرات، وأحياناً يضطرون إلى استخدام مسحوق رمادي خاص، بالإضافة إلى استعمال المكبّرات، ليتمكّنوا من رؤيته. نصيحتي للقارىء الكريم، والقارئة الكريمة، عدم إضاعة الوقت الثمين في البحث عن هذا الخط. لو كان الخط موجوداً، لكان من الأرجح أن يكون صاحب الكف قارىء كف محترفاً وأن تكون صاحبة الكف عرّافة شهيرة.

انتهيتُ من المقال، وجاء الزبون الأول. كانت الحالة روتينية جداً: ثريّ عربستاني فشلتْ كل محاولاته في الحصول على علاج لتخفيف ألم.المفاصل فلجأ إليّ يطلب العلاج الروحي. لا أفعل شيئاً سوى التركيز، ووضع يدي على جبهته لمدة عشر دقائق. في نهاية هذه الفترة يقسم المريض أنه شعر بتحسّن هائل. ولم لا؟ أكرّر لم لا؟ الإيحاء يصنع المعجزات. قبل أن يخرج ترك على مكتبي الظرف المعتاد، الذي يحتوي المبلغ المعتاد ٣,٠٠٠ جنيه.

بمجرد خروجه دخل رجل غريب يرتدي ثياباً بسيطة نظيفة، وله لحية بيضاء طويلة، حليق الشارب، على رأسه عمامة بيضاء. دهشتُ لقدومه. لا بُدّ أنه حالة خيرية. ولكن كيف سمحتْ له هيذر بالدخول؟ كنتُ على وشك أن أرفع التيلفون لأعاتبها، عندما قال لي:

ـ يا بصراوي! لا ذنب لها. لم ترني.

لم تره؟! لم أفهم المقصود، ولم أشأ أن أسأله.

واستأنف الرجل الغريب كلامه:

ـ يا بصراوي! عندي رسالة. هناك صديق يودّ لقاءك. صديق أرضي من إخواننا الأرضيين، الجنّ.

بدأت أضحك، وقاطعني:

ـ إضحك فيما بعد إذا شئت.

قلت:

ـ أهلاً وسهلاً بالصديق الجنّي. فليشرّفني بالزيارة في أيّ وقت.

ـ لا يستطيع أن يجيء بلا دعوة.

ـ أبلغه أني أرحّب به.

ـ لا بُدّ أن تجيء الدعوة منك شخصياً.

ـ كيف؟

ترك الشيخ ورقة على مكتبي وغادر المكتب وخلفه سحائب من البخور. من أين جاء البخور؟ لم يكد يغادر حتى قالت لي هيذر بالتيلفون:

ـ من هذا الرجل العجيب الذي خرج من عندك؟ كيف دخل؟

ـ كنت أنوي أن أسألك نفس السؤال.

ـ كنت هنا طيلة الوقت ولم أره يدخل. لديّ في المكتب صديقك مسعود أسعد.

ـ فليتفضّل.

دخل مسعود تسبقه ضحكة مجلجلة، وقال:

ـ دكتور بصير! ماذا جرى لك؟ هل أصبحت تستعين بغيرك من الروحانيين؟ من هذا الدرويش الذي كان عندك؟

ـ ساعي بريد. يحمل رسالة.

ـ من أين؟

ـ من العالم الأرضي.

ـ كنت أعتقد أنك على اتصال دائم بالعالم الأرضي.

ـ وهذا ما كنت أعتقده. من سن المراهقة وأنا أتلقّى من الجن رسائل تلباثية، عندما يرغبون في إرسالها.

ـ ولماذا جاءت هذه الرسالة عن طريق ساعي بريد؟

ـ لا أدري.

ـ وماذا تقول الرسالة؟

ـ مسعود! دعنا من هذا الآن. ما هذا الحرص المفاجىء على أن أقرأ كفّك؟

بدون أن يتكلّم مدّ مسعود إليّ يده اليسرى. تأمّلتها بضعة دقائق. رأيتُ في خط الصحة نذر خطر، نذر خطر واضحة جداً، تنذر بأزمة صحية قاتلة. حاولت إخفاء مشاعري وأنا أقول:

ـ مسعود! متى قمت بآخر فحص طبيّ؟

تنهد مسعود وأجاب:

ـ إذن، فالموضوع صحيح.

قلت:

ـ أيّ موضوع؟

ـ قصة طويلة.

ـ هل يوجد شيء بإمكاني عمله؟

ـ لا أدري. رُبّما في المستقبل.

ـ ولكن عدني بإجراء فحص طبي كامل، أكرّر كامل.

ـ لا أرى أيّ مبرر لهذا الفحص.

ـ عدني على أية حال.

ـ أعدك. سوف أتحدّث مع أنور مختار، هو الخبير بمراكز الفحوص.

خرج مسعود متجهّماً، ووقفت هيذر تذكرني بضرورة المغادرة، فوراً، إلى المطار. سألتني للمرة العاشرة:

ـ لماذا لا تأخذني معك؟

وللمرة العاشرة أجبت:

ـ لأني أحتاج إلى وجودك هنا. لن أستطيع عمل شيء بدون المعلومات التي ترسلينها لي، أنت والفريق.

عندما أقلعت الطائرة أخرجت الورقة التي تركها الرجل العجيب من جيبي. بكتابة جميلة، تكاد تكون مطبوعة، كانت على صدر الصفحة هذه الجملة «عزيمة إستدعاء عطويت بن شلطيخ». ابتسمت. هذا، إذن، هو اسم صديقي الجديد. عطويت بن شلطيخ!! مضيت في القراءة: «أعزم عليك يا شمخيتا ويا تميثا ويا شمخوتيا ويا مدهور ويا شمربيا ويا رموطيف ويا هجلطف ويا يكيفيال أن تحضروا لي في الحال عطويت بن شلطيخ». لا أدري متى نمت ولكني صحوت على صوت المضيفة:

ـ دكتور! دكتور! ألا تريد العشاء؟

الخميس

العاصمة. عربستان X

كانت رحلة حافلة. بمجرّد أن انتهيت من العشاء بدأت الإستشارات المجانية.

أقبلتْ مضيفة بعد مضيفة تطلب قراءة كفّها. كانت هناك مضيفة جميلة بشكل إستثنائي، أكرّر إستثنائي، وكان إسمها، بالمصادفة، حسناء. قلت لها:

ـ يا حسناء! كفك في حاجة إلى قراءة متمهلة. لماذا لا تمرين علي غداً مساء؟

قالت ببساطة:

ـ أين؟

قلت:

ـ سوف أكون في «الفور سيزنز». الثامنة؟

ابتسمت حسناء وهزّت رأسها، وذهبتْ.

بعد نوم قصير متقطّع اتصل بي موظف الاستقبال في الفندق قائلاً إن اللواء سالمين سالم يرغب في مقابلتي على الفور. طلبت منه أن يرسله إليّ. اللواء سالمين سالم هو رئيس الاستطلاعات في عربستان X. وقد سبق أن تعاملت معه كثيراً في أمور استفاد منها الطرفان، أمور يدخل فيها التنويم المغناطيسي والأرواح. وكان رئيسه، صاحب الجناب، أكثر من سخيّ معي. عانقني اللواء بحرارة، وهو يقول:

ـ أرجو أن تكون مرتاحاً.

تأملت أنحاء الجناح الفاخر المطلّ على مياه الخليج الزرقاء، وقلت:

ـ غاية الراحة. هذا ليس جناحاً. هذا قصر، أكرّر قصر.

ابتسم اللواء، وقال:

ـ أمرنا صاحب الجناب أن نضع كل التسهيلات تحت تصرفك. هناك سيارتان أمام المدخل تحت أمرك.

ـ تكفي سيارة واحدة.

ـ من يدري؟ الإحتياط ضروري.

قلت:

ـ سعادة اللواء! هل تعرف لماذا يريد صاحب الجناب أن يراني؟

ابتسم سعادة اللواء، وهو يقول:

ـ هناك أشياء كثيرة أعرفها عن صاحب الجناب وأشياء أكثر أجهلها. ومن الأشياء التي أجهلها سبب زيارتك.

قلت ضاحكاً:

ـ وماذا عن استطلاعاتك؟

ـ نحن نستطلع لصاحب الجناب، ولا نستطلع عليه.

ـ بكل تأكيد! بكل تأكيد!

ـ سوف يخبرك بنفسه. سيراك هذا المساء في تمام الحادية عشرة. سوف أمرّ عليك في العاشرة، ونذهب إلى الخيمة معاً.

ـ الخيمة؟

ـ نعم. صاحب الجناب خارج المدينة.

ـ سأكون في انتظارك.

خرج سعادة اللواء ووجدت نفسي، على خلاف عادتي، أكرّر على خلاف عادتي، عاجزاً عن التركيز. تنتقل أفكاري من الجنّ إلى المضيفات إلى صاحب الجناب إلى رئيس الإستطلاعات. حاولت قراءة الملف الذي اصطحبته معي إلاّ أنني لم أستطع فهم شيء. حاولت كتابة فصل من كتابي القادم «أسرار الأرقام» إلا أنني لم أتمكن من كتابة حرف واحد. قضيت الوقت أتنقل بين القنوات الفضائية حتى وصلتْ حسناء. قرأت كفها، ثم قرأت بقية أجزاء جسمها. مرّ الوقت دون أن أشعر حتى قطع علي القراءة رنين التيلفون. جاء صوت موظف الإستقبال يقول لي إن اللواء ينتظرني في صالة الفندق. طلبت من حسناء أن تبقى في الجناح حتى أختفي، ثم تختفي هي.

استقبلني صاحب الجناب في خيمته وهي أوسع بكثير، أكرّر بكثير، من جناحي الواسع. عانقني وضمّني بحرارة، وهتف:

ـ دكتور بصير! والله زمان!

قلتُ:

ـ اشتقنا إلى الطلعة البهيّة يا صاحب الجناب.

قال:

ـ بدأت أكبر يا دكتور.

قلت بحماسة:

ـ هذا غير صحيح. من الذي ادّعى ذلك؟

ابتسم صاحب الجناب ابتسامة واسعة وقال:

ـ المضيفات. المضيفات الحسناوات.

لا بُدّ أنه لاحظ أن ملامحي لم تستطع كتمان الدهشة فأسرع يقول:

ـ هذه مجرّد مداعبة.

مجرد مداعبة! الآن أدركت هدف السيارتين الواقفتين على مدخل الفندق. يا لغبائي، في بعض الأحيان! بقيت أنتظر أن يخبرني صاحب الجناب عن هدف الزيارة. إلا أنه لم يكن في عجلة من أمره. جاءت القهوة المُرّة، وجاء الشاي الحلو، وعادت القهوة المُرّة، وتكرّر مجيء الشاي الحلو. قال صاحب الجناب:

ـ ما هي أخبار لندن؟

ـ لم يتغيّر شيء، يا صاحب الجناب. كل شيء كما تعهدونه.

ـ لا، يا دكتور. كانت لندن، أيام الشباب، أحلى بكثير من لندن الآن. شابت لندن كما شبنا جميعاً.

صمت صاحب الجناب، وقال بغتة:

ـ وعدتَ صديقتك بسيارة «رولز رويس». سوف تكون عندك الأسبوع القادم. ووعدتَها بشراء قصر ريفي في اسكتلندا يكلّف نصف مليون جنيه. سوف يكون المبلغ عندك في الأسبوع القادم.

قلت مذهولاً:

ـ هل هيذر هي التي...

قاطعني صاحب الجناب ضاحكاً:

ـ لا يا دكتور! البلّورة! البلّورة أخبرتني! لا يهم كيف عرفت. الجدران لها آذان كما يقول اللواء سالمين.

قلت مضطرباً:

ـ هذا سخاء حاتمي، يا صاحب الجناب. أكرّر حاتمي. ولا أستحق...

قاطعني:

ـ وفي مقابل ذلك لا أريد شيئاً سوى أمر بسيط جداً لا يستعصي على قواك الروحية العظيمة، أمر أعرف أنك تستطيع عمله بسهولة.

قلت وأنا أتنفّس بصعوبة:

ـ كلّ مواهبي المحدودة في...

قاطعني مرة أخرى، بصوت قاطع كالسيف:

ـ مواهبك المحدودة لا تهمّني. يهمّني أن يخسر فريق البرازيل المباراة غداً أمام فريقنا.

عقدت المفاجأة لساني. هذه أوّل مرة، أكرّر أول مرة، أتلقّى طلباً بهزيمة فريق كرة، وفريق كرة هو الأقوى في العالم. قلت:

ـ ولكن. . .

تغيّرت ملامح صاحب الجناب. لم يعد صديقي القديم الذي يمازحني. قال بصوت بعث القشعريرة في جسدي:

ـ دكتور بصير! إذا انهزم فريق البرازيل فسوف أعطيك السيارة والمنزل. أما إذا انهزم فريقنا فسوف أطلب من اللواء سالمين أن يأخذك للسباحة في منطقة مليئة بأسماك القرش.

السباحة؟! أنا لا أعرف السباحة. وفي منطقة مليئة بأسماك القرش؟! هل يمزح صاحب الجناب؟ لا يبدو من ملامحه أنه يمزح.

قلت:

ـ ولكني لا أستطيع. .

قاطعني مُجدّداً:

ـ ثقتي فيك عمياء. ثقتي فيك لا تعرف الحدود. اعذرني، الآن، فقد حان وقت نومي. قلت لك إني كبرت. سوف يكون اللواء سالمين وجهازه تحت تصرّفك.

عاد بي اللواء إلى الجناح وقال إنه مستعدّ لتنفيذ أيّ طلبات أريدها. قلت له صادقاً، أكرّر صادقاً، أني لا أعرف خطواتي المقبلة، وأني سوف أقضي الليلة، بأكملها، في التخطيط. سألته:

ـ متى تبدأ المباراة؟

ـ غداً. في الرابعة مساء.

قلت:

ـ تعال في الساعة الثانية. أرجو أن أكون قد توصّلت، وقتها، إلى خِطة.

قال:

ـ وحتى ذلك الحين، ألا تحتاج إلى شيء؟

ـ إلى خطّيْ تيلفون مباشريْن. وجهازيْ فاكس.

ضحك اللواء، وقال:

ـ سبحان الله! كنت أتوقع ذلك. في الغرفة الصغيرة، هنا، تجد المطلوب.

بمجرّد أن خرج اللواء أدرت قرص التيلفون وقلت لهيذر:

ـ هيذر! اسمعي! اسمعي جيّداً! هذه حالة إضطرارية، أكرّر إضطرارية. أريد أن تجمعي كلّ أفراد الفريق، أكرّر كلهم، واحداً واحداً. أريد أن أعرف كل ما يمكن معرفته عن أفراد فريق الكرة البرازيلي الذي سيلعب غداً هنا. نعم! نعم! المنتخب القومي! أريد معرفة كل شيء. عن كل لاعب. أكرّر كلّ شيء عن كل لاعب. لا تتركي صغيرة أو كبيرة. الصديقات والعشيقات والمخدّرات والأمّهات والآباء والأطفال والفضائح والصفقات المالية. أريد كل شيء. سوف أبقى طول الليل، أكرّر طول الليل، بقرب الفاكس.

بعد ٣ ساعات وصل أول فاكس، واستمرت الفاكسات تتوالى حتى الصباح وأنا ألتهم كل فاكس بمجرد وصوله.

الجمعة

العاصمة. عربستان X

بدأتُ اليوم والفاكسات مُكوّمة أمامي، وفي ذهني معلومات عن الفريق البرازيلي تكفي لملء مجلد كامل. ولكن الخطّة لم تتبلور. ماذا أفعل بهذه المعلومات؟ قرّرت أن أغفو إغفاءة قصيرة أواصل بعدها التفكير. دون أن أشعر امتدّت يدي إلى ورقة الرجل العجيب وبدأت أقرأ بصوت عال. قبل أن أكمل القراءة استغرقت في نوم عميق. وبدأ حلم غريب جداً، أكرّر غريب جداً. وجدت نفسي في غرفة تشبه غرفة مكتبي في لندن وأمامي غلام وسيم، ورديّ اللون، له شعر ورديّ كثيف يصل إلى كتفيه، ويرتدي غلالة ورديّة شفّافة. ابتسم الغلام الوردي، ورأيت أسناناً مُدبّبة بعض الشيء، بيضاء كاللؤلؤ، وقال:

ـ ألم تجد الخطّة بعد؟ الأمر بسيط جداً. اسمع. . .

في تمام الثانية وصل اللواء سالمين وقال بمجرد دخوله:

ـ نحن تحت تصرفك. أنا وأعضاء الجهاز.

قلت:

ـ أريد، فوراً، رجلاً، يتقن اللغة البرتغالية.

ـ البرتغالية؟! لماذا؟!

ـ هذا فريق برازيلي.

ـ إذن، فأنت تريد من يتقن اللغة البرازيلية؟

رئيس الإستطلاعات المبجّل لا يعرف أن البرازيليين يتحدثون بالبرتغالية. أعتقد أن هذه الأشياء تقع خارج اختصاصه. قلت:

ـ أريد من يتقن اللغة البرتغالية في أسرع وقت ممكن.

فكّر اللواء قليلاً، وقال:

ـ لدينا في الدولة عدة شركات برتغالية. وهناك عدد من الموظفين البرتغاليين.

ـ إذن، فأسرع وجيء بواحد منهم. وتأكّد أنه يمكن الاعتماد عليه، أنه لن يتكلّم.

بعد أقل من ساعة عاد اللواء سالمين بكابتن سفينة برتغالي. طلبت منه أن يكتب رسالتين بالبرتغالية، ورجوت أن تكون بخط واضح. فعل الرجل ما طلبته وانصرف. التفتُّ إلى اللواء سالمين، وقلت:

ـ كلّ شيء، أكرّر كل شيء، يعتمد على التوقيت، أكرّر التوقيت. بعد بدء المباراة بثلث ساعة أريد أن يستلم حارس المرمى البرازيلي هذه الرسالة. أريد أن يراها ولا تبقى معه، أكرّر يجب ألاّ تبقى معه. وبعد بدء المباراة بأربعين دقيقة، أكرّر أربعين دقيقة، أريد أن يستلم قلب الهجوم البرازيلي هذه الرسالة، ويجب ألاّ تبقى معه. هل تستطيع ترتيب ذلك؟

ابتسم اللواء سالمين، وقال:

ـ بسهولة. بكل سهولة. ألا يوجد شيء آخر؟

ـ هل يمكن إغلاق الخطوط الهاتفية مع البرازيل بمجرد استلام قلب الهجوم رسالته، إغلاقها لمدة نصف ساعة؟

ـ يمكن تدبير هذا بسهولة.

ـ حسناً! هذا كل شيء.

نظر اللواء سالمين إليّ باستغراب، وقال:

ـ ألا تريد أن تكون موجوداً في الملعب؟ أمر صاحب الجناب أن تخصص لك مقصورة تستطيع منها أن ترى كل شيء دون أن يراك أحد.

ـ أرجو أن تبلغ صاحب الجناب شكري العميق. لا مبرّر لحضوري. سوف

أتابع كل شيء عن طريق التيلفزيون.

ـ والتأثيرات الروحية؟ والسحر؟

ـ أستطيع أن أقوم بالمطلوب من هنا. المهمّ أن تقوم أنت بواجبك، أن تنفّذ ما طلبته منك حرفياً، أكرّر حرفياً.

خرج اللواء سالمين، وبقيت أذرع الجناح الواسع جيئة وذهاباً حتى بدأت المباراة. لم أشاهد، ولا أتوقع أن أشاهد، مباراة بهذه الأهمية. خسارة الفريق البرازيلي تعني «رولز رويس» وقصراً في الريف. وانتصار الفريق البرازيلي يعني أن يُلقى بي إلى أسماك القرش، نهاية لا تليق بفلكي روحاني لامع.

بدأت المباراة بداية أسوأ بكثير مما توقعت. بعد ٧ دقائق فقط من البداية تمكّن الفريق البرازيلي من إدخال هدف في مرمى الفريق العربستاني. عبرتْ على وجه صاحب الجناب الذي كان يتابع المباراة من الملعب سحابة قلق. وراء صاحب الجناب كان يقف اللواء سالمين ووجهه قناع حجري لا ينمّ عن أيّ عاطفة. بعد ثلث ساعة من بدء المباراة رأيت حارس المرمى البرازيلي يستلم الكرة من مراقب الخط الذي سلّمه ورقة بيضاء مع الكرة قرأ الحارس الرسالة وبدأ الحديث مع مراقب الخط الذي اختطف الورقة واختفى. بعد دقيقتين، بالضبط، هجم الفريق العربستاني على المرمى البرازيلي وسجّل هدفاً. جُنّ جنون الجماهير الحاشدة. حتّى صاحب الجناب نسي وقاره، ووقف يصفّق ويهتف. بدتْ على وجه الحارس البرازيلي علامات الدهشة المشوبة بألم. بعد الهدف الأول بعشر دقائق تمكّن الفريق العربستاني من تسجيل هدفٍ ثانٍ ـ وزأرت الجماهير. بعد الهدف بدقائق كان قلب الهجوم البرازيلي يتلقى الرسالة مع الكرة. استمر اللعب وكان من الواضح جداً، أن قلب الهجوم كان في حالة اضطراب لم تمكنه من قيادة الهجوم. تمكّن الفريق العربستاني من تحقيق هدف ثالث. جاءت الاستراحة، وشاهدت كلاً من حارس المرمى وقلب الهجوم يركضان معاً إلى خارج الملعب. بدأ اللعب بلاعبين جديدين حلاّ محل حارس المرمى وقلب الهجوم. ظلّت اللعبة في مدّ وجزر إلا أن النتيجة ظلت كما هي، وانتهتْ المباراة بفوز الفريق العربستاني.

تحوّلت العاصمة، بأسرها، إلى إحتفال كرنڤالي كبير: السيّارات تزمر، والنساء يزغردن، والرجال يرقصون. كانت السيّارة تشقّ طريقها، بصعوبة، إلى المطار. بجواري كان اللواء سالمين يقهقه، ويقول:

- أبدعت يا دكتور بصير! أبدعت! سحر بالبرتغالية؟

ابتسمت، ولم أعلّق. أخرج اللواء ظرفاً من جيبه قدمه لي، وقال:

- مع تحيات صاحب الجناب. ربع مليون جنيه. بقية المبلغ سوف تكون لديك الأسبوع القادم. والسيّارة.

أخذت الظرف. وقلت:

- أرجو أن تبلغ صاحب الجناب أني لن أنسى فضله ما حييت، أكرّر ما حييت، وكم أسعدني أن كلّفني بهذه المهمة وأنني كنت عند حسن ظنه.

عاد اللواء يقهقه، وقلت:

- سعادة اللواء! هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟

- بكل سرور.

- هل كان صاحب الجناب يمزح عندما قال إنه سيلقي بي إلى أسماك القرش لو فشلت؟

استمر اللواء يقهقه، وتجاهل سؤالي، وقال:

- سحر بالبرتغالية؟! حسبي الله عليك!

لم أجد من الملائم أن أشرح لسعادة اللواء أن الرسالة التي استلمها حارس المرمى كانت مكوّنة من جملة واحدة: «مارينا تنام، الآن، مع باولو، هذه اللحظة». مارينا هي زوجة الحارس، وباولو هو أعز أصدقائه. أما الرسالة التي استلمها قلب الهجوم فكانت تقول ببساطة: «ماريو صدمته سيارة وأخذ إلى غرفة العناية المركّزة». ماريو هو ابن اللاعب الوحيد. لم يكذب اللواء عندما وصف ما حدث بأنه سحر بالبرتغالية. أليس السحر هو التأثير الخفي في الناس؟

السبت

لندن

قضيت معظم اليوم في الفراش. كنتُ بحاجة إلى الراحة بعد التوتّر العصبي الهائل والسفر الطويل في الطائرة. كانت هيذر بقربي على السرير تحاول، بكل وسيلة، أن تثيرني. إلاّ أن كل جهودها ذهبت هباء. في الطائرة، خلال رحلة العودة، كنت مع كل إغفاءة، أكرّر كل إغفاءة، أحلم بالغلام الوردي الوسيم الذي كان يقول لي في كل حلم، أكرّر كل حلم «إيّاك أن تقرب هيذر». في النهاية،

فقدتْ هيذر الأمل، وأخذتْ كتاباً، وذهبت إلى الصالون تقرأ.

الأحد

ذهبت هيذر تزور صديقة من صديقاتها تسكن في ضواحي لندن، وبقيت، بمفردي، في الشقّة. قررت أن أواصل العمل في كتابي الجديد. وبدأت أكتب: «أسرار الرقم ٩». «الرقم ٩ هو ملك الأسرار بين الأرقام. يكفي أن نتذكر أن الرقم ٩ إذا ضُرب في ٩، أو في أيّ رقم آخر فإن الناتج سوف يكون، دائماً، عندما يُجمع، رقم ٩.

وعلى سبيل المثال:

٩ × ١ = ٩

٩ × ٢ = ١٨ = ٨ + ١ = ٩

٩ × ٣ = ٢٧ = ٧ + ٢ = ٩

٩ × ٤ = ٣٦ = ٦ + ٣ = ٩

٩ × ٥ = ٤٥ = ٥ + ٤ = ٩

٩ × ٦ = ٥٤ = ٤ + ٥ = ٩

٩ × ٧ = ٦٣ = ٣ + ٦ = ٩

٩ × ٨ = ٧٢ = ٢ + ٧ = ٩

٩ × ٩ = ٨١ = ١ + ٨ = ٩

٩ × ١٠ = ٩٠ = ٠ + ٩ = ٩

هذا والأشخاص الذين يشكّل رقم ٩ الرقم الرئيسي في حياتهم، وقد أوضحنا في فصل سابق كيفية إستخلاص الرقم الرئيسي من تاريخ ميلاد الشخص، يتمتّعون بمواهب روحية عديدة. وكثيراً ما ترى هؤلاء من المهتمين بخدمة الإنسانية، ومن الذين يعطون الكثير للآخرين. ورغم قدرة هؤلاء الأشخاص على نسيان الإساءة، إلاّ أنهم يجدون من الصعب عليهم قبول أيّ نوع من أنواع النقد.

ورقم ٩، عند العالمين بأسرار الأرقام، يرمز إلى أشياء كثيرة: يرمز إلى الإنسان نفسه، ويرمز إلى البقاء والصمود، ويرمز، عند السحرة، إلى الشيطان. الشيطان؟! كيف؟! رقم الشيطان المعروف هو ٦٦٦ فإذا جمعناه أصبح:

٦ + ٦ + ٦ = ١٨ = ٨ + ١ = ٩»

عندما بلغت هذا الحدّ شعرت برغبة لا تقاوم في تلاوة العزيمة. بدأت أقرأ

بصوت عال: «أعزم عليكم يا شمخيتا ويا تمثيا ويا شمخوتيا. . .». ما إن انتهيت من القراءة حتى وجدت الغلام الوردي الوسيم الذي رأيته في الحلم واقفاً أمامي يبتسم ويقول:

ـ أنا عطويت.

مدّ يده ليصافحني، ومددت يدي، وعندما تلامست يدانا شعرت بتيار كهربائي صاعق، وغبتُ عن الوعي. عندما أفقتُ وجدت نفسي مستلقياً على سريري، والغلام الوردي الوسيم يطبق بشفتيه على شفتيّ، ثم يهمس:

ـ لا تخف! لا تخف! يحدث الإغماء في المرة الأولى فقط.

٦

رجل الأعمال

فلا مَجد في الدنيا لمن قلَّ ماله
ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده
المتنبّي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: حربي بوخشمين الحرايبيبي

اسم الشهرة: هاي بيبي

المهنة: رجل أعمال

العمر: ٤٣ سنةٍ

الثروة: ٧٥٠ مليون دولار (تقريباً)

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: جميع أنحاء العالم

المؤهلات الدراسية: بكالوريوس إدارة أعمال ـ جامعة ستانفورد، ماجستير إدارة أعمال ـ جامعة هارفرد

الحالة الاجتماعية: متزوج

الأولاد: ولد واحد

الاثنين

نيويورك

قضيت الصباح، بأكمله، مع المحامين أبحث قضية جديدة رفعتها جمعية لحماية المستهلكين ضد مؤسسة «كاملبيرجر». تدّعي الجمعية أن «كاملبيرجر» تغش المستهلكين إذ توهمهم أنهم يأكلون لحم جمل، والحقيقة أنهم يأكلون لحوماً مُنوّعة. مؤسسة «كاملبيرجر»، التي أملكها بمفردي، لم تدّع، قط، أن البيرجر الذي يأكله المستهلك من لحم الجمل وحده. اكتفتْ المؤسسة بالتلميح الذي يشير إليه الاسم، ولم تقل غير ذلك. أنا ضد الخداع في التجارة. تعلّمت من المرحوم والدي ألاّ أكذب مهما كانت الظروف ومهما كانت الحوافز. كل الذين يتعاملون معي يشهدون أني أتعامل بطريقة شريفة. وُلدتْ فكرة كاملبيرجر أيام الدراسة في هارڤرد. طرحتُ في ندوة من الندوات الدراسية فكرة للمناقشة: إيجاد محلات تتخصّص في بيع نوع جديد من البيرجر يصنع من لحم الجمال. كانت مجرد فكرة. أعددت الورقة المعتادة بالبيانات المعتادة والإحصائيات المعتادة والإستبيانات المعتادة. فُوجئت وأنا أرى الأستاذ يصغي بكثير من الاهتمام. وفوجئت وأنا أرى الزملاء يطرحون سؤالاً بعد سؤال. قضيت عدة سنوات، بعدها، أجري التجارب مع مجموعة من الطباخين في سويسرا، مجموعة دولية تتكوّن من طبّاخ أمريكي، وطباخ هندي، وطباخ عربستاني، وطباخ سويسري (فرنسي). وصلنا، في النهاية، إلى التركيبة المثالية: ربعها لحم جمل، وربعها لحم خروف، وربعها لحم بقر، وربعها لحم دجاج. وتوصّلنا، بعد تجارب لا أول لها ولا آخر، إلى خلطة التوابل التي تعطي الكاملبيرجر لونه المميّز وطعمه المُميّز. بدأت بمحل واحد ونجح نجاحاً منقطع النظير. تبعته مطاعم

عديدة في كل العواصم العربستانية. انتقلت العدوى، بعد ذلك، إلى أمريكا. خلال أقل من ١٠ سنوات افتتح أكثر من ٥٠٠٠ محل. أصبحت «كاملبيرجر» كلمة معروفة في كل منزل. وتدفّقت الأرباح مع حقوق الامتياز التي كنت أمنحها، بكل سخاء، مقابل مبالغ سخية. وتأكّدتْ نظريتي التي كانت السبب الرئيسي في ثروتي. لا يمكن في عالم التجارة جمع الملايين إلاّ عن طريق أفكار جديدة. بضائع جديدة. طُرق جديدة للتسويق. طرق جديد للإعلان. إلاّ أن النجاح له ثمنه. في الولايات المتحدة لا يمكن أن تصبح مليونيراً دون أن تلاحقك الدعاوى القضائية. ولا يمكن أن تصبح مشهوراً دون أن تطاردك الصحافة. وقد حوّلني الكاملبيرجر إلى مليونير شهير. لا يستطيع الأمريكيون أن ينطقوا اسم عائلتي - الحرابيبي - وسرعان ما تحوّل الإسم، في الصحافة والتيلفزيون، إلى «هاي بيبي». وأعجبني الإسم. مستر هاي بيبي! لم لا؟ إسم جديد مبتكر. أكّد المحامون لي أن القضية الجديدة سوف تفشل كما فشلت كل القضايا السابقة (٢٦ قضية!). لم نبع لحماً فاسداً، ولم نكذُب. إذا اعتقد بعض المستهلكين أن البيرجر مصنوع من لحم الجمل وحده فهم أحرار في اعتقادهم. هل يعرف أحد تركيبة الهامبرجر؟ أكثر من نصفه شحوم وأمعاء وأعصاب. لن نخسر القضية الجديدة. ومع ذلك فالفريق القانوني يفضّل أن تُحلّ القضية ودياً. قلت لرئيس الفريق:

- مستر ليجليجل! ما دمنا سوف نكسب القضية فلماذا لا نذهب إلى المحكمة؟

- نستطيع أن نفعل ذلك إذا أردت، مستر هاي بيبي، ولكني لا أنصح باتباع هذا السبيل.

- لماذا؟

- جمعية حماية المستهلكين التي رفعتْ الدعوى جمعية معروفة ولها سمعة ممتازة في أوساط المستهلكين. وسوف تثير القضية ضجّة كبيرة في الإعلام تستمر ما دامت الدعوى منظورة. أخشى أننا سنربح المعركة ونخسر الحرب.

- ماذا تعني؟

- أعني أن الضجة الإعلامية قد تؤثّر على المبيعات، وتؤثّر عليها بشكل جدي.

- ونحن لا نريد ذلك.

- ونحن لا نريد ذلك.

- هل هناك اقتراح مُحدّد؟

ـ جاء الإقتراح من فريق الجمعية القانوني.
ـ وما هو؟
ـ سحب القضية مقابل تسوية مالية مناسبة.
ـ هذا إبتزاز واضح.
ـ الفريق لا ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية.
ـ وكيف ينظر إليه؟
ـ هذه جمعية خيرية ذات أهداف إجتماعية نبيلة والمحامون يعتبرون أيّ دخل إضافي يساعد الجمعية على تحقيق أهدافها دخلاً مشروعاً.
ـ حتّى لو جاء نتيجة ابتزاز؟
ـ مستر هاي بيبي! نحن معشر المحامين نحاول تجنّب الكلمات الإستفزازية.
ـ عين الحكمة! عين الحكمة! هل حدّدوا المبلغ؟
ـ مليون دولار.
ـ هذه سرقة في وضح النهار.
ـ وهذا ما قلناه لهم.
ـ وماذا كان رد فعلهم؟
ـ توصلنا، بعد مفاوضات صعبة، إلى نصف مليون دولار. هذا إذا وافقت، بطبيعة الحال.
ـ وأنت تقترح أن أوافق؟
ـ هذا رأي الفريق بالإجماع.
ـ مستر ليجليجل! لا يجب أن يبدو الأمر هزيمة لنا. يجب أن يسحبوا القضية بدون قيد أو شرط أولاً. بعد ذلك، بعد سحب القضية، يجيء المبلغ مني على هيئة تبرع. تبرّع! تبرع غير مشروط للجمعية.
ـ مستر هاي بيبي! كان يجب أن تكون محامياً.
ـ ماذا تعني؟
ـ أعني أن هذا، بالضبط، هو ما نجحنا في فرضه عليهم. تُسحب القضية بهدوء. بعد ٣ شهور من سحبها يجيء التبرّع بهدوء. لا إعلانات ولا تعليقات ولا تصريحات.
ـ حسناً! أنا موافق. ابدأوا الإتصالات فوراً.

لا مُبرّر للتأخير في صنع القرارات. أعتقد أن القرار الذي وصلت إليه هو القرار الصحيح. بوسعي أن أفكّر أسبوعاً أو شهراً أو سنة إلا أن المزيد من التفكير لا يعني المزيد من الحكمة. كل ما يعنيه التفكير الطويل ضياع الكثير من الوقت الثمين. وقد ضاع من وقتي الثمين مع فريق المحامين ما فيه الكفاية.

بمجرّد خروج الفريق بدأ إجتماعي مع المستر ياما شفتو ياما الذي حضر خصيصاً من طوكيو لهذا الإجتماع. قرّرنا أن ننهي موضوع سفن الرمال في الاجتماع. لا! لا! لا أقصد سفن الصحراء التي حوّلتها إلى بيرجر. أقصد فكرتي التي أعجبت المستر ياما شفتو ياما إلى درجة جعلته مستعداً للمساهمة في نصف رأس المال. فكرتي الجديدة! سفينة الرمال هي مزيج من السيارة العادية ومن القارب العادي. شكلها لا يختلف كثيراً عن شكل القارب. وموتورها لا يختلف كثيراً عن موتور السيارة. إلا أنها لا تتحرّك على عجلات، بل على زلاّجات شبيهة بالمستخدمة في التزلّج على الثلج. دلّت الدراسة الميدانية أن بوسعنا بيع ٦٠٠٠ وحدة في السنة الأولى وحدها. هدفنا التسويقي هم المراهقون الأغنياء، وفي عواصم عربستان البترولية لا توجد ندرة في هؤلاء. الاجتماع مع المستر ياما شفتو ياما لا يخلو من صعوبات. الرجل تجاوز الثمانين ويحتاج المرأ إلى الصراخ لكي يُسمِعه. وقد جاء ومعه ٢٠ مساعداً لا يتّخذ أي قرار إلاّ بعد أن يستشيرهم جميعاً. حتى جناحي الفسيح كاد يغص بفَطْس الأنوف. هاه! هاه! هاه! مجرّد نكتة. حقيقة الأمر أني أكنّ لبني اليابان الكثير من الإحترام. وأكنُّ لهذا البليونير العجوز إحتراماً خاصاً. استغرق الإجتماع ٧ ساعات وتمكنا في نهايته من الوصول إلى إتفاق. قرّرنا توقيع الاتفاقية الأولية في نيويورك وتوقيع العقد النهائي في طوكيو بمجرّد إنتهاء المحامين من مراجعة كل التفاصيل.

كلّ مرة أزور فيها طوكيو يدعوني المستر ياما شفتو ياما إلى نادٍ من نوادي الجيشا المشهورة، إلى سهرة تكلّف عشرات الآلاف من الدولارات. ولا بُدّ من ردّ التحية. لا توجد في هذه المدينة أندية جيشا، ولكن يوجد فيها الكثير من الصديقات. وهنا واحدة من أقدم صديقاتي، وندي پالمر، التي تعمل وكيلة لنجوم السينما والمسرح، أعني للفتيات اللاتي يحلمن بأن يصبحن نجوم سينما ومسرح. نجوم المستقبل! النجيمات! اتصلت بوندي وطلبت منها حشد أكبر عدد ممكن من الفتيات للحفل الذي سأقيمه في المساء تكريماً للضيف الياباني. لا بد أن يعرف المستر ياما شفتو ياما أن في العالم قوماً لا يقلّون كرماً عن بني اليابان.

كنت قد استأجرت الجناح الرئاسي الذي يتكوّن من طابق كامل خصيصاً للحفلة. جاءت وندي في الثامنة والنصف مساء. وجاء المستر ياما شفتو ياما ومعه ٧ مساعدين في التاسعة. ووصلت الفرق الموسيقية في التاسعة والنصف. وجاءت الفتيات في العاشرة. ٢٧ نجمة من نجمات المستقبل. ٢٨ أنثى مقابل ٩ رجال، نسبة لا بأس بها. بدأتْ الحفلة بكثير من الضجيج. ضجيج الفرقة. وضجيج الفتيات اللواتي اضطررن إلى الصراخ ليتمكن المستر ياما شفتو ياما من سماعهن. بعد قليل اختلت النسبة. بمجرّد أن اكتشفت الفتيات أن المستر ياما شفتو ياما يملك، ضمن ما يملك، شركة إنتاج سينمائي انصبّ الاهتمام عليه وحده. بقي المساعدون يتحدثون مع بعضهم البعض. ولم أجد قربي سوى وندي، الصديقة القديمة التي تحولت علاقتي الجسدية بها إلى علاقة أفلاطونية منذ عدة سنوات. أخذ المستر ياما شفتو ياما ينتعش. بدأ يرقص مع نجمة بعد نجمة. ويرقص كل الرقصات، من الروك أند رول إلى التانجو. وتقدّم الليل. وبدأتْ وندي تقبّلني. وبدأت أقبّلها. وأخذت تسحبني إلى غرفة من غرف الجناح الواسع. وأخذت أسمح لها بسحبي. قبل أن أدخل الغرفة، ألقيت نظرة أخيرة على الصالون. كانت الفرقة تعزف لحناً من ألحان الجاز، وكان المساعدون مجتمعين على هيئة مجلس إدارة. أما المستر ياما شفتو ياما فقد كان محمولاً، كالجثة، على أكتاف الفتيات المتجهات نحو غرفة أخرى. راودتني فكرة مزعجة: أن يكون قد مات من الرقص. بإمكانه أن يموت فيما بعد، بعد توقيع العقد النهائي. أمّا الآن فلا بدّ من التأكد من سلامته. حاولت أن أذهب لأراه إلاّ أن وندي جذبتني بقوّة إلى الغرفة، وأغلقت الباب بالمفتاح. لا شيء يعادل ضعف الجنتلمان أمام الصديقات القديمات.

الثلاثاء

نيويورك

تناولتُ طعام الإفطار، متأخّراً بعض الشيء، مع المستر ياما شفتو ياما الذي بدا أصغر بثلاثين سنة. اتضح أنه لم يصب بسكتة قلبية ولا بإغماء ولا بإعياء. تبادلنا التمنيات الطيبة ووقعنا على الأوراق. شكرني على كرم الضيافة «الذي لا ينسى» واتفقنا على لقاء قريب في طوكيو.

كان موعدي الثاني مع مندوبة مجلة «بزنسس ستارز». أكثر المجلات

المتخصصة مبيعات في الدنيا. قرّرت المجلة أن أكون الموضوع الرئيسي في عدد من أعدادها القادمة، وأن تكون صورتي على الغلاف، وتحتها هذه العبارة: «هاي بيبي: الرجل الذي حوّل الجمل إلى منجم ذهب». جاءت المندوبة، ديبورا كوزنز، وكانت مفاجأة سارة. أنا أكره المفاجآت ولكني أستثني السّارة منها. في الثلاثين. جميلة جداً. سمراء بعض الشيء. من بنات العم على الأغلب، مثل اسمها. وأنا لا أحمل أيّ عداء لأبناء العم، ولا لبناته. أنا رجل أعمال ولست رجل سياسة. والتجارة تذيب الفوارق السياسية، وتحمل معها الرخاء والمشاريع المشتركة والوئام. سرعان ما اكتشفت أن ديبورا امرأة جميلة ولكنها لا تتمتّع بالكثير من الذكاء. وأنا لا أبحث عن الذكاء عند النساء. أبحث عن الذكاء عند أساتذة هارفرد. وأبحث عن الجنس المثير عند النساء. وعن الصداقة، أحياناً. ولا بأس من المزج بين الصداقة والجنس، أحياناً. بدأت ديبورا تسألني عن طفولتي. لو قلت لها الحقيقة لما نشرت حرفاً واحداً. أنا لا أؤمن بالكذب ولكني أؤمن بالتحسينات. يحتاج الواقع، في بعض الظروف، إلى تحسينات. وهذا ما فعلته. قلت:

ـ مز كوزنز! طفولتي. . .

قاطعتني برقة:

ـ سمّني ديبورا!

ـ حسناً! طفولتي، يا ديبورا، تثير في ذهني الكثير من الصور المتناقضة، الكثير من الأحلام والكوابيس، الكثير من الجنّات والنيران. خذي قصتي مع الذئب، مثلاً. كنت. . .

شهقت ديبورا فجأة:

ـ الذئب؟! لك قصّة مع ذئب؟!

قلت بهدوء:

ـ كنت في العاشرة. وكنت المسؤول عن رعي جمال العشيرة. تصوّري طفلاً في العاشرة يرعى ٥٠٠ جمل. كنت بمفردي. لا أملك سلاحاً سوى عصا صغيرة. لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم ما حييت. عندما هجم الذئب الجائع. . .

شهقت ديبورا:

ـ ذئب جائع!! هذا مثير! هذا مثير جداً!

ـ كان يبدو عليه أنه لم يأكل منذ أسابيع. وماذا فعل؟ ماذا تظنين أنه فعل؟ ترك

الجمال وشأنها، وانقضّ عليّ. اختار الضحية الأضعف والأشهى. طفل في العاشرة، طريّ اللحم.

شهقت ديبورا وأخذت تردّد:

ـ يا إلهي! يا إلهي! وماذا حدث؟

ـ كان وجه الذئب فوق وجهي. وجدتُ أنيابه تتجه إلى عنقي، إلى عنقي مباشرة. رميت نفسي جانباً، وانغرزت أنيابه في ذراعي. انظري! انظري!

كشفت عن آثار جروح قديمة في ساعدي (جاءت نتيجة ضرب مُبرّح بجريد النخيل خلال درس من دروس المرحوم والدي التي علمتني الإنضباط والدّقة).

شهقت ديبورا:

ـ يا إلهي! يا إلهي! وما الذي حدث؟

ـ معجزة يا ديبورا. . .

قالت فجأة:

ـ سمّني دِبي!

ـ معجزة، يا دبي، معجزة حقيقية هي التي أنقذتني.

ـ معجزة؟!

ـ «بلاكي». الجمل الأسود.

ـ «بلاكي»؟!

ـ نعم. فحل القطيع. لا بُدّ أن تعرفي، يا دبي، أن القطيع يتكون من إناث ومن ذكر واحد، ذكر واحد فقط. وكان «بلاكي» هو الذكر.

شهقت ديبورا وقالت وهي تضحك:

ـ أوه! أوه! أوه! ذكر واحد و٥٠٠ أنثى! عرفت، الآن، من علّمكم كيف تتعاملون مع النساء. تعلمتم هذا من جمالكم. هاه! هاه! مجرّد مداعبة! قل لي ماذا حدث.

ـ أقبل «بلاكي» يهدر. يحدث أصواتاً كالرعد. هل سمعتِ جملاً يهدر؟ لم تسمعي؟ بالتأكيد. ولا أظن أنك تريدين أن تسمعي جملاً يهدر. أصوات قاصفة كالرعد. كالرعد تماماً. التفت الذئب إلى مصدر الصوت. في ثانية، في ثانية واحدة يا دبي، كانت أسنان «بلاكي» تطبق على عنق الذئب. سمعت صوت عظام تتكسّر. وخرّ الذئب ميّتاً. في هذه الأثناء، كنتُ قد أُغمي عليّ. أقبل عليّ

«بلاكي»، هذا الحيوان الحبيب الحبيب، يلعق وجهي بحنو حتّى أفقت.

شهقت ديبورا شهقة لا تختلف كثيراً عن هدير الجمل، وقالت:

ـ أووه! أووه! جمل يقتل ذئباً! هذا شيء مثير! هذا شيء مثير جداً! هل يحدث هذا دائماً؟

ـ لا بُدّ أنك تمزحين. هذه أول حادثة من نوعها في التاريخ. والأرجح أنها سوف تكون آخر حادثة. جرت العادة أن الذئب هو الذي يقتل الجمل. يهاجمه في بطنه. في الجزء الرخو من جسمه. لن أنسى جميل «بلاكي» ما حييت. هل تعرفين ما فعلت؟ صنعت له، بعد موته، تمثالاً وضعته في أكبر ميادين العاصمة. جعلت «بلاكي» شعار كل مؤسساتي. انظري! انظري!

أخرجت من محفظتي صورة جمل أسود هائل قدّمتها إلى ديبورا. وأنا أتمتم:

ـ ما أروعه! ما أجمله! ما أوسمه!

بدأت أمسح بالمنديل دموعاً وهمية. وأخذت شهقات ديبورا تتصاعد ثم بدأت تسكب دموعاً حقيقية غزيرة وهي تتأوّه:

ـ أووه! أووه! «بلاكي»! «بلاكي»! هذا المخلوق النبيل! هذا المخلوق الفريد! مستر هاي بيبي...

قاطعتها:

ـ دعينا من مستر، رجاءً!

ـ حسناً! حسناً! هاي بيبي! أنت مثل نادر للوفاء. مثل يستحيل وجوده هذه الأيام.

واصلتُ تجفيف دموعي الوهمية، ووضعت الصورة في محفظتي، وقلت:

ـ مهما فعلت أنا فلن أبلغ عُشر وفائه. عرّض حياته للخطر لينقذ حياتي.

طالت المقابلة أكثر من ٤ ساعات. وكانت مليئة بالشهقات والتأوّهات والدموع والضحكات. بغتة، أطل سكرتيري الخاص، الخاص جداً، الذي لا يرافقني في سفراتي سواه، برسام مرسام، ليذكّرني بأن موعد إقلاعنا إلى لندن يقترب. علينا أن نغادر الفندق خلال ساعة.

بلا تفكير قلت لديبورا:

ـ دبي! ما رأيك في مرافقتي؟

ـ أنا؟

ـ أنت.

ـ إلى أين؟

ـ إلى لندن.

ـ أنت تمزح، أليس كذلك؟

ـ لا أمزح. ولا يوجد متسع من الوقت للتفكير. يجب أن نغادر الفندق إلى المطار خلال ساعة.

ـ ولكن...

ـ سوف أرتّب كل شيء. سوف تكونين ضيفتي.

ـ تبدو الفكرة مغرية.

ـ وأنت تعرفين ما قاله أوسكار وايلد عن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الإغراء.

ـ الاستسلام له؟

ـ تماماً.

ـ تبدو الفكرة مغريةً جداً.

ـ إذن، استسلمي لها.

ـ ولكن...

ـ قلت لك إني سوف أرتّب كل شيء. بإمكانك العودة إلى نيويورك متى شئت. تستطيعين قضاء ليلة في لندن أو شهر أو أسبوع.

ـ ماذا عن قضاء ليلتين؟

ـ هذا قرارك وحدك. أمامنا ساعة واحدة.

ـ أعتقد أن بوسعي أن أذهب إلى المنزل وأعود بالجواز وحقيبة السفر خلال ساعة.

ـ رائع! رائع جداً! سوف يرتب برسام سيارة بسائق.

حقيقة الأمر أن برسام رتّب كل شيء. عندما أقلعت الطائرة، كانت ديبورا تجلس بقربي في الدرجة الأولى. لم يكن في تلك الدرجة سوانا، وبرسام الذي جلس في مقعد بعيد، وزوجين عجوزين يمسك كل منهما بيد الآخر.

الأربعاء

لندن

كانت رحلة لا تُصدّق. جاءت الشمبانيا، وجاء الكافيار. وجاء المزيد من الشمبانيا، وجاء المزيد من الكافيار. دفع برسام، كالعادة، لكل مضيفة الهدية المعتادة، ١٥٠٠ دولار، وكالعادة، حصلنا على خدمة تفوق الخدمة العادية. بدأت ديبورا تشرب. وتشهق. وتستمع إلى المزيد من مغامراتي الصحراوية. العقارب التي كنت آكلها عندما أجوع. أنثى الضبع التي أرضعتني، مرّة، وأنقذتني من الموت ظمأً. الغيلان. الجن. ثم انتهت وجبة العشاء. وخفتت الأنوار. ونام الزوجان العجوزان متماسكي الأيدي. واستمرت الشمبانيا تجيء. قلت لدبورا:

- دبي! هل سمعت عن «نادي الميل الواحد»؟

- «نادي الميل الواحد»؟ لا أظن. ما هو؟

- ألم تسمعي عنه إطلاقاً؟

- لا. ماذا عنه؟

- نادي الصفوة. صفوة الصفوة! أقلّ النوادي أعضاءً في العالم. لا يدخله إلاّ القليل. أقل من القليل.

- قتلني الفضول. ما هو هذا النادي؟

- هل تريدين، حقّاً، أن تعرفي؟

- نعم.

- حقاً؟! حقاً؟!

- هاي بيبي! أنت شقي! حقّاً! حقّاً! حقّاً!

- حسناً! «الميل الواحد» كناية عن الإرتفاع. البعد عن الأرض. الطيران. هل فهمت؟

- لم أفهم شيئاً.

- هل تريدين، حقاً، أن تعرفي؟

- حقّاً! أقسم لك...

- لا داعي للقسم. أصدّقك. أعضاء هذا النادي صفوة الصفوة. أولئك الذين مارسوا الحب على متن طائرة.

شهقت ديبورا، وقالت:

ـ أنت تجرّ ساقي. أليس كذلك؟

ـ لا أمزح. هناك ناد حقيقي. له سكرتارية حقيقية. وسجل سرّي بأسماء الأعضاء والعضوات. وحفلة تنكرية سنوية.

ـ وكم عدد الأعضاء والعضوات؟

ضحكت، وقلت:

ـ هذه معلومات سرّية. أنت لستِ عضوة في النادي. لو كنت عضوة. . .

قاطعتني:

ـ تقصد. . .

قاطعتها بدوري:

ـ نعم. ألم تشاهدي فيلم «ايمانويل»؟

ـ تقصد. . .

قلت ببساطة:

ـ نعم.

ـ الآن؟

ـ نعم.

ـ في الطائرة؟

ـ نعم.

ـ هاي بيبي! هل أخبرك أحد أنك مجنون؟

ـ كثيرون. ما رأيك؟

ـ الآن؟ في الطائرة؟

حسناً! كانت الأضواء خافتة. وكان الزوجان العجوزان نائمين. وكان برسام يشاغل المضيفات. وكان الحمام واسعاً. وشهقت ديبورا، وشهقت، وشهقت، وشهقت، وهي تدخل «نادي الميل الواحد». رحلة لا تنسى.

بعد نوم لم يطل، بدأ برنامج العمل بمواعيد مع رجال الأعمال البريطانيين الراغبين في الحصول على امتيازات بيع الكاملبيرجر. لا توجد، في الواقع، مفاوضات. عليهم أن يقبلوا عقد الإمتياز بكل ما فيه. سبق أن أجريت دراسة دقيقة عن كل واحد منهم، وتأكّدت من سلامة وضعه المالي. كان هناك ٥ زبائن،

جاءوا الواحد بعد الآخر، وقّع كل منهم العقد، ووقّع شيكاً بالدفعة الأولى. وخرج كل منهم يتأبّط العقد، وكأنه يحمل كنزاً ثميناً. حقيقة الأمر، أن كلاً منهم كان يتأبّط كنزاً ثميناً. حتى هذه اللحظة، بحمد الله، لم يخسر مطعم واحد من مطاعمي، ولا مطعم واحد.

أعطيت ديبورا ٢٠,٠٠٠ جنيه نقداً وأرسلتها تتسوّق مع برسام. شهقت ديبورا ـ لا بد أن أسميها المرأة الشاهقة ـ وهي تستلم المبلغ، وقالت:

ـ هاي بيبي! هل أخبرك أحد أنك مجنون؟

ـ نعم. أعضاء «نادي الميل الواحد».

ـ هاي بيبي! أنت شيطان. شيطان ماكر. تعرف كيف تسكر الفتيات البريئات، وتستغلّ طيبتهن.

شهقتُ، ولم أقل شيئاً.

قضيت فترة ما بعد الظهر في اجتماع مجلس إدارة «بنك الصحراء القرمزية». رئيس المجلس عربستاني عجوز لا يقل عمره عن عمر المستر ياما شفتو ياما. افتتح الرئيس الاجتماع كالعادة، ثم نام في مقعده، وترك إدارة الاجتماع لي. يضم البنك مساهمين من ١٧ دولة، ويضم مجلس الإدارة أعضاء من ٩ دول. عرضتُ على المجلس تقريراً موجزاً عن نشاط البنك خلال الشهور الستة الماضية. تجاوزت الأرباح الصافية ١٥٠ مليون دولار، والسنة لا تزال في منتصفها. تلقيت التهاني المعتادة. وكان النقاش في معظمه، كالعادة، ثناءً على شخصي المتواضع. إلا أنني فوجئت بصوت نشاز، عضو مجلس الإدارة الجديد، صبوح الدرهمان، يطلب الكلمة وبدلاً من الإطراء قال كلاماً لم أتعود على سماعه من قبل:

ـ يا أخ حربي! ذكرت أن قسم الاستثمارات الإسلامية شهد توسّعاً كبيراً في نشاطاته وأن معظم الأرباح جاءت من. . .

قاطعته:

ـ هذا صحيح.

قال:

ـ إلا أننا لا نعرف تفاصيل الإستثمارات.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أننا عرفنا حجم الأموال المستثمرة، وعرفنا الأرباح، ولكننا لم نعرف

أين استثمرت الأموال.

ـ هذه، يا أخ صبوح، معلومات سرّية.

ـ حتى على أعضاء مجلس الإدارة؟!

ـ أعتقد أن أعضاء المجلس الموقّرين كانوا يحصلون، دوماً، على المعلومات التي يجب أن يحصلوا عليها، ولا يزالون. إلا أننا، من حيث المبدأ، لا نخوض في تفاصيل الإستثمارات، لا الإسلامية ولا غيرها.

ـ فيما يتعلق بالإستثمارات العادية لا تهمّ التفاصيل. أنا أتفق معك ١٠٠٪. أما فيما يتعلق بالإستثمارات الإسلامية فالوضع يختلف. المسألة مسألة ذمّة. لا بُدّ أن نعرف...

قاطعته بخشونة:

ـ هل تعتقد أننا نوجّه هذه الاستثمارات لشراء كازينوهات قمار في لاس ڤيجاس؟

احمرّ وجه العضو وقال بإنفعال لم يحاول إخفاءه:

ـ يا أخ حربي! المعذرة! لم أقصد التشكيك في نزاهة البنك أو نزاهة الإدارة. ولكن يجب أن تتذكر أن هذه ليست أموالي أو أموالك. هذه أموال مسلمين يودون توجيهها إلى استثمار حلال. الموضوع يتعلّق بالذمّة.

ـ صدقت. ولأن الموضوع يتعلّق بالذمّة، وإبراءً للذمة، أوجدنا هيئة الرقابة الشرعية. كل استثمار إسلامي يعرض على الهيئة.

ـ العفو يا أخ حربي! إذا كانت هيئة الرقابة تطّلع على تفاصيل الاستثمارات الإسلامية، فلماذا تُحجب هذه التفاصيل عن مجلس الإدارة؟

ـ يا أخ حربي! أنت عضو جديد في المجلس وهذا هو الاجتماع الأول الذي تحضره. بعد فترة، سوف تعرف كيف يعمل البنك. نحن لا نعرض على هيئة الرقابة الأرقام. نحن نعرض عليها طبيعة الإستثمار. لنفترض أننا أردنا أن نستثمر في منجم ماس لم يبدأ...

قاطعني العضو الموقّر. قاطعني أنا، أنا الذي لم يقاطعني عضو موقّر من قبل. قاطعني العضو الموقّر الذي ذكرني أن الأموال ليست أموالي. العضو المُوقّر الذي يجب أن يوضع في مكانه الحقيقي. العضو الموقّر الذي اندفع الآن صارخاً:

ـ في رأيي، يجب أن يحصل أعضاء هذا المجلس على كافة المعلومات التي يريدون...

قاطعته بحدة:

ـ يا أخ صبوح! هل أنت متخصّص في الشريعة؟

ـ لا. ولكن...

ـ هل تعتقد أن المستثمرين الكرام سوف يطمئنون إلى رأيك الذي لا يستند إلى أي خلفية شرعية أكثر من اطمئنانهم إلى آراء العلماء الأجلاء...

ـ ولكني أطلب الأرقام ولا...

قلت بحزم:

ـ أعتقد أن الموضوع أخذ حقّه من النقاش، وأصبح جاهزاً للتصويت. أرجو من حضرات الأعضاء الموقّرين الذين يرون أنه يجب عرض تفاصيل الإستثمارات الإسلامية على المجلس أن يتفضلوا برفع أيديهم.

ظلت كل الأيدي في مكانها، ما عدا يد صبوح الدرهمان التي ارتفعت عالية، وبقيت عالية في تحدٍّ واضح.

تجاهلت يده، وقلت:

ـ حسناً! أعتقد أن الموضوع حُسم، وبما يقارب الإجماع. سوف نستمرّ في السياسة الحالية حتى يصدر قرار مختلف من المجلس الموقّر.

قررت، بيني وبين نفسي، التخلص من العضو الجديد. وقرّرت، بيني وبين نفسي، أنه من الضروري تخديره، مؤقتاً، حتى لا يتنبه إلى الخطر المقبل. ابتسمتُ ابتسامة عريضة، ونظرت إلى العضو الموقّر، وقلت:

ـ ومع ذلك فالنقطة التي أثرتها، يا أخ صبوح، وجيهة، وجيهة جداً. سوف أرتّب لك اجتماعاً مع هيئة الرقابة وسوف تتّضح لك الكثير من الأمور. وسوف أرتب لك اجتماعاً آخر مع مدير قسم الاستثمارات الإسلامية الذي سيجيب على كل أسئلتك. إذا تبقت لديك أي أسئلة فسوف أجيب عليها بنفسي.

لن أفعل شيئاً من هذا، بطبيعة الحال. إلاّ أن كلماتي وقعت موقعاً حسناً من الأعضاء الموقّرين، وهدّأت ثائرة العضو الفضولي، ظاهرياً على أية حال. استمر النقاش المعتاد، ثم أحلتُ إدارة الجلسة إلى الرئيس الذي أعلن، كالعادة، إنتهاء الإجتماع.

في المساء جاءت ديبورا ترتدي فستاناً جديداً من الفساتين التي اشترتها ذلك الصباح، فستاناً مثيراً يكشف كل شيء تقريباً. قرّرت، بمجرد رؤية الفستان، أن

آخذها معي إلى حفلة صديقي شاهر نتّاش. شاهر شخصية ظريفة جداً. إكتشف فكرة جديدة جعلته من كبار الأثرياء. برهان جديد على صحة نظريتي: لا ثروة طائلة إلاّ بأفكار مبتكرة. وماذا كانت فكرة شاهر؟ الإستثمار في الحفلات! يقيم شاهر كل ليلة، كل ليلة!، حفلة ويدعو إليها الجميع: الأثرياء والفقراء، المشاهير والمغمورين، نجوم السينما ونجوم المجتمع، نجوم الأدب ونجوم السياسة، والكثير من الفتيات الجميلات من كل جنسية. ويُقدّم أفخر أنواع الطعام، وأفخر أنواع الشراب. وهناك فرقة موسيقية عربستانية، وأخرى غربية. عندما يجتمع هذا العدد الكبير من الأشخاص في هذا الجوّ المُزيّت بالكحول والشراب والموسيقى، فلا بُدّ أن يتبلور عدد كبير من الصفقات الضخمة والصغيرة. صفقة بين صاحب بنك ومستثمر. وأخرى بين منتج سينمائي ونجمة. وثالثة بين بليونير وبليونير. تدريجياً، أصبح شاهر مساهماً في عدة شركات كبيرة دون أن يدفع شيئاً. يسمع بخبر الصفقة التي تُعقد في منزله قبل أي إنسان آخر. وهناك، على الدوام، مدير بنك مستعدّ لتقديم القروض اللازمة. أصبحت حفلات شاهر جزءاً لا يتجزأ من النشاط التجاري في لندن. أعتقد أنه باستثناء البورصات لا يوجد مكان في العالم يشهد من الصفقات ما تشهده حفلات شاهر. والمنزل الكبير يضج، الآن، بالموسيقى. ويعجّ بعشرات الضيوف. استقبلني شاهر بالعناق والقبلات وأقسم أن الحفلة أقيمت على شرفي. تظاهرت بالتصديق. بدأت ديبورا تصغي، بإهتمام، إلى الموسيقى العربستانية. قرّرتُ أن الوقت قد حان لتعلّم الرقص الشرقي. وتطوع شاهر، على الفور، بتدريبها وأخذها معه إلى منتصف القاعة. فجأة قفز أمامي صديقي رافع رفعت:

ـ هاي بيبي! هاي بيبي! يا للمفاجأة السعيدة! متى وصلت؟

ـ هذا الصباح.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

ـ كنت واثقاً أنني سوف أراك هنا. هل من جديد؟

ـ بكل تأكيد. بكل تأكيد.

جرّني رافع جرّاً إلى غرفة من الغرف الصغيرة المنتشرة عبر المنزل وأغلق الباب. أخرج سيجاراً قضمه، وأشعله وانطلق الطوفان اللفظي الشهير:

ـ اسمع يا هاي بيبي! قلت لك اسمع! هذه فرصة لا تعوّض. قلت لك: لا تعوّض! هل تسمعني؟ فرصة استثمارية نادرة. لم أعرضها، بعد، على أحد.

هناك الكثير من المستثمرين الراغبين ولكني لم أعرضها على أحد. قلت لك إنها فرصة نادرة. فندق سياحي من ٥ نجوم في هافانا. هافانا! عاصمة كوبا. هل سمعتني؟ جنة السياحة الجديدة. آلاف السواح يتدفقون عليها كل ساعة. من كل مكان. وهناك شخص مُقرّب من الرئيس كاسترو. صديقه. لا أستطيع أن أخبرك باسمه الآن. قد أخبرك فيما بعد. المهم أن هذا الصديق رتّب...

استمر الطوفان وأنا أتظاهر بالاهتمام. لا أعتقد أن الاستثمار في فنادق سياحية في أي مكان فكرة تستحق كل هذه الحماسة. كل الناس يستثمرون في فنادق سياحية. الأرباح مضمونة ولكنها متواضعة حتى في أنجح الفنادق التي أملكها. لا تجيء الأموال الحقيقية إلاّ مع أفكار جديدة. انتهزت فرصة إنشغال رافع بإشعال سيجار جديد وهربت من الغرفة وأنا أعده أنني سأفكّر، جدّياً، في الموضوع.

عندما عدت إلى القاعة الرئيسية كان الجميع يقفون، مذهولين، يتأملون ديبورا ترقص رقصاً شرقياً مثيراً وكأنها ترعرعت في بيت تحية كاريوكا. تركت ديبورا ترقص، وتسللت خارجاً من المنزل. في الفندق، كانت هناك صديقة قديمة في انتظاري، صديقة تحولت علاقتي بها إلى صداقة أفلاطونية منذ سنوات عديدة.

الخميس

لندن

جاءني هذا الصباح صديقي شكري ياسر وناقشنا المشروع الصناعي الجديد الذي ننوي تنفيذه معاً، «البشوت التي تستخدم مرة واحدة فقط». البشوت الدسبوزبل! حقيقة الأمر أنه يمكن ارتداء البشت ٣ أو ٤ مرات. فكرة جديدة مدهشة من بنات أفكاري. لاحظت أن استخدام البشوت بدأ يتزايد في العواصم العربستانية، وخاصة البترولية. والسبب هو الهوية الثقافية والحضارية وما إلى ذلك (المال لا يعرف الهويّة ولكن تلك قضية أخرى!). ولاحظت أن كثيراً من العربستانيين يشترون البشت ولا يستخدمونه إلا نادراً، مرّة واحدة في السنة، أو مرّة واحدة في العمر (في الزواج غالباً). من هنا نبعت الفكرة. صناعة بشوت زهيدة الثمن تستعمل مرّة أو مرّتين ثم تُرمى. التقنية، كالعادة، من اليابان. وصلنا بعد الكثير من البحوث والتجارب إلى مرحلة متطوّرة. لا يختلف البشت المؤقت، في مظهره، كثيراً عن البشت العادي. لا بُدّ للعين الخبيرة أن تتأمّله عن كثب لتعرف الفرق. شكري ياسر، مثلي، تستهويه الأفكار الجديدة. قبل سنوات

بدأتُ معه أول شركة لتأجير البشوت. مقابل مبلغ زهيد جداً تستطيع أن تستأجر بشتاً فاخراً ثميناً لمدة ليلة أو لمدة أسبوع. نجحت الفكرة نجاحاً هائلاً وجنينا الكثير من الأرباح. إلاّ أن المقلّدين انقضوا، كالعادة، على الفكرة الناجحة. ظهرتْ محلات تأجير البشوت في كل مكان، وانسحبنا من الميدان. أنا واثق أن المقلّدين سوف ينقضون على فكرتنا الجديدة إلا أنهم عندما يلحقون بنا نكون حققنا أرباحاً طائلة وانتقلنا إلى أفكار جديدة. استعرضت مع شكري آخر تطورات المشروع واتفقنا على اللقاء في طوكيو لاختيار الألوان والبدء في الإنتاج.

كان موعدي الثاني مع الأستاذ مسعود أسعد، المبتزّ الشهير، صاحب الوريقة الصفراء «صوت الحقيقة»، الذي يسمّي نفسه مؤسس الصحافة العربية المهاجرة. حاول هذا الوغد ابتزازي عدة مرات، ولم يفلح. نشر، ذات مرة، صورتي مع امرأة في ملهى ليلي فأرسلت له صورتي مع نفس المرأة ونحن عاريان، ورجوته أن ينشر الصورة. نشر، مرّة، خبراً عن صفقة سرّية من صفقاتي وهدد بنشر التفاصيل فسبقته إلى نشرها كاملة في مؤتمر صحفي. إلا أنني اكتشفت أن هذا الرجل الذي فشل في ابتزازي قد ينجح في إعطائي معلومات نافعة وبدأت التعاون معه على هذا الأساس. هو يبيع المعلومة وأنا أشتريها. ترتيب مريح ومربح للطرفين معاً. والوغد يعرف أني لا أهتم بالفضائح الجنسية. ولا بالمآسي العائلية. ولا بأخبار المدمنين والمدمنات. كل ما يهمني هو الأسرار التجارية لأشخاص معينين. جلس، وشرب القهوة، وبدأت نشرة الصباح. قاطعته:

ـ مسعود! استمعت، قبل مجيئك، إلى كل نشرات الصباح. لا يهمني أن أعرف من يضاجع الدولة العبرية ومن يحاربها. ولا أود أن أعرف من يتاجر بالسلاح الأبيض ومن يتاجر بالرقيق الأبيض. ولا أريد أن أعرف أي ثريّ نام مع أي خادمة. طلبي محدّد جداً.

ـ في أمرك أستاذ هاي بيبي.

ـ هناك عضو جديد في مجلس إدارة. . .

قاطعني:

ـ عضو مشاغب اسمه صبوح الدرهمان.

نظرت إليه بإعجاب، وضحك وهو يقول:

ـ الجدران لها آذان. والبشر، أيضاً. هدّد بإزاحتك من مجلس الإدارة. كرّر التهديد في أكثر من مجلس مليء بالناس.

ـ الصعلوك! الصعلوك الحقير! أنا أكبر مساهم في البنك، وأتحكم في أكبر كتلة من الأصوات. كيف ينوي الصعلوك إزاحتي؟

ـ ينوي إثارة ضجة كبيرة تنتهي بثورة المساهمين وبإستقالتك. يود أن يطرح قضية الاستثمارات الإسلامية. يقول إن لديه معلومات مؤكدة موثقة تثبت أن الأموال التي يدفعها المسلمون الأتقياء للبنك لتستثمر في مجالات الربح الحلال توجه إلى مجالات أبعد ما تكون. . .

قاطعته:

ـ حسناً! حسناً! يبدو أنه من المتطرفين. أريد معلومات كافية وافية عن هذا الصعلوك.

ـ تقصد، أستاذ هاي بيبي، أنك تريد من المعلومات ما يكفي للقضاء على سمعة صبوح الدرهمان وإنهاء مصداقيته؟

ـ أنت تفهمني تماماً.

ـ ولكن هناك كثير من الصعوبات التي. . .

ـ وأنا أفهمك تماماً. ما هو السعر؟

ـ لا أدري.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا توجد، تحت يدي الآن، المعلومات التي تحتاج إليها. هناك إشاعات كثيرة. هناك أقوال غير مؤكدة. لا بد من التحرّي الدقيق للوصول إلى. . .

ـ ١٠٠,٠٠٠ جنيه؟

ـ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه.

ـ ١٥٠,٠٠٠ جنيه. آخر كلمة!

أخذ مسعود أسعد الشيك وصافحني، وخرج. بعد خروجه ذهبت إلى الحمام وفركت يدي التي صافحته بالكلونيا حتى احمرّت.

كان الموعد التالي مع طبيبي الخاص البروفسور جايلز ميدلاند. منذ فترة طويلة وأنا أبحث مع البروفسور فكرة التبرع لقسم في المستشفى الذي يعمل فيه، قسم يحمل إسم المرحوم والدي، ويخلّد ذكراه. اقترح البروفسور، من قبل، إنشاء جناح للقلب، ورفضت. ثم عاد واقترح إنشاء جناح للسرطان، ورفضت. أخبرته خلال الاجتماع بقراري النهائي: لا بُدّ أن يكون الجناح مخصصاً للأمراض التي

عانى منها المرحوم والدي دون غيرها. وافق البروفسور وخرج وفي جيبه شيك بمبلغ نصف مليون جنيه تخصُّص لإنشاء جناح جديد في مستشفى «سينيك كلينك»، جناح يحمل اسم «قسم الشيخ أبو خشمين الحرايبيبي لعلاج الإمساك والباسور والناسور».

دخلت ديبورا ترتدي فستاناً مثيراً جديداً وقبّلتني، وشهقت، وقالت:

ـ هاي بيبي! هاي بيبي! كانت سهرة رائعة حقاً. هل تعرف أني رقصت حتى الصباح؟ حتى الصباح!

ـ كان الجميع معجبين برقصك.

ـ حقاً؟ أنت تجاملني. حقاً؟

ـ حقاً! كان رقصاً لم أر مثله في حياتي.

شهقت ديبورا، وقالت:

ـ حقاً؟

ـ كان رقصاً من ألف ليلة وليلة.

ـ مرّ الوقت دون أن أشعر. بحثت عنك ولم أجدك. أين اختفيت؟

ـ لم أختف. في منتصف الليل شعرت بإرهاق شديد وعدت إلى الفندق، ونمت. كنت أعرف أنك في أمان بين أصدقاء أعزّاء. بالمناسبة، متى تودين أن تعودي؟

ـ أعود؟

ـ هل نسيت أنك جئتِ لقضاء ليلتين فقط؟

ـ لم أنسَ. ولكن هل بالإمكان أن أغيّر رأيي؟ هل أستطيع قضاء ليلتيْن إضافيتين؟

ـ بكل سرور. سأرتّب الأمر مع الفندق. أنا مسافر الليلة كما تعرفين.

ـ هاي بيبي! عدني أنك لن تغضب. أريد أن أقول لك شيئاً ولكن أريد أن تعدني أنك لن تغضب.

ـ أعدك. لن أغضب.

ـ حقاً؟ حقاً؟

ـ حقاً!

ـ تعرّفت خلال السهرة على جنتلمان رقيق قدم لي...

قاطعتها برفق:

ـ قدّم لك وردة حمراء، ودعاك إلى عشاء رومانسي هذا المساء في النهر على قاربه.

شهقت ديبورا، وقالت:

ـ كيف؟ كيف عرفت؟

ـ رافع صديق قديم من أعزّ أصدقائي. لا يزال يؤمن بالمنهج الرومانسي في التعامل مع الفتيات الجميلات.

ـ هل تغضب لو بقيت مع صديقك الرومانسي يوماً أو يومين؟

ـ على العكس تماماً. هذا يسعدني. أكثر مما تتصورين.

أنقذتني رومانسية رافع. كنت أخشى أن تتحول ابنة العم الشاهقة إلى عبء ثقيل يصعب التخلّص منه. لا شيء أثقل من إمرأة حققت غرضها. دعوتها إلى تناول الغداء معي في مطعم «الغابة الإستوائية». المكان مليء بالحيوانات والرعود والبريق والزئير. كانت ديبورا تتأمّل ما حولها بدهشة طفلة بريئة وتشهق كلما زأر أسد.

بعد الغداء ذهبت أزور صديقي الشهير بصير العارف في مكتبه الشهير ذي الغرف العجائبية المتنوعة. استقبلني بحرارة بالغة. واستقبلتني صديقته هيذر بعناق حار (العلاقة القديمة التي تحولت أفلاطونية، وما إلى ذلك!). منذ أكثر من سنة وأنا أبحث مع بصير فكرة مثيرة جديدة: «طارد الجن». لاحظت أن لدى الكثير من أثرياء عربستان خوفاً شديداً من تدخّل الجن في حياتهم. ولاحظت أنهم على استعداد لدفع مبالغ كبيرة في سبيل حماية أرواحهم وثرواتهم، خصوصاً ثرواتهم، من هذا التدخل السفلي. اتفقت مع بصير على صنع آلة تُسمّى «طارد الجن». آلة بحجم الراديو الترانزستور الصغير. تحمل من الخارج الكثير من الرسوم الشيطانية المعقدة. وفي داخلها ترتيل بصوت بصير، ترتيل مخيف غير مفهوم. على كل آلة ضمان بتوقيع بصير أن الجهاز كفيل بطرد الجن من أيّ منزل يوضع فيه. لا يكلّف إنتاج الجهاز الواحد أكثر من عشرين دولاراً، وبالإمكان بيعه بأكثر من ٢٠,٠٠٠ دولار. قطعنا شوطاً كبيراً في التصميم. كان بصير متحمساً للفكرة بقدر حماستي. إلا أنني لاحظت، اليوم، أن هذه الحماسة بدأت تتطاير، قال بعد تفكير عميق:

ـ هاي بيبي! لديّ تحفظات.

قلت مذهولاً:

ـ تحفظات؟! الآن؟! ماذا تقصد؟

ـ هناك جنّ. وهناك جنّ.

ـ عفواً؟!

ـ أعني أنه لا يجوز أن نساوي بين الجنّ في المعاملة. هناك أخيار، وهناك أشرار.

ـ أخيار وأشرار؟! بصير! دكتور بصير! نحن نتكلم عن مشروع تجاري لا توجد بينه وبين الجن، أخياراً أو أشراراً، أيّ علاقة. نحن نبيع الناس فكرة، لا أكثر ولا أقل.

ـ هذا صحيح. ولكن بعض الأخوة من الجن غير مرتاحين من الفكرة.

بعض الأخوة من الجن؟! ماذا جرى لعقل بصير؟ كنا، أنا وهو، نعرف منذ البداية أننا بصدد جهاز لا يطرد شيئاً، حتّى من الحشرات. ماذا حدث؟ قلت:

ـ بصير! أرجوك!. لا تمزح معي. أنا لا أمزح في الأمور التجارية. أمزح في كل شيء إلاّ الأمور التجارية.

ـ هاي بيبي! أنا جاد. جاد تماماً. بعض الجن الذين أثق فيهم نصحوني بالتخلّي عن الفكرة.

ـ التخلي عن ملايين الدولارات؟!

ـ هذه هي النصيحة التي تلقّيتها.

قلت بغيظ لم أحاول كتمانه:

ـ وهل تسمح بإخباري كيف وصلتك النصيحة؟ بالفاكس أو عبر «الأنترنت»؟!

إحمرّ وجه بصير، وقال بصوت مرتعش:

ـ أرجوك! أرجوك! لا أستطيع أن أجيبك.

ـ أفهم أنك قررت الانسحاب من المشروع نهائياً؟

ـ نعم. هذا هو قراري، ولا رجعة فيه. آسف، يا صديقي، على الإزعاج الذي سبّبته لك. وفيما يخص التكلفة...

قاطعته:

ـ لا إزعاج ولا تكلفة. سوف أنفّذ الفكرة مع فلكي روحاني غيرك، لا يتلقّى نصائح من الجن.

قلت هذا لأريح ضمير بصير. حقيقة الأمر أن الفكرة ماتت بقراره. لا يوجد

فلكي روحاني يتمتع بالشهرة التي يتمتع بها بصير بين العربستانيين. لن يثق المستهلكون بجهاز يحمل ضماناً من فلكي روحاني آخر.

كلّ مرة أزور فيها بصير يطلب مني أن أختار اسم امرأة استعصت عليّ، ويؤكد أنه سوف يذيب مقاومتها. أخذني، كالعادة، إلى غرفة العشق، ووقفنا أمام مجمرة هائلة تنفث دخاناً أسود يدير الرؤوس. كالعادة، كتبت اسم جلنار على ورقة طويتها وقدمتها له. كالعادة، ألقى بصير الورقة في المجمرة دون أن يقرأ الإسم، حدّق في الجمر قليلاً ثم قال:

ـ النتيجة مضمونة. سوف تجيء إليك بنفسها. سوف تتلقى منها، فجأة، مكالمة تيلفونية.

نزلت هيذر تودّعني وقلت لها:

ـ هيذر! ماذا جرى لبصير؟ ما قصّته؟

عبرت على الوجه الأسكتلندي الوسيم سحابة من الحزن وقالت:

ـ هاي بيبي! صديقك في ورطة. بدأ يتصور أنه يستطيع التخاطب مع الجن. يعتقد أن لديه صديقاً جنياً.

ـ هيذر! هذه علامات خطر، خطر حقيقي. ماذا تنوين أن تفعلي؟

ـ لا أستطيع عمل شيء. كلما فتحت معه الموضوع قال إني مضطربة نفسياً وأحتاج إلى علاج.

ـ هيذر! خذي الحذر.

ـ أحاول جهدي. أحاول جهدي.

في المساء ودعتني ديبورا بقبلة حارة عنيفة. ثم همست في أذني:

ـ أرجو أن تكون الدرجة الأولى مليئة بالركّاب.

ضحكتُ، وأخرجتُ من جيبي بطاقة صغيرة وضعتها في يدها.

قالت مستغربة:

ـ ما هذه البطاقة؟

ـ عنوان «نادي الميل الواحد». تذكّري أن العنوان معلومة سرّية جداً لا يجوز أن يطّلع عليها أحد غير الأعضاء.

بدأت تنظر إليّ بدهشة بالغة، وقالت:

ـ عنوان النادي؟! «نادي الميل الواحد»؟!. إذن، لم تكن تمزح؟

- لم أكن أمزح. هذا عنوان النادي، أراك في الحفلة السنوية.

عندما غادرت الجناح كانت ديبورا لا تزال تشهق.

الجمعة

العاصمة. عربستان X

بمجرد وصولي إلى الفندق تحدّثت، كالعادة، مع زوجتي ضويحية. عندما أكون في الوطن أقضي معها يوماً واحداً في الأسبوع، يوم الجمعة. وعندما أكون مسافراً أتحدث معها بالتيلفون مرة واحدة في الأسبوع، يوم الجمعة. ضويحية من بنات العم، أعني العم الحقيقي. اخترتها، بعناية شديدة، عندما أنهيت دراستي وبدأت الأعمال التجارية. وضعت دراسة جدوى تفصيلية لكل المرشحات حتى استقر عليها الرأي. لا بأس بذكائها، ولا بأس بجمالها. تحمل شهادة التوجيهية. بعد كتْب الكتاب وقبل الزفاف شرحت لها قواعد اللعبة بالتفصيل. أخبرتها أن بوسعها الانسحاب قبل أن يحدث شيء. قلت لها إنني سأسكن في ڤيلا منفصلة، وتسكن هي في ڤيلا منفصلة، وإذا جاء أولاد سوف تكون لهم ڤيلا منفصلة. كل حاجاتها المادية، بلا استثناء، سوف تُلبّى. تستطيع أن تكمل دراستها، وتستطيع أن تمارس أي هواية تختارها. تستطيع أن تقضي أوقاتها في النوم أو لعب الشطرنج أو قراءة كتب أرسطو. اللقاء مرّة، مرّة واحدة فقط، في الأسبوع. الجنس مرّة، مرّة واحدة فقط، في الأسبوع. لا شأن لها ببقية أيام الأسبوع، ولا ببقية جوانب حياتي. لا تحقيقات ولا إستجوابات. قبلتْ الشروط وسار كل شيء على خير ما يرام. أعتقد أنني بدأت أحبها، بطريقتي الخاصة. وأعتقد أنها بدأت تحبني، بطريقتها الخاصة. ثم جاء الولد، محارب. وضعته في ڤيلا منفصلة وخصصت للعناية به ٣ مربيات، واحدة من اليابان (لتعليمه التقنية)، والأخرى من السويد (لتعليمه التربية البدنية)، وواحدة من عربستان (لتعليمه الهويّة الحضارية وما إلى ذلك) وجميعهن يحملن درجة الدكتوراة في التربية. وأثمر التخطيط الدقيق ثماره المرجوة. بدأ محارب ينبغ في عدة مجالات، وفي مجال الشعر العربي بصفة خاصة. وعدتُه، في عيد ميلاده، أن أطلب من شاعر معروف أن يتبناه وأن أقيم له أمسية شعرية هنا، أمسية يحضرها رئيس الوزراء بنفسه وما لا يقل عن ٥٠٠٠ مدعو من أرباب الفكر والأدب والثقافة. بعد أن أنهيت حديثي مع ضويحية بدأت أتحدث مع محارب الذي صرخ:

ـ أبوي! أبوي! كتبت قصيدة جديدة.

قلت بسرور:

ـ هاتها، وأنا أبوك، هاتها!

ـ اسمها «أبي في الطائرة».

ـ عدّها، وأنا أبوك، عدّها!

ـ سافر أبي العزيز.

حمل الشنطة.

وذهب إلى المطار.

ومعه الشنطة.

ومعه جواز السفر.

وسافر.

سافر في الطائرة.

وفي الطائرة ركّاب.

وفي الطائرة كابتن.

وفي الطائرة أبي.

أبي في الطائرة.

قلت بفرح بالغ:

ـ صحّ لسانك! صحّ لسانك! حضّر نفسك للأمسية، وأنا أبوك.

ـ متى يا أبوي.

ـ قريب. قريب.

أنهيتُ المكالمة، واستقبلت صديقي القديم من أيام الدراسة في ستانفورد، صابر حاير، وكيل وزارة الثقافة في عربستان X. أخبرني أن موضوع الأمسية يسير بشكل جيّد. وأن الترتيبات على قدم وساق. وأخبرني أن الشاعر المشهور كنعان فلفل سوف يتبنى محارب، وأن نتيجة التبنّي سوف تظهر في العدد القادم من «النفس الشعري الجديد». وأكّد إن وزير الثقافة حصل على وعد من رئيس الوزراء برعاية الأمسية، وأن الموعد سيحدد قريباً. شكرت صديقي القديم بحرارة، وقبل أن يغادر الجناح وضعت في جيبه ظرفاً يحتوي على ١٠٠,٠٠٠ دولار، وأنا أهمس:

ـ للأولاد. العيد على الأبواب.

حاول صابر إعادة الظرف وهو يقول:

ـ عيب، يا حربي، عيب، والله عيب!

أعدتُ الظرف إلى جيبه، وأنا أقول:

ـ صدقت! عيب والله! عيب رد الهدية!

هذا مبلغ تافه جداً في سبيل أن يجد طفل نابغ الطريق ممهداً أمامه كما وجدت أنا الطريق مُمهّداً أمامي بفضل المرحوم والدي.

بعد خروج صابر زارني الدكتور زاعل بحران رئيس لجنة النشر والشعر العليا في عربستان X. سُرّ عندما أخبرته أني قررت وضع نصف مليون دولار تحت تصرف اللجنة على أن تخصّص لمنح جائزة سنوية لأفضل ديوان شعري يصدره شاعر دون العشرين. قلت لرئيس اللجنة إن اسم الجائزة سوف يكون «جائزة محارب الشعرية». ظنّ الدكتور زاعل أن محارب هو اسم المرحوم والدي إلا أنني أوضحت له أن الاسم اسم المحفوظ ابني. قَبِل الدكتور زاعل شرطي الوحيد: أن يقدم محارب الجائزة بنفسه للفائز. بعد أن خرج الدكتور زاعل شعرت بإرتياح نفسي عميق. ضمنتُ دخول محارب التاريخ، إمّا عن طريق شعره، وإمّا عن طريق هذه الجائزة.

طلبت من برسام أن يتصل بجلنار ويخبرها أني مستعد للظهور، مرة ثانية، في برنامجها «عيون العالم عليك». منذ أن ظهرتُ في برنامجها قبل ٤ سنوات، وصورتها لا تكاد تفارق عيني. فشلتْ كل محاولاتي لاجتذابها إلى علاقة حميمة. كل الهدايا أعيدت إليّ، مع الشكر الجزيل، حتى سيارة المرسيدس. عاد برسام بإعتذار مهذّب جديد. يبدو أن الأوراق المحترقة التي تحمل اسمها في مجمرة بصير لم تحرق قلبها. حقاً أن العشق دربه طويل، كما كان المرحوم والدي يردّد بعد كل قصيدة نبطية يلقيها.

جاء مندوب «أسرار التجارة» لإجراء مقابلة صحفية عن آخر مشاريعي التجارية والصناعية. سارت المقابلة على النحو المطلوب حتى بدأ المندوب يتحدّث عن الاستثمارات الإسلامية. ما هذا الاهتمام المباغت، في كل مكان، بالإستثمارات الإسلامية؟

قال المندوب:

ـ أستاذ حربي! يعرف الجميع أن «بنك الصحراء القرمزية» كان رائداً في مجال

الاستثمارات الإسلامية ولكن...

قاطعته:

- شكراً! هذه حقيقة يعترف بها الأعداء، إن كان لنا أعداء، قبل الأصدقاء. كنا، بفضل الله، من أوائل البنوك التي اقتحمت هذا المجال، وتبعنا، بحمد الله، عدد كبير من البنوك.

- أستاذ حربي! هذا صحيح. إلاّ أن هناك أسئلة كثيرة بدأت تطرح عن...

قاطعته مرّة أخرى:

- أسئلة كثيرة تطرح؟! أيّ أسئلة؟!

- عن استثمارات البنك الإسلامية.

- نحن في «بنك الصحراء القرمزية»، نؤمن بالشفافية التامّة. نحن شفّافون إلى درجة لا تُصدّق. تستطيع أن تقول، بلا تحفظ، إننا روّاد الشفافية في العمل البنكي العربستاني.

- وهذا يسهّل مهمتي. لنبدأ بالسؤال الأول. إلى أين تُوجّه الإستثمارات الإسلامية؟

- آه! آه! أنت، يا أخي العزيز، تضعني، الآن، في موقف حرج جداً. الشفافية تشمل كل أعمال البنك، ولكنها لا تشمل أسرار العملاء التجارية.

- ولكن هذا السؤال يطرح من جانب العملاء أنفسهم.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن عدداً من المستثمرين اتصل بنا يستفسر عن الطريقة التي تُستثمر بها أمواله.

- هذا موضوع واضح جداً. الأموال تستثمر في كل المجالات التي تبيحها الشريعة. لا معاملات ربوية. لا استثمارات في ملاهي أو فنادق تقدم الخمور أو لحم الخنزير. والأمور التي تلتبس علينا نعرضها على هيئة الرقابة الشرعية.

- هل يمكن توضيح هذه النقطة؟

- بكل سرور. أحياناً قد لا يكون من الواضح لنا إذا كانت معاملة ما مشوبة بالربا أو خالية منه. هذه أمور فقهية دقيقة لا نستطيع، أنا أو أنت، أن ندلي فيها برأي. إبراء للذمّة، كل معاملة من هذا النوع تحال إلى هيئة الرقابة.

- هل يمكن إعطائي أمثلة لبعض هذه المعاملات؟

ـ لا تحضرني، الآن، أمثلة. ولكن رئيس هيئة الرقابة يجيب، بإنتظام، على أسئلة كهذه، ولديه أكثر من كتاب يتعرّض بالتفصيل. . .

قاطعني المندوب:

ـ كل هذا صحيح. ولكن المشكلة ليست هنا.

ـ أين المشكلة؟

ـ المشكلة، كما يقال، أنك تشرف على قسم الإستثمارات الإسلامية إشرافاً مباشراً. بمعنى أن الموظفين العاملين في القسم يرجعون إليك وحدك.

ـ فلنفترض أن هذا صحيح. أين الإشكال؟ ألستُ العضو المنتدب؟

ـ بصراحة، يا أستاذ حربي، يُقال إنك وجّهت بعض هذه الإستثمارات إلى مجالات عليها علامات استفهام.

ـ علامات استفهام؟! ماذا تقصد؟

ـ أقصد. . .

قاطعته بغضب:

ـ أني أستثمر أموال المسلمين في فنادق القمار وأندية العراة والحانات؟

لم يشعر المندوب بأي حرج، وواصل حديثه بهدوء:

ـ لا! لا! أعوذ بالله! من المستحيل أن تقوم بشيء من هذا النوع. ما يُطرح هو شيء مختلف تماماً.

ـ أفدني، أفادك الله!

ـ يقال إنك تختار المؤسسات المالية التي تعاني مشاكل في السيولة وتعرض عليها قروضاً بفوائد تتجاوز سعر الفائدة في السوق بكثير، وهذا ما يمكّنك من تحقيق الأرباح غير العادية التي تحقّقها.

ـ وأحتفظ بها لنفسي؟!

ـ لا! لا لم يقل أحد هذا. الجميع يعرفون أن الأرباح تُوزّع على المستثمرين. هذه ليست المشكلة؟

ـ أين المشكلة؟ رجاءً! رجاءً!

ـ هناك خبراء يرون أن هذا استثمار غير سليم، وأن المؤسسات المالية التي تقترض منك ستنهار الواحدة بعد الأخرى، ومع انهيارها ستذوب حصيلة العمر التي جلبها المستثمرون إلى البنك، عشرات الآلاف من المستثمرين.

- هل تلقّيت هذه المعلومات من صبوح الدرهمان؟

احمرّ وجهه، وأدركت أني أصبت الهدف. قلت:

- لا أودّ أن أتحدّث عن هذا المخلوق. سوف أترك أعماله الشائنة تتحدّث عنه. سوف يعرف جميع المساهمين، في القريب العاجل، حقيقته ونواياه الخبيثة. ولكن ما دام كلامه قد وجد قبولاً عند بعض العقول المريضة فإني مضطر اضطراراً إلى أن أتحدث معك، لأول مرة، عن إستثماراتنا الإسلامية. نحن نبني الآن فندقاً ضخماً في الشيشان. سمعت عن الشيشان؟ فندق لا يقدم المحرّمات. أعتقد أن شعب الشيشان شعب مسلم ويستحق منا المعونة في إنعاش اقتصاده. ونحن نشيّد الآن ٣ مستشفيات في أفغانستان. أعتقد أن الشعب الأفغاني مسلم وأن الاستثمار في المشافي مشروع. وقد سبق أن أقمنا مزارع لتربية الأرانب في أندونيسيا، ومزارع لتربية النعام في ماليزيا. هل تريد الوثائق؟

صمت المندوب قليلاً ثم قال:

- هل من المعقول أن يربح فندق في الشيشان ومستشفيات في أفغانستان؟

- لا يربح أي استثمار من أول يوم. هذه قاعدة ذهبية في التجارة. على المدى المتوسط، ولا أقول البعيد، سوف تكون هذه المشاريع مربحة جداً.

دخل برسام يذكرني أن موعد الإقلاع إلى بومبي قد اقترب. أوصلت المندوب إلى باب الجناح. همست في أذن برسام وطلبت منه أن يوصل المندوب إلى باب الفندق وأن يعطيه ظرفاً يحتوي على ٢٠,٠٠٠ دولار. لا أظن أن المندوب الفضولي سيرفض المبلغ باعتباره استثماراً في مجال غير إسلامي.

السبت

بومبي

كانت الخدمة في الطائرة، كالعادة، رائعة. وكانت واحدة من المضيفات أروع من رائعة. بالإضافة إلى الهدية المعتادة طلبت من برسام أن يعطيها خاتماً ماسياً قيمته ٥٠٠٠ دولار. من محاسن الصدف، كما تبيّن، أنها تقيم في نفس الفندق الذي أقيم فيه، ووافقت، مشكورة، على أن تتناول معي طعام العشاء.

جاء زائري الأول، الجورو منجو جتني. منذ سنتين وأنا أبحث معه فكرتي الجديدة «حظّك هذا اليوم - بالكومبيتر». تتلخص الفكرة في تصميم جهاز صغير يستطيع صاحبه بعد أن يبرمجه على برجه وتاريخ اقتنائه أن يعرف ما يحمله له

الحظ كل يوم من أيام السنة ولمدة ربع قرن. ٢٥ سنة كاملة! الجهاز سيقدّم المعلومات بأكثر من لغة، مكتوبة وناطقة. وهو مصمم على نحو لا يسمح بإستباق الأمور. لن تعرف حظك في يوم ما إلا إذا جاء ذلك اليوم. كانت هناك عقبات فنية هائلة استطعت تذليلها بالتعاون مع شركات متخصّصة في اليابان. لم يبق إلا «السوفت وير»، المعلومات الفلكية التي يختزنها الجهاز، وإعدادها يحتاج إلى كومبيتر بشري. وقع اختياري على أشهر الفلكيين في العالم الجورو منجو جتني. ووافق على المساهمة، وبدأ، فعلاً، يعدّ المعلومات المطلوبة. المشكلة أنه رفض الإكتفاء بمبلغ يدفع مرة واحدة وأصرّ على نسبة مئوية من الأرباح. وأنا أكره الترتيبات التي قد تقود إلى مشاكل. والنسبة المئوية في مشروع كهذا سوف تؤدّي إلى ألف مشكلة ومشكلة. من الذي يحدّد مقدار الأرباح؟ هل سيقبل الحسابات التي أقدّمها له؟ ماذا يحدث لو اختلفنا؟ ومن يريد الاختلاف مع فلكي روحاني؟ قرّرتُ أن اجتماعي هذا معه سوف يكون الاجتماع الحاسم. إما أن يوافق على مبلغ مقطوع وإمّا أن أبحث عن فلكي آخر. قال الجورو بمجرد جلوسه:

ـ ألا تودّ أن أقرأ كفّك؟

ـ كفّي؟ كنت أظنّ أن الأبراج هي اختصاصك الوحيد.

ـ الأبراج وقراءة الكف والبلّورة والسحر، بنوعيه الأسود والأبيض، والأرواح والعلاج. . .

قاطعته:

ـ أنت تذكّرني بصديق لي يمارس هذا كله. وقد بدأ مؤخّراً اتصالات مباشرة مع الجن.

ـ مع الجن؟ وما الصعوبة في ذلك؟ أنا أتّصل بالجن منذ كنت في الخامسة.

صمت الجورو وأخذ يفكّر، ثم قال:

ـ هل لديك مشكلة؟ هل تريد لقاءً مع جنّي؟

ضحكت، وقلت:

ـ أشكرك. من الأفضل أن نركّز على مشروعنا البشري. كُنّا نتكلّم، في الماضي، عن نصف مليون دولار. أنا مستعد، الآن، لمضاعفة المبلغ.

ـ مستر هاي بيبي! سوف تبيع الجهاز الواحد بألف دولار. سوف تربح عشرات الملايين، وتريد أن أكتفي بهذا المبلغ التافه؟

ـ جورو منجو جتني! هذا المبلغ ليس تافهاً، كما تعرف جيّداً. وأنا، كما

تعرف جيّداً، أغامر مغامرة هائلة. هائلة جداً! أنفقت، حتى الآن، أكثر من ٣ ملايين دولار. قد تفشل الفكرة فشلاً ذريعاً، قد لا يشتري أحد جهازاً واحداً.

قهقه الجورو طويلاً، وقال:

ـ النجوم تؤكّد لي أن الجهاز سوف يلقى نجاحاً كبيراً.

ـ ألم تؤكد لك النجوم أن رفضك العرض يعني أنك لن تحصل، بعد كل العناء الذي بذلته، على دولار واحد؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنني أستطيع الإستعانة بفلكي آخر، أما أنت فلا تستطيع بيع المعلومات لأحد. أنا، وأنا وحدي، أملك إمتياز التصنيع. لا بد أن محاميك قد اطّلع على الوثائق.

قهقه الجورو (لا بد أن أسميه الجورو المقهقه) وقال:

ـ مستر هاي بيبي! ما هذا الكلام؟! امتياز؟! محامي؟ تذكّر أننا أصدقاء. هذا حوار بين أصدقاء، فلندع المحامين جانباً.

ـ حسناً! ولندعْ النسبة المئوية جانباً. عرضت عليك مليون دولار. هل تقبل أم ترفض؟

قهقه الجورو، وفتح حقيبته اليدوية، وأخرج منها بلورة صغيرة وضعها على الطاولة، ثم جثا على الأرض، وبدأ يتأمل البلورة.

لم أستطع مقاومة الضحك. قلت:

ـ جورو منجو جتني! هل ستجيء الإجابة من البلّورة؟

ردّ عليّ بجدّية كاملة:

ـ نعم. نعم. أعطني ٣ أو ٤ دقائق فقط.

ـ هل تريد أن أغادر المكان؟

ـ لا ضرورة لذلك. ولكن أرجو أن تلتزم الصمت.

التزمت الصمت وأنا أراقب قسمات وجهه تتغيّر على نحو غريب وهو يحملق في البلّورة. لم أستطع أن أقرّر هل أنا أمام ممثل بارع أم جورو موهوب.

بعد دقائق من الصمت، قال:

ـ مليونا دولار.

ـ هذا رأي البلّورة؟!

ـ هذا قرار البلّورة.

ـ وإذا رفضت؟

ـ البلّورة متأكدة أنك لن ترفض.

ـ وكيف وصلت البلّورة إلى هذا اليقين؟

ـ قالت البلّورة إنك سوف تحصل، إذا دفعت هذا المبلغ، على شيء إضافي غير «السوفت وير».

ـ شيء إضافي؟!

ـ نعم. سمّه «بونس» إذا شئت.

ـ وما هو؟

ـ إذا كنت تريد، حقاً، أن تعرف فلا بُدّ أن أعود إلى البلّورة.

قهقه الجورو وأخرج من الحقيبة شمعة أشعلها ووضعها خلف البلّورة وخرّ جاثياً يتأمل الشمعة عبر البلّورة. انبعثت من الشمعة روائح نفاذّة غريبة وبدأت ملامح وجهه تتغير تماماً. بعد بضعة دقائق أطفأ الشمعة وأعادها إلى الحقيبة، وقهقه، وقال:

ـ صبوح الدرهمان.

لا بُدّ أنه لاحظ علامات الدهشة الشديدة على وجهي. ولا بُدّ أنه لاحظ أنني عجزت، بغتة، عن الكلام. قهقه من جديد، وقال:

ـ هذا هو «البونس».

قلت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ ماذا تقصد؟

قال الجورو المقهقه:

ـ إذا دفعت المبلغ فسوف تتخلّص، نهائياً، من مضايقات صبوح الدرهمان.

قلت مذهولاً:

ـ كيف؟!

ـ التفاصيل لا تهمّك.

ـ سحر أسود؟!

ـ قلت لك إن التفاصيل لا تهمّك.

اتخذت قراراً من قراراتي السريعة:

ـ حسناً! حسناً! أنا موافق.

قهقه الجورو، وقال:

ـ فيما يتعلق بدفع المبلغ. . .

قاطعته:

ـ سوف أودعه في حسابك السرّي في بنك «مونبلير» في زيورخ.

ابتسمت وأنا أرى الدهشة تبتلع ملامح الجورو، وقلت:

ـ هل تعتقد أنك تحتكر البلّورات؟

قهقه الجورو، وخرج. لسبب لا أدريه شعرت ببرودة تتسلّل إلى كل أطرافي.

كان الزائر الثاني المستر ماسالا الذي يملك سلسلة من أشهر المطاعم في الهند. هذا هو الاجتماع العاشر الذي نعقده لبحث مشروعنا المشترك: «السمبوسة المعلّبة». السمبوسة من أكثر الأكلات شعبية في عربستان، ومن أصعبها طبخاً. خطرت ببالي، منذ سنين، فكرة تعليبها. تضع العلبة في الفرن نصف دقيقة ثم تفتحها وتأكل سمبوسة طازجة. لا فرم ولا عجن ولا بصل ولا وجع دماغ. لا يوجد لديّ أدنى شك في نجاح الفكرة. المشكلة الوحيدة الباقية هي عناد المستر ماسالا، الذي بدأ المحاضرة المعتادة:

ـ مستر هاي بيبي! نستطيع أن نعلّب السمبوسة. يستطيع المشتري أن يضع العلبة في الفرن ثم يأكل ما بداخلها. إلاّ أنه لن يأكل سمبوسة طازجة. سوف يكون طعمها شبيهاً بطعم سمبوسة صنعت في اليوم السابق.

ـ مستر ماسالا! هذا ما تقوله لي كل مرّة. المشكلة أنك تصرّ على أن يتم التعليب في الهند. قلت لك، مراراً وتكراراً، إن شركة يابانية من الشركات التي أتعامل معها قد حلّت المشكلة. هناك، الآن، أطعمة لا حصر لها تخرج من العلبة كما تخرج من المقلاة، طازجة تماماً.

ـ ربّما. ربّما. ولكني لا أحبّ اليابانيين. ولا أحبّ التعامل معهم.

ـ ومن طلب منك أن تحبّهم؟ ومن طلب منك أن تتعامل معهم؟ سوف أتولّى أنا هذا الجانب.

ـ ولكني لا أثق فيهم. قد يسرقون وصفتي ويبدأون في تصنيع السمبوسة لحسابهم.

ـ لا يستطيعون عمل ذلك. أنا الذي أملك الامتياز.

ـ حتى لو تجاوزنا هذه العقبة، هناك صعوبة أخرى.

ـ ما هي؟

ـ هل من المعقول أن نعدّ الوصفة هنا ثم نشحنها إلى اليابان لتُصنّع ثم نشحنها إلى عربستان لتباع؟

ـ ومن قال لك إن هذه هي الخطة؟

ـ ما هي الخطة؟

ـ سوف يكون المصنع في عربستان. لن يكون سوانا في الصورة. أنت المسئول عن الوصفة، وأنا المسئول عن التصنيع.

ـ وسوف تجيء التقنية من اليابان؟

ـ نعم.

ـ وهل يستطيع اليابانيون أن يجعلوا السمبوسة طازجة عند فتح العلبة؟

ـ نعم.

ـ مستر هاي بيبي! اعذرني إذا قلت لك إني لا أصدّق. حاولنا مع عدد من الشركات هنا، وكانت النتيجة مُخيّبة للآمال.

ـ مستر ماسالا! التجربة خير برهان.

ناديت برسام وهمست في أذنه. ذهب إلى غرفة الخدم وعاد ومعه علبة صغيرة وشمعة (هذا أسبوع الشموع!). أشعل الشمعة ووضع العلبة فوقها حتى بدأت تسخن ثم فتح العلبة مستخدماً سكين الجيش السويسري الشهيرة. قدمت العلبة المفتوحة إلى المستر ماسالا وطلبت منه أن يذوق ما بها. مدّ أصابعه بحذر شديد، وأخرج من العلبة سمبوسة ونظر إليها بحذر أشد. قلت ضاحكاً:

ـ لا تخف! لا تخف! كلها!

بدأ المستر ماسالا يأكل السمبوسة. توقف وقال:

ـ لا أصدق! لا أصدّق! كأنها طبخت الآن. طازجة. طازجة تماماً. ولكن الطعم...

قاطعته:

ـ دعنا من الطعم الآن. الوصفة ليست وصفتك. عندما نستخدم وصفتك سوف يكون الطعم رائعاً.

بدأ المستر ماسالا يقضم سمبوسة ثانية، وأدركت، على نحو قاطع، أن القرار

سيجيء الآن، أو لن يجيء إلى الأبد.

قلت:

ـ مستر ماسالا! جرّبت التقنية بنفسك. ما رأيك؟

ـ الحقيقة أن. . .

قاطعته:

ـ الحقيقة أن السمبوسة أعجبتك. الحقيقة أن السمبوسة طازجة. والاتفاقية طازجة، وجاهزة للتوقيع.

ابتسم المستر ماسالا، وقال:

ـ فيفتي/ فيفتي.

أعرف، تماماً، أنه بدون اسم ماسالا على العلبة فلن يُقدّر للمشروع النجاح. وأعرف، تماماً، أني لو فاوضته قرناً كاملاً فلن يغيّر موقفه. ابتسمت وقلت:

ـ فيفتي/ فيفتي. سوف أطلب من المحامين إنهاء التفاصيل. عندما تزورنا الشهر القادم سوف تكون الاتفاقية جاهزة للتوقيع.

التهم المستر ماسالا السمبوسة الباقية، وقال:

ـ لا بد أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة. ما رأيك؟

ـ في مطعم من مطاعمك؟

ـ لا. في منزل من منازلي. الثامنة مساءً، غداً. ماذا تقول؟

ـ الثامنة مساءً، غداً.

شعرت بعد خروج المستر ماسالا بإعياء شديد. طلبت من برسام أن يتلقّى كل المكالمات وألاّ يوقظني إلا بعد وصول المضيفة التي نسيت اسمها. ذكرني برسام أن اسمها جاكي، واسمها الكامل جاكلين. استغرقت في نوم عميق مليء بأحلام غريبة مليئة بجورو ذي شوارب طويلة ولحية كثة يأكل أفعى وهو ينظر إليّ ويقهقه، جورو إسمه منجو جتني.

أيقظني برسام في التاسعة. وجدت جاكي في انتظاري في الصالون مرتدية الساري الهندي. جاكي أسترالية لا تقل أصالة عن الكانجرو، إلا أن الساري الشرقي يلائمها وكأنها ولدت فيه. قلت:

ـ هذا مضيفك يتحدّث. ماذا تطلبين؟

ضحكت، وقالت:

ـ المعاملة بالمثل.

جاءت الشمبانيا، وجاء الكافيار. عندما انتهت من شرب الكأس الرابع قلت لها فجأة:

ـ جاكي! كيف أصبحت عضوة في «نادي الميل الواحد»؟

بدت على وجهها حمرة سرعان ما اختفت، وقالت:

ـ كيف سمعت عن هذا النادي؟

ـ تستطيعين أن تعتبريني من مؤسّسيه.

ـ وكيف عرفت أني دخلت النادي؟

ـ نحن في بلاد السحر والسحرة والبلّورات السحرية. بلورتي هي التي أخبرتني.

ـ ما دامت البلّورة أخبرتك، فلماذا تسألني؟

ـ أريد التفاصيل. بلّورتي لا تدخل في التفاصيل.

ـ مستر هاي بيبي!..

قاطعتها:

ـ لا داعي للمستر، رجاء.

ـ هاي بيبي! أنت رجل لعين.

ـ جاكي! أنت بنت لعينة. فلنستمع إلى القصّة.

ـ لا يوجد ما يستحق أن يُروى. قصة عادية.

ـ كل قصص الميل الواحد تستحق أن تُروى.

ـ لم أشعر أني كنت في طائرة. صدّقني. كنت في غرفة نوم لا تقل مساحتها عن غرفتي في الفندق.

ـ أستنتج أنك كنت في طائرة خاصة.

ـ آه! البلّورة مرة أخرى!

ـ ومن كان مالك الطائرة؟

ـ المهراجا.

ـ لا أظن أن هناك مهراجا يملك طائرة خاصة.

ـ كنا نُسمّيه المهراجا على أية حال.

ـ جاكي! أنت فتاة لئيمة.

ـ هاي بيبي! أنت رجل فضولي.

ـ صدقت. أكملي القصة. أو، على الأصح، ابدأي القصة.

ـ لا يوجد شيء مثير يستحق الذكر. كانت الرحلة طويلة ووقع اختيار المهراجا عليّ.

ـ وكم كان عدد المرشحات.

ـ كانت هناك ٢٧ مضيفة.

ـ وعدد المسافرين؟

ـ باستثناء الملاحين، لم يكن هناك سوى المهراجا و٣ حرّاس.

ـ وكيف كانت التجربة؟

ـ هاي بيبي! ألا تستحي؟ كيف تسأل فتاة سؤالاً كهذا؟

ـ سوف أعيد صياغة السؤال. هل استمتعت...

قاطعتني:

ـ كانت تجربة عادية. عادية جداً.

ـ ألم تكن هناك تجارب أخرى طائرة؟

ـ كانت هذه المرة الأولى والأخيرة.

ـ ما دامت هناك حياة...

ـ فهناك طائرات أخرى.

ـ وماذا حدث للمهراجا؟

ـ لا أدري. تركت الخدمة عنده.

ـ هل كان سيئاً إلى هذه الدرجة؟

ضحكت، وقالت:

ـ لم يكن هذا السبب. كانت هناك قصة حب عاصفة.

ـ وتبعت الحبيب الآخر؟

ـ تماماً.

ـ ولم يدم الحب العاصف؟

ـ تماماً. ماذا عنك أنت؟

ـ أنا؟ أنا لا أملك طائرة خاصة.

ـ كيف دخلت «نادي الميل الواحد»؟

ـ وأنتِ، أيضاً، لديك بلّورة سحرية؟

ـ طبعاً. وتعلمت السحر من قبائل «الأبورجينيز». جاء دورك الآن. قل لي ما حدث.

ـ كانت التجربة رهيبة. انتهت بمأساة. وكادت تؤدّي إلى موتي.

ـ واو! تحدّث! تحدّث! بالتفصيل!

ـ كان هذا منذ زمن بعيد. يوم كنت وسيماً ومجنوناً. أعني يوم كنت وسيماً جداً ومجنوناً جداً. كنت مسافراً على طائرة شيوعية. أعني على طائرة تملكها دولة شيوعية.

ـ حسناً؟

ـ كانت الرحلة داخلية. أقلّ من ساعة. كانت الطائرة صغيرة، تعمل بالمراوح. لا تسأليني عن اسمها. أعتقد أنها كانت صناعة روسية. توبوف. أولوبوف. أو ربّما خروشوف. اسم من هذا النوع. لا يزيد عدد مقاعدها عن العشرين.

ـ لا تبدو الخلفية مناسبة لدخول «نادي الميل الواحد».

ـ صدقت. وهذا ما أدّى إلى الكارثة.

ـ قل لي! قل لي!

ـ حسناً! كنت المسافر الوحيد. لم تكن هناك مضيفة في الطائرة. كان هناك مضيف.

ـ ونمت مع رجل؟!

ـ جاكي! عليك اللعنة! انتظري حتى أكمل. كان المضيف رجلاً، وكانت الكابتن امرأة. امرأة جميلة جداً. كان باب كابين القيادة مفتوحاً، ولم يكن في كابين القيادة سواها. قلت لك إن الطائرة صغيرة جداً، وكانت الكابتن رائعة الجمال. رغم أنها كانت شيوعية. أفترض على أية حال أنها كانت شيوعية. الحقيقة أنني لم أهتم بميولها العقائدية. ردفها هو...

ـ لا داعي لهذا النوع من التفاصيل.

ـ حسناً! بعد الإقلاع قلت للمضيف إنني أود أن أتحدّث مع قائدة الطائرة في أمر هام. في البداية تردّد...

ـ ثم قدمت له...

- قدّمتُ له ساعتي السويسرية الثمينة. وذهب يستأذنها وعاد بالإذن المطلوب. دخلت كابين القيادة وأغلقت الباب خلفي. نظرتْ الكابتن إليّ وابتسمتْ. ابتسمتُ ابتسامة ذات مغزى. واقتربتُ منها، وبدأت أقبّلها.

- وهي تقود الطائرة؟!

- وهي تقود الطائرة. ثم جرّ شيء إلى شيء. وجدت نفسي أجلس على مقعد القيادة ووجدتها تجلس عليّ وتمسك بمقود الطائرة في الوقت الذي...

- أستطيع تصوّر الوضع.

- حسناً! كانت الكابتن امرأة شبقة. ويبدو أنها نسيت مراقبة الأجهزة. تركت الطائرة وشأنها. فجأة انتبهنا لنرى الطائرة تهتزّ وتنحدر إلى الأرض بسرعة هائلة. في آخر لحظة، تمكّنتْ الكابتن من الهبوط في حقل قريب، حقل من الذرة، مات المضيف، وأصبنا، أنا وهي، بحروق ورضوض.

- هل تتوقع مني أن أصدق كلمة واحدة؟

- صدّقت أنا قصتك.

- ولكن قصتك لا تُصدّق.

- انظري! انظري!

نزعت القميص واستدرت، وقلت:

- لا تزال آثار الحروق في ظهري. ألا ترينها؟

حقيقة الأمر أن الحروق كانت نتيجة درس آخر من دروس المرحوم والدي.

شهقت جاكي (امرأة شاهقة جديدة!) وقالت:

- أيها المسكين! أيها الرجل المسكين!

لا أدري لماذا تثير هذه الحروق الرغبة الجنسية لدى كل امرأة تراها. هل في النساء غريزة سادية متأصّلة؟ لا بد أن أسأل أساتذة علم النفس في هارفرد، ذات يوم، عن هذه النقطة. قلت:

- جاكي! صدقيني إن ظهري لا يزال يؤلمني. لا يخفف الألم سوى المساج.

ذهبنا إلى غرفة النوم وهي تتمتم:

- أيها المسكين! أيها الرجل المسكين!

الأحد

بومبي

بدأت اليوم باجتماع مع مستر جلدي لبحث فكرتي الجديدة: «العود الجديد». في وقت قريب سوف ينقرض العود. ينقرض نهائياً. الطلب يتزايد والأشجار تُقطع. والأسعار ترتفع إلى مستويات خرافية. كيلو العود الممتاز ثمنه، الآن، أكثر من ١٠,٠٠٠ دولار. وكل إنسان في عربستان يريد العود الممتاز. سوق مغرية إلى أبعد الحدود. هناك أنواع رديئة من الخشب تباع على أنها عود ولكن هذا غش لا أرضاه لنفسي. وهناك عود محشو من الداخل بمواد رصاصية يُخلط مع العود الحقيقي. وهذا، بدوره، خداع لا أبيحه لنفسي. فكرتي الجديدة فكرة نزيهة تُسمّي الأشياء بأسمائها. لا أدعي أنني أنتج العود الأصلي. أدعي أن ما أنتجه هو «العود الجديد». والعود الجديد يشبه العود القديم تماماً، في لونه وشكله ورائحته (التي تأتي من مواد كيمائية عطرة). بوسعي أن أبيع العود الجديد بخُمس قيمة العود القديم وأجني أرباحاً طائلة. اخترتُ المستر جلدي شريكاً في المشروع. في البداية، كان متردداً. كان يخشى أن ينافس العود الجديد العود التقليدي الذي يكاد المستر جلدي يحتكر تجارته. لم يقتنع إلا عندما قدّمت له دراسة علمية أعدها فريق من أساتذة هارفرد تثبت أنه بعد ربع قرن، على الأكثر، لن تكون هناك غابة واحدة من غابات العود. أدرك المستر جلدي أن العود الجديد هو عود المستقبل. بحثنا في الإجتماع الكثير من التفاصيل. واتفقنا على أن نسافر، معاً، إلى طوكيو ليرى بنفسه العود الجديد ويشمّ رائحته. التسويق سوف يتمّ عن طريق المستر جلدي، وعن طريقه وحده. بالإضافة إلى احتكار التسويق، سوف يكون مالكاً لنصف المشروع، فيفتي/فيفتي. سخاء مفرط؟! لا! نظرة واقعية. العربستانيون لا يثقون إلا في العود المستورد من المستر جلدي، وهذه حقيقة يعرفها المستر جلدي كما أعرفها أنا.

ذهبت في المساء إلى حفلة المستر مسالا. كان هناك عدد صغير من الرجال وعدد كبير من النساء. نجمات حقيقيات. ممثّلات ومغنيات وراقصات. ضيافة تزري بضيافتي للمستر ياما شفتو ياما. بمجرد دخولي فوجئت بالجورو المقهقه ينتصب أمامي كجنّي علاء الدين الشهير ويأخذني جانباً ويهمس:

ـ انتهى الموضوع.

قلت بإستغراب:

ـ أي موضوع؟

ـ صبوح الدرهمان.

ـ ماذا عنه؟

ـ سوف تسمع الخبر قريباً. رُبّما هذا المساء.

صمت الجورو المقهقه لحظة، ثم اكفهرّت ملامحه حتى كاد وجهه يسودّ، وقال:

ـ جلنار!

شعرت بالبرودة تعود إلى أطرافي، وهمست:

ـ ماذا عنها؟

ـ أنت تشتهيها وهي تتمنّع.

ـ هذا صحيح. بدأت أثق ثقة عظيمة في بلوّرتك.

ـ إذن يجب أن تثق بتحذيري. تجنّب هذه المرأة. تجنّب لقاءها مهما كانت الظروف. حتى لو ألحّت. حتى لو رجتك. إياك أن تلتقي بها.

قلت مستغرباً.

ـ لماذا؟

ـ لأن النتيجة سوف تكون...

صمت الجورو وتنهد وقال:

ـ آسف! لا أستطيع أن أقول المزيد.

اختفى الجورو المقهقه، وجاء برسام يحمل التيلفون الموبايل. نظرت إليه معاتباً وقال:

ـ مكالمة هامة جداً. من لندن.

أخذت التيلفون وجاءني صوت مسعود أسعد:

ـ هاي بيبي؟! البقية في حياتك.

قلت:

ـ ماذا حدث؟

ـ صاحبك.

ـ أي صاحب؟

ـ صبوح الدرهمان.

ـ ماذا عنه؟

ـ صدمته سيارة هذا الصباح وهو خارج من الفندق. البقية في حياتك.

شعرت بالدنيا تدور، وبالأرض تقترب مني، ومن بعيد رأيت الجورو المقهقه يرفع رأسه من كف الحسناء التي كان يقرأها وينظر إليّ ويبتسم. عندما لامست الأرض خُيّل إلي أني أسمع قهقهته تزفّني إلى الإغماء.

٧

السياسي

مـثـلـك يـا بـدرُ لا يـكـونُ... ولا
تـصـلـح إلاّ لـمـثـلِـك الـدُولُ
المتنبي

بطاقة شخصية

الاسم الكامل: ريمون ضاهر أبو شوكة

اسم الشهرة: أبو الفقير

المهنة: رئيس حزب المساواة المطلقة ووزير السياحة والتعاون الدولي

العمر: ٤٦ سنة

الثروة: ٥٠ مليون دولار (تقريباً)

مكان الميلاد: عربستان X

مكان العمل: عربستان X

المؤهلات الدراسية: بكالوريوس اقتصاد ـ جامعة أوكلاهوما، دبلوم اقتصاد ـ جامعة باريس

الحالة الاجتماعية: متزوج

الأولاد: ولد وبنت

الاثنين

قبل أن أذهب إلى الوزارة زارني في المنزل مستشاري الحزبي الخاص الياس شحطوط يحاول إقناعي بعدم الظهور في البرنامج. الليلة موعدي مع جلنار في برنامجها الشهير «عيون العالم عليك». هذا البرنامج لا يذاع من دولتنا إلا أن جلنار قررت أن تبث ٧ حلقات من هنا واختارت أن تبدأ بي. قال الياس:

ـ يا معالي الوزير! صدّقني أن ظهورك لن يكون في المصلحة.

ـ مصلحة من؟

ـ مصلحتك. ومصلحة الحزب. ومصلحة الدولة.

ـ لماذا؟ ظهرت في ألف مقابلة تيلفزيونية من قبل. ما الجديد؟

ـ أعتقد أن هذا البرنامج سوف يكون مختلفاً.

ـ كيف؟

ـ جلنار! هذه امرأة سيئة. خبيثة النوايا. منذ مدة وهي تجمع عنك معلومات من العناصر التي تعرفها.

ـ هل بقي شيء لم تقله هذه العناصر من قبل؟ حتّى في البرلمان؟

ـ ولكن الوضع يختلف. سوف يتاح المجال لكل مشاهد ومشاهدة لتوجيه الأسئلة.

لم أخبر الياس عن الخطة التي وضعتها مع «جهاز العمليات الخاصة» في الحزب للتعامل مع الموقف. قلت:

ـ فليكن. لا يوجد لديّ ما أخفيه. أنا أؤمن بالديمقراطية والمساءلة. سوف أتلقى الأسئلة وأجيب عليها.

ـ ستثير هذه المرأة المشاكل.

لم أخبر الياس أني طلبت من «جهاز المعلومات والرصد» في الحزب إعداد ملف شامل عن جلنار وقرأته بعناية.

ـ لا داعي للقلق يا الياس.

ـ كما ترى. أتمنى لك حظاً سعيداً.

ـ لا تخف ـ. واحرص على مشاهدة البرنامج.

ـ سأراه بطبيعة الحال.

عند وصولي إلى المكتب أخبرتني سكرتيرتي الشخصية تينا أن رجل الأعمال المعروف ألبير زنتوت صاحب فنادق «الكرم الذهبي» المشهورة في انتظاري منذ ساعة. طلبت منها أن تدخله. حييته بحرارة واعتذرت عن التأخير. أنا أعرف، تماماً، ما يريده السيد ألبير ولكن الحكمة تقتضي أن أتركه حتى يصل، بنفسه، إلى مراده. سألني:

ـ كيف حالك معالي الوزير؟ وكيف مدام شنتال؟ ومدموزيل جورجينا؟ والسيد ضاهر؟

شنتال هي زوجتي. والمدموزيل جورجينا هي ابنتي التي لم تتجاوز العاشرة. والسيد ضاهر هو ابني الذي لم يتجاوز السادسة. ابتسمت وقلت:

ـ بخير. الجميع بخير. وكيف حالك أنت يا سيد ألبير؟ ومدام نيكول؟ والأولاد؟

ـ نشكر الله. كلهم بخير.

ـ وكيف أمور الفنادق؟

ـ بهمّة معاليكم كل شيء تمام. السواح يتدفقون والغرف مزدحمة.

ـ هذه أخبار سارة.

ـ هذا الازدهار السياحي هو ما يدفعني إلى أن أتقدم إلى معاليكم بطلب الترخيص لفندق جديد في ضاحية «الغندورة».

ـ كل فندق يُفتح هو إضافة للاقتصاد القومي، ومساهمة في التنمية الوطنية. أنت تعرف موقفي من تشجيع السياحة.

ـ موقف معاليكم معروف ولولا هذا الموقف ما خرج الإقتصاد من أزمته الخانقة.

ـ هذا واجبي.

ـ تكلمت، بالمناسبة، مع الأستاذ الياس شحطوط و. . .

ـ أنا أعرف ما دار بين السيد ألبير زنتوت وبين الياس. تبرع السيد ألبير، مشكوراً، بنصف مليون دولار «لحزب المساواة المطلقة».

قاطعت الزائر:

ـ إسمع يا سيد ألبير. الحكومة حكومة، والحزب حزب. في هذا المكتب أنا وزير مسئول في الحكومة وشئون الحزب لا تهمني. ما دار بينك وبين الياس أمر لا علاقة لي به ولا أريد معرفته.

ـ مفهوم، يا معالي الوزير، مفهوم.

ـ قدِّمْ الطلب وسوف تحصل على الترخيص وفوقه قبلة تقديراً لجهودك المشكورة في تنمية السياحة.

ـ أدعو الله أن يحفظ معاليكم ذخراً لنا وللاقتصاد الوطني.

ـ تعيش! تسلم!

جاء المساء، وجاء موعدي مع جلنار. لم يكذب صديقي هاي بيبي عندما قال إنها أجمل امرأة في بلدان عربستان كلّها. رُبّما كان هذا هو سبب نجاحها المذهل. جمالها يفقد الضيف إتزانه فيجعله لا يدري ما يقول. تخرج هي، بعد كل لقاء، منتصرة ويخرج الضيف، بعد كل لقاء، مهزوماً. سأحاول أن أنسى أنني أتحدّث مع امرأة فائقة الجمال. سوف أتصوّر وأنا أنظر إليها إني أنظر إلى دولة رئيس البرلمان. بدأت جلنار:

ـ سيداتي، سادتي! ضيفنا، الليلة، مجموعة غريبة من المتناقضات. إقطاعي يرأس حزباً اسمه «حزب المساواة المطلقة». مليونير يقود الحركة الاشتراكية لا في دولته فحسب بل في عربستان كلّها. يعترف أعداؤه قبل أصدقائه بفعاليته الإدارية، ويعترف أصدقاؤه قبل أعدائه أن الأساليب التي يلجأ إليها ليست، دائماً، كزوجة القيصر. والضيف، بالإضافة إلى ذلك، بطل عالمي من أبطال سباق السيارات، أو، على الأصح، كان بطلاً عالمياً حتى تقاعد بعد حادث نجا منه بأعجوبة. ولديه أكبر مجموعة من الطوابع في الشرق الأوسط. ولديه كنز من القطع الأثرية النادرة. مع هذا الرجل غير العادي معالي الأستاذ ريمون أبو شوكة، وزير السياحة والتعاون الدولي في عربستان X نبدأ لقاءنا الليلة. أهلاً وسهلاً، معالي الوزير.

ـ مرحباً بك مدموزيل جلنار. أهلاً بك في عاصمتنا. أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام.

- الخدمات السياحية ممتازة، إذا كان هذا ما تقصده.

ضحكت، وقلت:

- هذه شهادة سوف أنقلها إلى الوزير المسئول.

- أريد أن أبدأ بالسؤال الذي أصبح تقليدياً لكثرة ما رُدّد ومع ذلك اسمح لي، معالي الوزير، أن أقول إني لم أسمع، حتى الآن، رداً مقنعاً. كيف يمكن لرجل إقطاعي أن يرأس حزباً يُسمّي نفسه «حزب المساواة المطلقة»؟

- إقطاعي؟! أين الإقطاع؟! هل تعرفين أن مجموع الأراضي الزراعية التي أملكها لا يتجاوز ٢٠٠٠ دونم. هل يُسمّى هذا إقطاعاً؟

- هناك من يقول...

قاطعتها:

- وأنا، الآن، أقول، وعلى الهواء، إن كل إنسان يستطيع أن يثبت أني أملك من الأراضي الزراعية ما يتجاوز المقدار الذي ذكرته فالزيادة من حقه. أعلن هذا، الآن، وعلى الهواء.

- أنا واثقة من صدقك. ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك تنتمي إلى أسرة إقطاعية.

- مدموزيل جلنار! مساحة دولتنا كلها لا تبلغ ربع مساحة إقطاعية من الإقطاعيات الصغيرة التي كانت موجودة في أوروبا.

- الأمور نسبية.

- هذا صحيح. ولكني لست إقطاعياً بأيّ معيار. هل تودين أن نتحدّث عن معنى الإقطاع وتاريخه؟

- أنا واثقة أنك ستفوز لو دخلنا مناظرة عن الإقطاع. سوف أكتفي بسؤال واحد: هل تنكر أنك تنتمي إلى أسرة كانت، ذات يوم، إقطاعية؟

ضحكت، وقلت:

- هذا أفضل. لا أتبرّأ من أسرتي ولا من تاريخها. أنت، مثلاً، يا مدموزيل جلنار هل تتبرّأين من جدك الذي كان يشنق الناس؟

ضربة في الصميم! في صميم الصميم! تحت الحزام، وفوق الأعضاء الحسّاسة كلها. ارتجفت شفتا جلنار، واصفرّ لونها. ساد صمت حرصت كل الحرص ألاّ أقطعه. ثم استردّتْ جلنار بعض هدوئها، وقالت:

ـ معالي الوزير! لا بُدّ أن أهنئك على معلوماتك التاريخية الواسعة. كان جدي، بالفعل، يعمل في مصلحة السجون وكان يعمل عشماوياً. إلا أنه لم يكن يشنق الناس، كما قلت. كان يشنق المجرمين والسفاحين الذين تدينهم المحاكم. كان يتخلص من النفايات البشرية. أحياناً أتمنى لو ظل حيّاً يمارس. . .

بدأت الأمور تسير نحو منزلق خطر. وقاطعتها:

ـ برافو مدموزيل جلنار! لا ينبغي لأحد أن يخجل من أصله ومن أسرته. وأنا، مثلك، لا أخجل من أصلي ومن أسرتي. عفواً، ماذا كان السؤال؟

أنا أعرف، تماماً، ماذا كان السؤال وأعرف أنها بتأثير الصدمة نسيته. قالت:

ـ كنا، في الواقع، نبحث موضوع الإقطاع وهل الإقطاع مسألة نسبية، وكنا نبحث في تاريخ الإقطاع. . .

ـ كنت، في الواقع، تسألين كيف يمكن لإقطاعي أن يصبح رئيس «حزب المساواة المطلقة»؟

ـ تماماً. ولم أسمع الجواب بعد.

ـ أعتقد أننا اتفقنا، قبل لحظة، أني لستُ إقطاعياً وأن السؤال أصبح غير ذي موضوع.

ـ اتفقنا أنك. . .

ـ أني لست إقطاعياً.

ـ ولكنك تنتمي إلى أسرة كانت إقطاعية.

ـ مدموزيل جلنار! هل تنوين إعدامي؟

ـ عفواً؟!

ـ نحن نعرف أن جدّك كان يشنق الناس. هل تنوين أن تستمري في شنق الناس لمجرّد أن جدك كان يشنق الناس؟

ـ هذا اللقاء ليس عن جدّي. وقد سبق أن شرحت لك، معالي الوزير، أن جدي لم يشنق سوى السفاحين والقتلة.

ـ أعتقد أنك تعرفين مقصدي. كون أسرتي كانت، ذات يوم، إقطاعية، لا يعني أنني، الآن، إقطاعي.

ـ هل تريد، حقاً، أن تقول لي إنك تؤمن بالمساواة المطلقة بين الناس.؟

ـ بكل تأكيد.

ـ وبين طائفتك وبقيّة الطوائف؟

ـ كل الناس يعرفون أني عدو الطائفية الأول.

ـ ولكن كل أعضاء حزبك من طائفتك.

ـ الحزب مفتوح لجميع الطوائف، ومعظم الطوائف ممثلة فيه.

ـ حسناً! فلنقصر حديثنا على حزبك. هل تؤمن بالمساواة بينك وبين عضو الحزب البائس الذي يخضع لك ويقبّل يدك لأنك زعيمه الإقطاعي، كما كان أبوك زعيم أبيه الإقطاعي.؟

ـ مدموزيل جلنار! لا يوجد في الحزب أحد يخضع لي أو يقبّل يدي. الجميع متساوون. اليوم أنا رئيس الحزب وغداً سوف يكون رئيس الحزب عضواً آخر، أي عضو آخر.

أخرجت جلنار من ملف أمامها صورة وطلبت من الكاميرا أن تقترب من الصورة. في الصورة، بكل وضوح، رجل يقبل يدي. اللئيمة الخبيثة! قلت بسرعة:

ـ آه!هذا جوزيف أبو شوكة. من أبناء عمومتي. أصغر مني سناً. الصغير في العائلة يقبّل يد الكبير في المناسبات. هذا موضوع لا علاقة له بالمساواة.

ـ عفواً معالي الوزير! هذا ليس قريبك. واسمه ليس جوزيف. هذا عضو في الحزب اسمه طنوس قيصر وهو أكبر من معاليكم سناً بعشر سنوات كاملة.

ـ آه! طنّوس قيصر! هذا رجل يقبّل يد كل إنسان يقابله.

ـ ألا تعتقد أن الرجل الذي يؤمن بالمساواة المطلقة عليه أن يمنع الناس من تقبيل يده؟

ـ مدموزيل جلنار! لو فرضت على الناس ما يفعلون وما لا يفعلون لما كنت أؤمن بالمساواة، ولكنت، في الواقع، ديكتاتوراً.

ـ إذن لو قرر عضو في الحزب تقبيل قدمك. . .

شعرت، لأول مرة في المقابلة، ببوادر غضب. أدركت أني لو سمحت للغضب بأن ينمو فسوف أخسر المواجهة مع هذه النمرة القاتلة الفاتنة. ابتسمتُ وقلتُ:

ـ لو قرّر أحد تقبيل قدمي فسوف أمنعه. لا بُدّ أن لديك أسئلة أخرى.

ـ بالتأكيد. السؤال الثاني، بدوره، أصبح تقليدياً لكثرة ما كُرّر. كيف تُوفّق بين

كونك مليونيراً وبين رئاستك لحزب يدعو إلى الاشتراكية، حزب ربما كان الوحيد الذي لا يزال ينادي بالاشتراكية في الأمة العربستانية كلها؟

ـ مدموزيل جلنار! هذا شرف لا نستحقّه. هناك أحزاب اشتراكية عديدة منتشرة عبر الأمة العربستانية.

ـ ربّما. ولكن لا يوجد حزب اشتراكي عربستاني يشارك في حكومة رأسمالية، ويمثّله عدد من النواب في برلمان رأسمالي، ويقود الاقتصاد في مسار رأسمالي.

ـ أليست هذه هي الديمقراطية الحقيقية؟ أليس التعايش مع الآخرين والعمل معهم ذروة الديمقراطية؟ ما وجه الاعتراض؟

ـ وجه الاعتراض أن يدّعي مليونير أنه اشتراكي. اسمح لي، معالي الوزير، أن أقول إن الكثيرين يعتبرون هذا نفاقاً سياسياً وإستخفافاً بعقول الناس.

ـ أنا لا أستخفّ بعقول الناس ولا أمارس النفاق السياسي. اشتراكية «حزب المساواة المطلقة» لا تتناقض مع اقتصاد السوق والمبادرة الفردية. اشتراكيتنا تقوم على ملكية الدولة للثروات الطبيعية والصناعات الأساسية، وهذه الأشياء وحدها. بقيّة المجالات يجب أن تترك، نهائياً، للقطاع الخاص. أين التناقض؟ أليس هذا هو الوضع في دول أوروبا التي تحكمها أحزاب اشتراكية؟

ـ ولكن في دول أوروبا، كما تعرف جيّداً يا معالي الوزير، هناك ضرائب تصاعدية وبالتالي فأرباح القطاع الخاص تُوجّه إلى الخدمات العامة التي يستفيد منها عامة الشعب أما هنا. . .

قاطعتها:

ـ براڤو! براڤو! ما دمت قد قمت بدراسة شاملة عن شخصي الضعيف فلا بُدّ أنك تعرفين أني رئيس الحزب الوحيد في الدولة، الوحيد، الذي يطالب منذ أكثر من ١٠ سنوات بإدخال الضرائب التصاعدية، وتطبيق أنظمة الضرائب على الجميع، على الجميع بدون استثناء. ولا بد أنك تعرفين أن قانون الإصلاح الضريبي الذي تقدم به الحزب لا زال مجمّداً في لجان البرلمان.

ـ معذرة، معالي الوزير! هل تعرف ما يقول الناس عن هذا القانون؟

ـ ماذا يقولون؟

ـ يقولون إن القانون نائم نتيجة اتفاق بينك وبين رئيس البرلمان ورؤساء بقيّة الكتل النيابية.

ـ مدموزيل جلنار! لا يوجد عندي أغلى من أبنائي. أقسم لك بحياة ابنتي

جورجينا، وحياة ابني ضاهر. عفواً! وزوجتي! لا يوجد عندي أغلى من زوجتي. أقسم لك بحياة زوجتي شنتال أنه...

وقعتْ جلنار في الفخ وقاطعتني قبل أن أقسم. حقيقة الأمر أن هناك اتفاقاً على نوم القانون. أنقذتني جلنار من الكذب عندما قالت:

ـ أنا أصدّقك يا معالي الوزير. أنا أردّد ما يقوله الناس.

ـ لا يوجد جمرك على كلام الناس.

ـ ولا على البضائع التي تستوردها وزارة معاليكم، أليس كذلك؟

هذه اللئيمة الخبيثة! ابتسمتُ وقلتُ:

ـ وزارة السياحة والتعاون الدولي لا تعمل في التجارة. لا تُصدّر ولا تستورد. ولكن المواد التي تستوردها الفنادق معفاة، بالفعل، من الرسوم الجمركية بموجب قانون تشجيع السياحة الذي...

ـ الذي اقترحه معاليكم على البرلمان؟

ـ نعم. تمكنا من بناء ٤٠ فندقاً في ٣ سنوات. هل كان يمكن بناء هذا العدد الهائل لولا التسهيلات التي قدمتها الدولة؟ ولولا هذه الفنادق هل كان بالإمكان أن يزداد عدد السواح من ٢٠,٠٠٠ سائح قبل ٣ سنوات إلى أكثر من مليون ونصف مليون سائح الآن؟

ـ تقصد أن الفترة التي توليتم فيها الوزارة شهدت زيادة عدد السواح من ٢٠,٠٠٠ إلى مليون ونصف.

ـ بكل تواضع، نعم!

ـ ولهذا يسمونك الوزير/المعجزة؟

ضحكتُ، وقلت:

ـ هذا اللقب أطلقته بعض الصحف من قبيل المجاملة. أنا لا أؤمن بالمعجزات. أؤمن بالعمل الجاد، بالتخطيط، وبلغة الأرقام.

ـ المشكلة، معالي الوزير، أن هناك من يشكّك في أرقامك.

ـ مدموزيل جلنار! هناك من يشكّك في كروية الأرض.

ـ ربّما. ولكن المعلومات التي لديّ مأخوذة من جهة رسمية، من مصلحة الهجرة التابعة لدولتكم الموقّرة. تؤكد إحصائيات هذه المصلحة أن عدد السواح في السنة الماضية لم يتجاوز ٩٠,٠٠٠.

هذه العاهرة حفيدة القاتل! ضربة تحت الحزام! وواصلت اللعينة هجومها:

ـ من نصدّق يا معالي الوزير؟ نصدّقك أم نصدّق زميلك رئيس مصلحة الهجرة؟

قررت أن الأوان قد آن لاستخدام السلاح السرّي. جلنار، بطبيعة الحال، لا تعرف أن «جهاز العمليات الخاصة» في الحزب رتّب الأمور في السنترال المركزي على نحو لا يسمح لأي مكالمة بالمرور إلا إذا كانت من عضو في الحزب، أو عضوة.

ابتسمتُ، وقلت:

ـ لا تصدقيني أنا، ولا تصدّقي أي مسئول آخر.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن عليك الاحتكام إلى الجمهور. لماذا لا نستمع إلى رأي الشعب مباشرة وعلى الهواء؟

ـ فكرة جيدة! الخطوط مزدحمة والكثيرون ينتظرون. معنا الآنسة فيروز. تفضلي يا أخت فيروز.

المشاهدة ـ معالي الوزير! هل يمكن أن تخبرنا بحجم المساعدات التي حصلت عليها الدولة خلال السنوات الثلاث الماضية؟

ـ بكل سرور. تمكّنت الوزارة من الحصول على قروض ميسرة بلغ مقدارها ٥ بلايين دولار، وعلى مِنح بلغ حجمها ٣ بلايين دولار، وعلى قروض تجارية في حدود ٧ بلايين دولار.

ابتسمت جلنار ابتسامة غامضة، وقالت:

ـ معنا، الآن، السيد ملحم. تفضل يا أخ ملحم.

المشاهد ـ معالي الوزير! هل يمكن أن تعطينا فكرة عن الاستثمارات في القطاع السياحي خلال الفترة الأخيرة.؟

وتوالت الأسئلة. سؤال رائع بعد سؤال رائع بعد سؤال رائع. وكانت الأجوبة، بدورها، رائعة. في نهاية الحلقة شعرتُ بشيء من الشفقة على جلنار، وبكثير من الرغبة. ربحت هذه المعركة على الهواء، ولكن هل أنجح في معركة السرير، حيث أخفق الجميع وفي مقدمتهم صديقي العزيز هاي بيبي؟!

الثلاثاء

بدأت جلسة مجلس الوزراء الأسبوعية بمداعبة من دولة رئيس الوزراء:

ـ يا أخ ريمون! كان لقاؤك البارحة عظيماً.

ـ شكراً يا دولة الرئيس! البركة في الإستراتيجية الناجحة التي وضعتموها دولتكم.

ابتسم دولته، وقال:

ـ والأجمل من كل شيء الأسئلة. الأسئلة العفوية!

قال وزير الهاتف فجأة:

ـ دولة الرئيس! كنت أنوي أن أثير هذا الموضوع. حدث شيء غريب في السنترال...

قاطعه رئيس الوزراء مبتسماً:

ـ أعتقد أن ريمون لديه شعبية كبيرة بين المواطنين وهذا شيء في صالح الحكومة.

عاد وزير الهاتف:

ـ ولكن الموضوع يا دولة الرئيس يحتاج إلى تحقيق. حدث تلاعب...

قاطعه رئيس الوزراء مرة أخرى:

ـ تعرف معاليكم أن هذا الموضوع ليس مدرجاً على الجدول. سوف أتفاهم معكم فيما بعد على إدراجه في الجدول إذا أردتم. أما الآن فأمامنا جدول مزدحم.

أدرك وزير الهاتف أن دولة الرئيس يريد للموضوع أن يموت. وأدركت أن دولته سوف يطلب مني شيئاً مقابل قتل الموضوع، وسوف أسمع منه في القريب العاجل. أمضينا بقية الجلسة في التعيينات. عينّا سفيراً من «حزب الانبعاث الديني». وسفيراً من «حزب الجحافل الوطنية» وسفيراً من «حزب الدستور والتحرير». سفراء! أنا أفضل أن يعمل أعضاء «حزب المساواة المطلقة» في الداخل، حيث تتخذ كل القرارات الهامة. سوف يجيء دور الحزب مع التعيينات القادمة.

عدت إلى المكتب لأجد صديقي القديم هاي بيبي في انتظاري. بعد العناق

الحار والقبلات، قال:

- أبو ضاهر! مقابلة رائعة! خاصة، المكالمات! كيف رتّبت الموضوع؟

ابتسمت، وقلت:

- الناس! الناس أولاد حلال، يا هاي بيبي، ويثمر معهم المعروف.

- صدقت، يا أبو الفقير، وعندي عدة مشاريع سوف تساعد الفقراء.

أمضيت بضع ساعات مع هاي بيبي. ووصلت في النهاية إلى اتفاق بموجبه يتولّى «بنك الصحراء القرمزية» ترتيب قرض دولي جديد. وإلى إعطاء هاي بيبي تراخيص لثلاث محلات لبيع الكاملبيرجر. وقررنا أن نستأنف البحث، مستقبلاً، حول مشروع تعليب الشاورمة. في نهاية الاجتماع قال هاي بيبي:

- ريمون! كنت هذا الصباح مع الياس...

أعرف، تماماً، أن هاي بيبي تبرع، هذا الصباح، مشكوراً، بمبلغ مليون دولار «لحزب المساواة المطلقة». قاطعته:

- هاي بيبي! أنت صديق من أعزّ أصدقائي. ولكني لا أخلط بين العمل والصداقة. ولا أخلط بين عملي الحكومي وعملي الحزبي. الياس ليس مسئولاً في الدولة وما دار بينكما لا يهمني في قليل أو كثير.

ضحك هاي بيبي ولم يقل شيئاً.

دخل طوني، سكرتيري الخاص جداً، وهمس في أذني وخرج. طلبت من تينا أن توصلني بزوجتي، وبدأت:

- حبيبتي! المعذرة! أرجو المعذرة! هناك وفد ضخم من اليابان. وفد سياحي كبير. ولا بد أن أدعوهم على العشاء. استثمارات ضخمة قادمة من اليابان. نسيت أن أخبرك. المعذرة! كان المفروض أن أخبرك. ضغط العمل. سوف أجيء متأخراً بعض الشيء. قبّلي الأولاد.

ذهبت مع هاي بيبي إلى شقة الحزب المطلّة على البحر، وهناك وجدنا النجمتين الصاعدتين داليدا ولوليتا. قبلتهما، وقلت:

- هذا صديقي. هذا أعز أصدقائي. هاي بيبي! لوليتا! هل أحضرت بدلة الرقص؟

الأربعاء

كان الزائر الأول ابن عم دولة الرئيس. جاء يطلب ترخيصاً لفندق جديد،

وحصل على الترخيص. لا يستطيع أحد أن يتّهم دولة الرئيس بالبطء!

بعد خروج القريب الحسيب زارني وفد من ضيعتي الحبيبة «كحلعيون» لشكري على المستشفى الذي وضع فخامة رئيس الجمهورية حجر أساسه في الضيعة في الأسبوع الماضي. أوضحت للوفد أن كل ما أعمله هو جزء من واجبي في خدمة وطني كله، من أقصاه إلى أقصاه، بلا تفرقة بين منطقة ومنطقة. في نهاية الزيارة طلب مني الوفد الموافقة على إقامة تمثال لي ينصب في الضيعة ولكني رفضت. ألحّ الوفد ولم أخضع للضغط. قلت للوفد إني لا أطلب سوى رضا الشعب ورضا الضمير، أما التماثيل فأتركها للآخرين الباحثين عن المجد والشهرة.

بعد خروج الوفد الكحلعيوني زارني المستر ستيوارد، المدير الإقليمي لشركة طيران «يونيڤرس». طلب السماح لشركته بمضاعفة عدد رحلاتها إلى العاصمة. أخبرته أني متعاطف جداً مع الطلب إلا أن الموضوع يخص وزارة النقل. وعدتُ ببذل جهدي لإقناع معالي وزير النقل بالموافقة. لا يعلم إلا الله الثمن الذي سيطلبه معاليه. وإن كنت أرجّح أنه سيطلب تخصيص أسهم كثيرة في عدة فنادق للأشخاص الذين يحدّدهم. ماذا أستفيد أنا من زيادة عدد الرحلات إلى العاصمة؟ لا شيء! المستفيد الوحيد هو الاقتصاد الوطني. هذا هو الفرق بيني وبين أصحاب المعالي الوزراء. كلّ منهم يعمل لمصلحته الشخصية وأنا الوحيد بينهم الذي يفكر في مصلحة الوطن ومصلحة المواطن.

بعد ذلك جاء دور نائب رئيس الإدارة القانونية في البنك الدولي. جاء ومعه كوكبة من المحامين لبحث الاتفاقية التي ننوي توقيعها مع البنك، والتي يقوم البنك، بموجبها، بتقديم جزء من التمويل المطلوب لسدّ «الناعورة». استدعيت فريقي القانوني وقضينا أكثر من ٣ ساعات في نقاش حاد، حتى استطعنا الوصول إلى اتفاق شبه نهائي.

إلاّ أن برنامج الصباح كان هيّناً ممتعاً مقارنة ببرنامج بعد الظهر، جلسة البرلمان الأسبوعية. سبق أن تقدم عدد من النواب المحترمين بأسئلة تتعلق بوزارتي، وكان عليّ، اليوم، أن أجيب على هذه الأسئلة. بدأ عضو محترم فقال:

ـ أودّ أن أسأل معالي وزير السياحة والتعاون الدولي عن السبب الذي يجعل وزارته محتفظة بـ ١٥٪ من أسهم «الكازينو الدولي» رغم وعود معاليه المتكرّرة بطرح هذه الأسهم للجمهور.

السبب الحقيقي هو أن التخلي عن هذه الأسهم يعني، تلقائياً، التخلّي عن كل الإمتيازات التي أتمتع بها، حالياً، في الكازينو: العشاء المجاني واللعب المجاني لي ولضيوفي. إلاّ أن البرلمانات لم توجد لبحث الأسباب الحقيقية لأيّ موضوع، ابتسمت وقُلت:

ـ أشكر سعادة النائب المحترم على سؤاله الوجيه. وأؤكّد له أن الوزارة بصدد إعداد الترتيبات النهائية لطرح هذه الأسهم للجمهور.

لم تقنع الإجابة النائب المحترم الذي عاد يسأل:

ـ متى تطرح الأسهم بالتحديد؟

ـ في أقرب فرصة.

ـ متى؟

ـ بمجرّد الانتهاء من بعض الإشكالات القانونية.

ـ لم نكن نعرف بوجود إشكالات قانونية. لم يسبق لمعالي الوزير أن تحدث عن إشكالات.

ـ آسف! استخدمت الكلمة الخطأ. ليعذرني النائب المحترم. أنا لست قانونياً ضليعاً مثل سعادته. كنت أقصد الشكليات القانونية. يذكر النواب المحترمون أن هناك قواعد سبق أن أقرّها البرلمان الموقّر تحكم عملية الخصخصة. قواعد تتعلق بتحديد سعر السهم الحكومي، وعدد الأسهم التي يمكن أن يملكها المواطن الواحد، وضرورة طرح الأسهم على دفعات متساوية. بمجرد الانتهاء من هذه الإجراءات، سوف تكون أسهم الحكومة تحت تصرف الجمهور الكريم.

ـ هل يستطيع معالي الوزير تحديد وقت؟

ـ بضعة أسابيع، على أكثر تقدير.

كان السؤال الثاني أصعب، نسبياً، من سابقه.

قام نائب محترم وقال:

ـ أرجو من معالي الوزير تنوير البرلمان حول ما يشاع ويذاع في كل مكان من أن الوزارة تعطي أبناء طائفة معاليه امتيازات خاصة، الأمر الذي يتعارض مع ما يردّده معاليه في كل مناسبة من أنه عدوّ الطائفية الأول.

ابتسمت بأدب شديد، وقلت:

ـ منذ تعييني في الوزارة لم يعين فيها سوى مسئولَيْن كبيرين اثنين، اسم الأول

حسين عبد النبي، واسم الثاني عبد العزيز جيلاني، ولا أعتقد أن أياً منهما من أبناء طائفتي.

ضجّ البرلمان بالضحك، وضرب دولة رئيس البرلمان المنصة بمطرقته حتى عاد الهدوء. وقال النائب المحترم:

ـ لم يكن سؤالي يتعلق بالتعيين في الوزارة. كنت أتكلّم عن الفنادق التي تشرف عليها الوزارة. يقال إن الوظائف في الفنادق أصبحت حصراً على طوائف دون طوائف.

ـ أحبّ أن أذكّر سعادة النائب المحترم أن التوظيف في الفنادق ليس من مهمّة الوزارة ولكن من اختصاص الفنادق نفسها. هي التي تعلن عن الوظائف الشاغرة، وهي التي تمتحن المتقدمين، وهي التي توظّف الناجحين. الوزارة لا تتدخّل في هذه العملية. ومع ذلك فأنا أقول لسعادة النائب المحترم إنه إذا كانت هناك مخالفات محدّدة فنحن في الوزارة على أتم استعداد للنظر فيها بالاشتراك مع الزملاء في وزارة العمل. إلا أننا لا نستطيع التحرك إلا بناء على شكاوى محدّدة.

وقف النائب المحترم، وقال:

ـ ما أودّ أن أقوله، بكل صراحة، لمعالي الوزير إن هناك طائفة مُعيّنة لا يُعيّن أبناؤها في الفنادق، وأعتقد أن هذا الموضوع يحتاج إلى إيضاح.

نظرت إلى دولة رئيس البرلمان، وتظاهرت بالتردد، ثم قلت ببطء:

ـ النقطة التي طرحها سعادة النائب المحترم تثير قضيّة حسّاسة، وهي قضيّة لا أستطيع أن أعلّق عليها. لا أستطيع إجبار المواطنين الذين يرفضون العمل في الفنادق لأن ما يدور فيها لا يرضي ضمائرهم على العمل رغماً عن معتقداتهم. . .

قاطعني دولة رئيس البرلمان:

ـ معالي الوزير على حق. هذا موضوع متروك لضمير كل مواطن. ليس من حق الحكومة أن تجبر إنساناً على أن يعمل في جهة ما، وليس من حق البرلمان أن يناقش عقائد المواطنين.

نظرت إلى دولته، وقلت:

ـ أشكرك يا دولة الرئيس. هذا ما كنت أريد قوله.

كان السؤال الثالث أصعب من سابقيه، وكل الأمور نسبية بطبيعة الحال. وقف نائب محترم وقال:

ـ سبق أن أثرت هذا الموضوع عدة مرات، أكثر من ١٠ مرات، ولم يحدث

شيء، ولم تتحرك الحكومة. لماذا لا تُعرض الاتفاقيات التي تبرمها وزارة السياحة والتعاون الدولي علينا إلا بعد أن يوقعها معالي الوزير؟ لماذا لا تُعرض علينا قبل التوقيع؟ ما الفائدة من عرض اتفاقية على البرلمان بعد أن تكون الحكومة قد التزمت بها؟

إبتسمت، وقلت:

ـ سبق لسعادة النائب المحترم أن أثار الموضوع وسبق أن أجبنا، زملائي وأنا، على هذه النقطة. منذ سنين تمّ اتفاق بين رئاسة البرلمان ورئاسة الحكومة على أن تُعرض الاتفاقية بعد توقيع الوزير المسئول مع التسليم بحق البرلمان المطلق في تغيير أيّ بند من بنودها. في حالة اعتراض البرلمان الموقّر على أي مادة نذهب إلى الطرف الآخر ونخبره أننا لا نستطيع الالتزام بهذه المادة، ونطلب منه تغييرها حتى تتمشى مع رغبة البرلمان. نحن في الحكومة نؤمن أن الكلمة الأولى والأخيرة في كل اتفاقية دولية يجب أن تكون للبرلمان المُوقّر.

وقف سعادة النائب وقال:

ـ المشكلة، كما يعرف معالي الوزير جيّداً، أن الاتفاقيات تعرض علينا جملة واحدة، آلاف الصفحات، ويطلب منا الموافقة خلال أيام معدودة. كيف يتمكن أعضاء البرلمان أن يدرسوا اتفاقيات طويلة مُعقّدة خلال أيام؟

نظرت إلى دولة رئيس البرلمان، وقلت:

ـ من حق البرلمان الموقّر أن يضع الإجراءات التي يراها لنظر الاتفاقيات، وسوف نمتثل لإرادة البرلمان.

تدخل دولة رئيس البرلمان:

ـ أشكر معالي الوزير. وأشكر سعادة النائب. نحن في الواقع نجري، الآن، اتصالات مع رئاسة الحكومة ومع المجلس الدستوري لبحث الموضوع من جميع جوانبه وحين نصل إلى الصيغة القانونية الملائمة سنعرضها على النواب المحترمين لإقرارها.

كان السؤال الأخير من عضو في كتلة «حزب المساواة المطلقة».

قال النائب:

ـ أرجو أن يخبرنا معالي الوزير عن آخر الإحصائيات المتعلقة بالسياحة.

ـ يسرّني أن أزفّ بشرى إلى أصحاب السعادة النواب المحترمين. شهد الشهر الأخير ارتفاعاً في عدد السوّاح لم يسبق له مثيل. بلغ عدد السوّاح ٩٥,٦٣١ في

شهر واحد. إذا تذكرنا أن هذا الشهر يقع في موسم الركود السياحي جاز لنا أن نتوقّع أن يصل عدد السواح هذا العام إلى رقم قياسي.

تناولت العشاء مع شنتال وجورجينا وضاهر في المنزل. بعد العشاء استأذنت شنتال في الخروج لأني وعدت صديقي هاي بيبي أن أمرّ بالحفلة التي يقيمها الليلة. شنتال، التي تعرف هاي بيبي وتعرف أهمية إستثماراته، وافقت بعد تردد قصير.

في «البنت هاوس» الواسع في الفندق الفخم الذي يملكه هاي بيبي كانت الحفلة في أوج احتدامها. كان هناك العشرات من وجوه المجتمع: وزراء، ونواب، ورجال أعمال، وصحفيون وصحفيات، ونجوم ونجمات. لم يلفت نظري في الجمع كلّه إلا جلنار التي وقفت في ركن بعيد كالملكة يحف بها حشد من المعجبين. لمحتني وابتسمتْ، ورددتُ على الابتسامة بأوسع منها. انسحبتُ، بهدوء، إلى الشرفة المطلة على البحر، أدخّن وأتأمل النجوم التي تسبح بين الأمواج. كنت في حاجة إلى قليل من السكينة بعيداً عن أصحاب المعالي، وأصحاب السعادة، وأفكار هاي بيبي الجنونية.

بعد دقائق سمعت هسهسة حرير، وشممت عطراً دافئاً خافتاً، وجاء صوت جلنار:

- لماذا تقف هنا بمفردك يا معالي الوزير؟

قلت بسرور حقيقي:

- مدموزيل جلنار! أهلاً وسهلاً! كنت أتأمّل النجوم تلعب في الأمواج. عندما يكون الإنسان في عمل مثل عملي يفرض عليه التعامل، يومياً، مع مئات من البشر تصبح الخلوة مع الطبيعة متعة نادرة.

- ومع الطوابع؟

- ومع الطوابع.

- هل صحيح أن ثمن مجموعتك يتجاوز ١٥ مليون دولار؟

- هذا ما قاله لي بعض الخبراء. ولكني لا أنوي بيعها، ولا أعرف قيمتها الحقيقية. الطوابع، كاللوحات الزيتية، لا يُعرف ثمنها الفعلي إلا إذا عرضت في مزاد.

- لا أود أن أعقد حلقة جديدة من البرنامج ولكن هل تعرف ما يقوله الناس عن مجموعة الطوابع هذه؟

ـ مدموزيل جلنار! ما يقال عن مجموعة الطوابع هو، بالضبط، ما يقال عن مجموعة التحف الأثرية التي أملكها. يقال إني لجأت إلى استغلال النفوذ، وصادرت الطوابع والتحف، أعني سرقت الطوابع والتحف، من عدد من المتاحف القديمة شبه المهجورة.

ـ هذا، فعلاً، ما سمعته.

ـ في هذا البلد، هذا البلد بالذات، ولأسباب يطول شرحها، توجد أكبر نسبة من الحاقدين والحاسدين في العالم كلّه. لا يصدّق الناس إلاّ أحاديث الرشوة والفساد والإغتصاب والإنحلال. لمعلوماتك، التحف التي لديّ توارثتها أسرتي، الإقطاعية كما تقولين، جيلاً بعد جيل. أنا على استعداد لأن أريك صورة لجدي، التقطت قبل ولادتي، وحوله معظم هذه التحف. واصل أبي الهواية، وأضاف إلى المجموعة، وأضفت بدوري بعض الأشياء.

ـ والطوابع؟

ـ قد يبدو ثمن المجموعة خيالياً ولكن الطوابع سلعة غريبة جداً. الطابع الذي أشتريه اليوم بدولار قد يصبح سعره بعد عشر سنوات ١٠,٠٠٠ دولار. كان عندي طابع عادي لم أكن أعلّق عليه أي أهمية. فوجئت عندما عرفت أن ثمنه نصف مليون دولار. طابع واحد! ولماذا؟ لأنه كانت هناك غلطة مطبعية في التاريخ. تصوّري! غلطة مطبعية تافهة تجعل من طابع بسنت واحد كنزاً يساوي نصف مليون دولار. بالمناسبة، لماذا لم تسألي هذه الأسئلة على الهواء؟

ـ الهوايات الشخصية لا تهمّ المشاهدين والمشاهدات، ما لم تكن غريبة جداً.

ـ غريبة جداً؟!

ـ مثل تربية العقارب والعناكب السامة. أفضّل أن يركز البرنامج على القضايا العامة.

ـ لا بُدّ أن أعتذر لك عن أي حرج سبّبته لك.

ـ لا مُبرّر للإعتذار. لعبت معي نفس لعبتي. أمّا موضوع المكالمات فقضية أخرى.

تظاهرت بالغباء:

ـ المكالمات؟ ماذا تقصدين؟

أشعلت جلنار سيجارة، ونفثت دخانها في الهواء، ببطء، حلقة مستديرة بعد حلقة مستديرة، وقالت:

ـ أنظر إلى هذه الحلقات. ما رأيك فيها؟

ـ جميلة. مستديرة تماماً.

ـ بالضبط. وغير عفوية. مقصودة.

ضحكت وقلت:

ـ يبدو أن بعض الشباب في الحزب...

قاطعتني:

ـ على أية حال، انتهى البرنامج الآن. ولا بد أن أعترف يا معالي الوزير...

ـ ألا يمكن إعفائي من معالي الوزير؟

ـ لا بد أن أعترف، يا ريمون بيك، أنك ربحت المعركة. إلاّ أنك سوف تكتشف أنك خسرت الحرب.

ـ ماذا تعنين؟

ـ لم يكن هناك مشاهد واحد، أو مشاهدة واحدة، لم يعرف حيلة التيلفونات. حيلة بدائية جداً. أثبت أمام ٢٠ مليون مشاهد ومشاهدة أنك لا تتورع عن استخدام أي وسيلة، حتى الوسائل التي تخالف القانون. أفترضُ أن القانون في هذه الدولة الديمقراطية يمنع التجسس على المكالمات التيلفونية.

تنهّدتُ، وقلت:

ـ حسناً! حسناً! خسرتُ المعركة. وخسرتُ الحرب. وقد أدخل السجن. ما أريده، الآن، هو عقد صلح، صلح كامل، بيني وبينك. هل هناك أمل؟

ـ ليس بيني وبينك أيّ مشكلة شخصية.

ـ صحيح. صحيح. ولكني أطمح، مجرد طموح، إلى أن تتحول علاقتنا إلى صداقة، أو ما يشبه الصداقة.

ـ ما يشبه الصداقة؟!

ـ أعني علاقة يمكن أن تؤدّي إلى صداقة.

ـ بإستطاعتك أن تعتبر نفسك، الآن، صديقي.

ـ حقاً؟

ابتسمت، وقالت:

ـ وحياة جدي العشماوي الشهير.

تمتمت:

ـ أعتذر مرة أخرى. أعتذر بحرارة.

ـ وأقول، مرة أخرى، لا مُبرّر للاعتذار.

ـ إذا كنت، حقاً، تعتبرينني صديقاً فهل بوسع هذا الصديق أن يكفّر عن خطيئته بدعوتك إلى عشاء خاص؟

ـ في «كحلعيون»؟

أشرتُ بيدي إلى يخت صغير، أعني صغير جداً، تتلألأ أنواره في البحر، على بعد كيلومترين من الشاطىء، وقلت:

ـ انظري إلى هذا القارب...

قاطعتني:

ـ تقصد اليخت؟

ـ حسناً! من ناحية فنية خالصة، أنت على حق. القارب الذي يتجاوز طوله ٥٠ قدماً يمكن أن يسمى يختاً، وطول هذا القارب ٦٠ قدماً.

ـ حسناً! ماذا عنه؟

ـ هذا قاربي. أو يختي. يسعدني أن تتناولي فيه طعام العشاء معي قبل سفرك.

ـ بمفردنا؟

ـ إذا لم يكن لديك مانع.

ـ بوسعي أن أسبح إلى اليخت.

ضحكتُ، وقلت:

ـ لا! لا! سوف يكون على المرفأ قارب يوصلك. متى سيكون لي هذا الشرف.

ـ الفرصة الوحيدة مساء الأحد.

ـ مساء الأحد، إذن. سوف يكون القارب في انتظارك على المرفأ في الثامنة مساءً.

ـ هل يمكن أن نجعلها التاسعة؟

ـ التاسعة!

ـ لي رجاء.

ـ هو أمر لا رجاء.

ـ لا ترسل قارباً. سوف أجيء إلى اليخت بقاربي.

ـ هل لديك قارب هنا؟

ـ صديقنا في الداخل، هاي بيبي، يملك عدة قوارب راسية في مرفأ الفندق. سوف أستعير واحداً منها.

ـ تعالي بالطريقة التي تريدينها. بغواصة إن شئت. سوف أكون في انتظارك.

ـ إلى اللقاء.

تبيّنتْ شنتال في وجهي، على الفور، علامات الفرح التي حاولت، جاهداً، إخفاءه، وقالت:

ـ تبدو سعيداً. ماذا حدث في الحفلة؟

ضممتها، وقبلتها، وقلت:

ـ مشروع جديد يا حبيبتي. مشروع هام جداً.

لم أكن أكذب عليها. هل كنت أكذب عليها؟

الخميس

هذا يوم المؤتمرات والندوات واللقاءات. هذا الصباح قمت، نيابة عن فخامة رئيس الجمهورية، بافتتاح مؤتمر «مرحلة التعمير والاستثمار» التي حضرها عدد كبير من رجال الأعمال من مختلف دول العالم. أعتقد أن كلمتي قوبلت بالاستحسان. حضرتُ الجلسة الصباحية، وحفل الغداء الذي أقامته الوزارة على شرف الضيوف في فندق «هاي لايف».

أمضيت فترة ما بعد الظهر في «الندوة السياحية الثالثة». دعُوت لعقد الندوة الأولى بمجرد استلامي الوزارة، ونجحتْ نجاحاً كبيراً دفعني إلى جعلها تقليداً سنوياً. تضم الندوة ممثلين من كل شركات السياحة العاملة في الدولة، أو المتعاملة معها. وتستهدف مناقشة المشاكل التي تواجهها هذه الشركات أو التي يواجهها السوّاح وطرق حلّها. ما لا يعرفه الكثيرون أن عدداً من الاقتراحات التي تقدمت بها إلى البرلمان وأصبحت قوانين دفعت عملية السياحة نبعتْ من هذه الندوة. ألقيتُ الكلمة الافتتاحية، وحضرتُ اجتماع بعض اللجان، ثم عدتُ إلى المكتب لأتعامل مع الأوراق والزوّار.

في المساء اصطحبت شنتال معي إلى «لقاء الشلاّلات السياحي الثقافي الثالث». هذا اللقاء، بدوره، فكرة من أفكاري الناجحة. أصبح اللقاء، رغم عمره القصير، مشهوراً على إمتداد عربستان حتى كاد ينافس لقاء الحمراء الشهير. توالت،

العروض الثقافية، وانتهت الأمسية بالقصائد. لفت انتباهي شاعر قال عريف الحفل «إنه رائد التجديد في الشعر الحديث». إسمه غريب بعض الشيء، فليفلة أو فلفلة. وكانت القصيدة التي ألقاها غريبة جداً:

أتغلغل في سرّتك
منفلشاً، في قوارير الشهوة
وأنبثق من سرّتك
مستشبقاً برائحة الأرض
بحلمتك أطعن مرارتي.
طعنة.. بعد طعنة.. بعد طعنة
ويتغلغل مطر ذو أظافر
في سرّتي.
وأشعر أني حصان تتري جامح
يفترس ورودك البنفسجية

بمجرد أن انتهى الشاعر من القصيدة شعرت، بدون سبب واضح، برغبة جنسية مباغتة. التفت إلى شنتال ووجدت في عينيها «ذياك البريق». فيما بعد، على السرير، سألتني شنتال:

ـ ما معنى مستشبقاً؟

قلت:

ـ سأخبرك عندما أنتهي من افتراس ورودك البنفسجية.

وضحكنا، ونحن نستشبق.

الجمعة

قضيت الصباح، بأكمله، في «كحلعيون»، حيث لقيت الاستقبال الجماهيري المعتاد. هتافات «عاش أبو الفقير» في كل مكان. صوري على كل جدار. شعارات الحزب تُطلّ من كل نافذة. جوّ انتخابي بلا انتخابات. نبّهت على الياس أن يمنع التقاط الصور أثناء سلام أبناء الضيعة عليّ، ولم يكن الياس، الذي تابع «عيون العالم عليك»، بحاجة إلى تنبيه. عالم غريب! لا يستطيع الواحد منا، الآن، أن يسمح لأحد أبناء الضيعة بتقبيل يده.

عُقد الاجتماع الشهري لمكتب الحزب السياسي برئاستي، واتُخذت عدة

قرارات إيجابية. أعلن أمين الصندوق، بولص مصاري، أن الخزانة مليئة بتبرعات أنصار الحزب. قرر المكتب السياسي زيادة مقدارها ٢٥٪ على المخصصات التي تدفع لعوائل الطائفة، أعني عوائل الحزب المحتاجة. وقرّر إدخال نفس الزيادة على مخصصات جنود المليشيا التي تسمى الآن «فرق الرياضة والكشّافة». بناءً على توصية خاصة مني، قرّر المكتب زيادة رواتب العاملين في جهازي «العمليات الخاصة» و «المعلومات والرصد» بنسبة ٥٠٪. بعد ذلك، ناقشنا الانتخابات السنوية للحزب التي سيحل موعدها بعد شهرين. قرّرنا أن نتقدم إلى المؤتمر العام بنفس اللائحة السنوية، برئاستي. في العادة تنتخب اللائحة بالتزكية، ولم أكن أتوقع أي تغيير هذه السنة. إلا أن الياس شحطوط طلب الكلمة وقال:

- معالي الوزير! بلغني...

قاطعته:

- الياس! أنا لست في الوزارة الآن.

استدرك على الفور:

- حضرة الرئيس! بلغني أنه سوف تكون هناك لائحة إنتخابية أخرى هذه السنة.

قلت بذهول:

- عفواً؟!

- سوف يرشح عضو نفسه لرئاسة الحزب ومعه لائحة منفصلة عن لائحتنا.

- من هو؟

- رزق البندورة.

رزق البندورة؟! هذه نهاية العالم! الفلاح القذر ابن الفلاح القذر! هل غرّته الشهادة الجامعية؟ أم الوظيفة الهامة في الفندق؟ ومن أين جاءت الشهادة؟ ألم يتعلّم على نفقة المرحوم أبي؟ ومن أين جاءت الوظيفة؟ ألم أعيّنه أنا؟ هل هذه نتيجة المعروف؟

التفتُ إلى أعضاء المكتب، وقلت:

- هذه بشرى سارة. هذا أحسن خبر سمعته منذ مدّة طويلة. دائماً نحن نُنتقد من قبل أعدائنا لأننا نُنتخب بالتزكية. عبثاً كنا نكرّر أن هذه إرادة جماهير الحزب. الآن، في وجود لائحة منافسة، لن يستطيع أحد أن ينتقدنا. أرجوك، يا الياس، أن تخبر رزق أننا جميعاً، أعضاء المكتب السياسي وأنا، نبارك خطوته الديمقراطية، ونتمنى له التوفيق.

عندما خرجت من مقرّ الحزب كانت أخبار الزيادة في المخصصات قد تسرّبت، وقوبلت بلقاء أكثر حرارة. حُملت على الأعناق إلى سيارتي، وكانت الهتافات بحياة «أبو الفقير» تصم الآذان. قبل أن أركب سيارتي طلبت من رئيس «جهاز العمليات الخاصة»، سعيد أبو بطحة، أن يسبقني إلى «المركز»، و «المركز» ڤيلا سرّية في ضواحي العاصمة لا يعرف عنها غيري وغيره و٤ عناصر من الجهاز.

في «المركز» وجدت سعيد في انتظاري. قلت له على الفور:

ـ ما قصة رزق البندورة؟

ـ يبدو، يا معالي الوزير، أن هناك من يحرّكه.

ـ هذا مؤكّد. ولكن كيف يسمح لنفسه أن ينساق مع أعدائنا بعد كل أفضالي عليه؟

ـ مجرم ناكر للجميل.

ـ ألا تعتقد أننا يجب أن نحذّره من مغبّة أعماله؟

ـ ولوّ يا معالي الوزير! حذّرته عشرات المرات.

ـ ولم يتراجع ابن الحرام؟

ـ لم يتراجع.

ـ وماذا نفعل الآن؟

ـ اترك الموضوع لي.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ عند رزق سيارة بيجو نصف عمر.

ـ حسناً؟

ـ ويصلحها عند إفرام أبو الزوق، عضو الجهاز.

ـ حسناً؟

ـ وهي، الآن، عند إفرام لإجراء تصليحات شاملة.

ـ سعيد! برافو! برافو! قل لأفرام أن رزق البندورة محسوب عليّ، عزيز عليّ جداً. قل له أن يحرص على إصلاح السيّارة بكل دقة. لا نودّ أن يحدث حادث للرجل. قل له أن يحرص على الفرامل، بصفة خاصة. كثير من الحوادث تتم هذه الأيام بسبب السرعة وعطب الفرامل. أولاد الحرام كثيرون يا سعيد.

ـ ربنا يحمينا منهم يا معالي الوزير.

ـ يا ربّ!

السبت

قبل الوزارة، وبعد الوزارة، قبل رئاسة الحزب، وبعد رئاسة الحزب، قبل المشاغل، وبعد المشاغل، ظلّ يوم السبت، من بدايته إلى نهايته، اليوم المُقدّس، المخصص للعائلة، وللعائلة وحدها.

كالعادة، ذهبنا، شنتال وجورجينا وضاهر وأنا، إلى بلاج «البلازا». قضينا معظم الوقت في السباحة والألعاب المائية، وتناولنا طعام الغداء في الشاليه، ولم نعد إلا مع الغروب.

كالعادة، كان المساء مُخصّصاً للعائلة الكبيرة، عشيرة أبو شوكة، وعشيرة أبو شمعة (عشيرة شنتال). جاء الزوار، وذهبوا. منهم من بقي بضع دقائق ومنهم من بقي ساعة. منهم من أكل وشرب، ومنهم من لم يأكل ولم يشرب. منهم من لعب ورقاً وطاولة ودخن أركيلة، ومنهم من لم يلعب، ولم يدخّن. إلا أنهم جميعاً، بلا استثناء، جاءوا بمطالب، مكتوبة أو شفوية. زاد عدد الزوار هذا المساء عن ٦٠ زائراً وزائرة، أيّ أن عليّ أن أتعامل، خلال الأسبوع القادم، مع ٦٠ طلباً على الأقل. بعض الطلبات معقولة. مساعدات مادية بسيطة سوف تصل إلى طالبيها في ظروف خلال الأسبوع. وبعض الطلبات أصعب: وظائف في فنادق أو شركات سياحية. سيحصل المؤهلون على الوظائف، أما الباقون فلا بُدّ من الاعتذار لهم. وهناك طلبات غير معقولة، القريب الأمّي الذي يريد أن يصبح نائباً أو مديراً عاماً. أصحاب الطلبات غير المعقولة لا يتلقون أي ردّ مني، ولكنهم، في العادة، يرجعون، بعد شهر أو أكثر، بالطلبات نفسها.

نصف دخلي، نصف دخلي وربّما أكثر، يذهب إلى العشيرة. أحياناً، أتصوّر أنني لن أترك شيئاً لأولادي بعدي. ولكن ماذا أفعل بمتطلبات الزعامة؟ وما قيمة الإنسان بلا عشيرة؟ هل كان بوسعي أن أصل إلى ما وصلتُ إليه لولا العشيرة؟ هل كان بوسعي أن أبقى في موقعي الحالي لولا العشيرة؟

بعد خروج الزوار، سألتني شنتال مبتسمة:

ـ نسيت تلك الكلمة الغريبة التي قالها الشاعر. هل كانت مستنشقاً؟

الحر تكفيه الإشارة. ضحكت وقلت:

ـ سأخبرك في السرير.

لا عجب إذا سمّى هذا الشاعر نفسه فليفلة. شعره حرّاق جداً!

الأحد

قضيت الصباح، كلّه، كالعادة، في «كحلعيون» أتفقد شئون الضيعة، أعني شئون الحزب، أعني، بطبيعة الحال، شئون الناخبين الذين أمثلهم في البرلمان. قمت بزيارة عدد من المرضى. قبلت عدة دعوات على الشاي. تناولت الغداء في منزل أم ميشيل، أرملة المرحوم داغر أبو دولاب الذي كان سائق المرحوم أبي. كان الغداء بسيطاً وشهياً ومن طبخ يديها. همست في أذن الياس طالباً أن يرسل إليها، غداً، ظرفاً يحتوي على ٢٠٠٠ دولار. أعتقد أن لقب «أبو الفقير» سوف ينتهي بي فقيراً من الفقراء. ومع ذلك، فلا قيمة للإنسان بلا ضيعته وأبناء ضيعته، ولا قيمة للمال إذا لم ينفقه على المحتاجين من أبناء الضيعة.

بعد الغداء، عدت إلى مكتبي في مقر الحزب، وعقدت اجتماعاً خاصاً جدّاً مع سكرتيري الخاص جداً، طوني، للتأكد من أن المساء سوف يمر كما أريد له أن يمرّ. طلبت من طوني أن يحضر العشاء من «ونترلاند»، وأن يتأكد من كونه خفيفاً لذيذاً، مكوّناً من كاڤيار ومأكولات بحرية. وطلبت منه أن يحضر من نفس الفندق ٦ زجاجات شمبانيا ماركة «روتشيلد» (من دواعي سرور أي فندق أن يُطلبَ منه تقديم هذه التسهيلات البسيطة بين الحين والحين). طلبت أن يكون الزورق الصغير مستعداً لأخذي من المرفأ إلى اليخت في الثامنة. طلبت أن يوصلني الزورق إلى اليخت ويأخذ معه الكابتن والملاحين إلى الساحل، ويعود لي في الواحدة. أكّد لي طوني أن كل شيء سوف يكون «على ذوقي». آه! الذوق! أبو الزوق! ترى ما أخبار السيّارة؟

وجدتُ صعوبة بالغة في إقناع شنتال بالسماح لي بالخروج (جرت عادتي على قضاء مساء الأحد في المنزل). اضطررت إلى استخدام سلاحي الأعظم: اجتماع سرّي مع فخامة رئيس الجمهورية يتوقف عليه مصير الحكومة. لا تستطيع شنتال، الآن، مواجهة الحياة دون أن تكون «حرم معالي الوزير»، أو، أحياناً، «الوزيرة»، وحصلت على الإذن المطلوب.

في الثامنة والنصف كنت أمشي، بقلق متزايد، على سطح اليخت الصغير، وأشرب كأساً من الشمبانيا بعد كأس. أخبرني صديقي هاي بيبي أنه لا جدوى من إضاعة الوقت مع جلنار. قال إنه حاول ـ لم يترك وسيلة إلا وجرّبها ـ دون

جدوى. حتى سحر الدكتور بصير العارف لم ينفع. وقال إنه يوشك أن يصل إلى اقتناع أنها «الزبيان»، أو مثلّجة جنسياً. أنا، شخصياً، أعتقد أن جلنار ليست «الزبيان»، وليست مثلّجة جنسياً. أنا أعتقد أنها امرأة حقيقية تحتاج إلى رجل حقيقي يستطيع تطويعها كما يطوع الفارس الماهر الفرس الجموح. كانت هذه الأفكار تدور بذهني وأنا أدور على السطح أتأمل النجوم الراقصة بين الأمواج الصغيرة. عادت بي الذكرى إلى الأيام الرومانسية، والمواعيد الرومانسية، والعشق الرومانسي. إلى تلك الأيام الخالية. قبل قدوم «أمرك يا بيك!» و «حاضر معالي الوزير!». والنجمات الصاعدات اللاتي يخلعن ملابسهن قبل السلام والكلام. موعدي، هذا المساء، من نوع آخر، من نوع المواعيد الرومانسية القديمة.

وصلت جلنار في الموعد، التاسعة تماماً، وهمست في أذن قائد الزورق الذي أحضرها، وتسلّقت السلّم برشاقة، وهتفت بعفوية:

ـ ليلة جميلة! ويخت جميل. يخت صغير جميل!

أدخلتها معي إلى الصالون إلا أنها فضلت البقاء في الخارج على السطح. جلسنا على مقعدين وبيننا طاولة مزدحمة بزجاجات الشمبانيا. صببت لها كأساً، وأخذت ترشفه ببطء شديد. فجأة، فيما يشبه نزول الصاعقة، اكتشفت وجوه الشبه المذهلة بينها وبين كوليت. ترى هل هذا ما دفعني إلى الهيام بها منذ أول نظرة؟ آه! كوليت! وذكريات الشباب. والتسكع في الحيّ اللاتيني حتى الصباح. ومطاعم النهر الصغير. وشوربة البصل الساخنة. والجنون. كوليت التي عشقتها حتى الجنون، وعشقتني حتّى الجنون. وكدنا نتزوّج. لولا اعتراض أبي. وإصراره على أن أتزوج شنتال. شنتال شهاب أبو شمعة! اسم ملتهب بعض الشيء! ليلتئم شمل الطائفة بإقتران عشيرتيها الرئيستين. وتركتُ كوليت. وتزوجْت شنتال. وكان من حسن حظي أنها جميلة جداً ومرحة جداً ومستشبقة جداً. تحوّل التحالف السياسي إلى زواج ناجح. لا عيب في شنتال سوى صعوبة التملّص منها. وحتى هذه الصعوبة بدأت تخف عندما أصبحت «حرم معالي الوزير». وكوليت. . .

فجأة، قالت جلنار:

ـ أراك شارد الذهن يا معالي الوزير.

قلت:

ـ ألم نتفق. . .

ضحكت، وقالت:

ـ حسناً! يا ريمون بيك! ماذا يشغل بالك؟

لم أشأ أن أشاركها أفكاري. بدلاً من ذلك، تأملتها بعناية. كانت ترتدي ثوباً مشجّراً قطنياً أبيض تموج عبره دوائر زرقاء، وكان شعرها الطويل ملفوفاً على هيئة كرة صغيرة، وكانت تضع في أذنيها قرطين رخيصين، وتضع حول رقبتها عقداً رخيصاً. كيف تستطيع امرأة أن تبدو بهذا الجمال وهي تلبس بهذه البساطة؟ قلت لها:

ـ هل تريدين الصراحة؟

ـ أحسبنا تعوّدنا على ذلك.

ـ كنت أفكّر كيف يمكن لامرأة أن تبدو بهذه الأناقة وهي ترتدي ثياباً ومجوهرات لا تتجاوز قيمتها ٣٠٠ دولار؟

ضحكت جلنار ضحكة موسيقية طويلة، وقالت:

ـ هل تملك محلات «بوتيك»؟

ـ لا. ولكنني أزورها بين الحين والحين.

ـ تقديرك قريب جداً من الصحة. المبلغ أقل بقليل من الرقم الذي ذكرته.

ـ هل اشتريت هذه الأشياء من هنا؟

ـ أنا أشتري كل ملابسي من لندن. في موسم التخفيضات.

ـ آه! لندن! عاصمة التسوّق!

ـ تشدّني إلى لندن أشياء غيرالتسوّق.

ـ أشياء عاطفية؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك. أشياء كالتي تشدّك إلى باريس. وإلى كوليت.

لم أستطيع أن أكتم الدهشة التي باغتتني. قلت:

ـ كيف؟ كيف عرفت؟

ضحكت مرة أخرى، وقالت:

ـ قراءة الأفكار! تعلمت هذا الفن من صديقنا المشترك الدكتور بصير العارف.

هذه المرأة العجيبة! كيف عرفت عن كوليت؟ وعن بصير؟

ـ أنت تعرفين بصير العارف؟

ـ أعرفه جيّداً. ظهر على برنامجي وكانت الحلقة من أنجح الحلقات. الأمر الذي يقودني إلى الهدف الحقيقي من مجيئي الليلة.

ـ كنت أعتقد. . .

ـ لا تخف. سأشرب. وسآكل. ولن أغادر الآن.

ـ ما هو الهدف الحقيقي؟

ـ أريد دعوتك إلى احتفال خاص. احتفال يهمني كثيراً. فوق ما تتصوّر.

ـ عيد ميلادك؟

ـ هو عيد ميلاد ولكنه من نوع آخر. بعد ٣ شهور، بالضبط، سوف تحل الذكرى السابعة لبرنامج «عيون العالم عليك».

ـ مبروك مقدّماً.

ـ شكراً. وسوف أقيم احتفالاً خاصاً بهذه المناسبة. خاصاً جداً. في جزيرة.

ـ جزيرة؟!

ـ جزيرة صغيرة جداً. وسوف أدعو إليها عدداً من الشخصيات اللامعة التي ظهرت على البرنامج. ٧ ضيوف.

وجدت نفسي، كالأبله، أكرّر:

ـ ٧ ضيوف؟

ـ وأنت تعرف معظمهم. لا أستبعد أن تكون تعرفهم كلّهم.

ـ من هم؟

ـ فلنبدأ بصديقنا المشترك الدكتور بصير العارف.

ـ سوف يكون هناك؟

ـ سوف يكون هناك. قبل الدعوة. وبكل سرور، كما زعم. وهناك صديقنا المشترك الثاني، هاي بيبي. أعتقد أنك رأيت الضيف الثالث هذا الأسبوع. حضر اللقاء السياحي. . .

ـ الشاعر؟ فليفلة؟

ضحكت، وقالت:

ـ الشاعر. واسمه كنعان فلفل. لا شك أنك تعرف الضيف الرابع، مسعود أسعد.

ـ هذا. . .

قاطعتني فوراً:

ـ كل الشخصيات المدعوّة مثيرة للجدل، وكلها يمكن النظر إليها من أكثر من

منظور. الضيف الخامس هو فيلسوف العرب الأوحد، الدكتور جمال الدين مرسي.

ـ لم أسمع به.

ـ لا يهمّ. سوف يسرك الاجتماع به. فيلسوف باشا، بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية الواسعة، رجل ظريف جداً.

ـ فيلسوف باشا؟!

ـ اسم الدلع. مثل أبو الفقير.

لا أدري هل لاحظت في الضوء الشاحب رد الفعل على وجهي.

قلت:

ـ لماذا لا تشربين؟

ـ أنا أشرب بلا عجلة. هل أنت في عجلة؟

ـ لا! لا!

ـ أعتقد أنك تعرف الضيف السادس. الدكتور أنور مختار.

ـ أعرفه جيداً. الطبيب النفسي الغريب. إذا ذهب إليه إنسان ليتخلّص من التدخين نصحه بالاستمرار في التدخين، وإذا زاره مريض. . .

ـ لديه منطقه الذي شرحه في أكثر من كتاب.

ـ بدأتُ قراءة كتاب من كتبه، ولم أستطع إكماله.

ـ تستطيع أن تعرف نظريته منه مباشرة. بقي الضيف السابع.

ـ الضيف السابع؟!

ـ الهدف الحقيقي من زيارتي الليلة هو دعوة الضيف السابع. معاليكم!

ـ أنا؟

ـ أنت!

ـ ٧ رجال؟!

ـ وامرأة واحدة!

ـ ولكنك استضفت المئات عبر السنين. لماذا اخترت هؤلاء السبعة؟

ـ عدني أنك ستحضر، وسوف أخبرك بالسبب.

ـ سأفكّر.

ـ أريد وعداً قاطعاً! أريده الآن!

ـ هل ستستغرق الحفلة يوماً واحداً؟

ـ ٧ أيام. بلياليها.

ـ ما هي حكاية السبعة؟

ـ هذا سؤال يسرّ الدكتور بصير العارف أن يجيب عليه. رقم ٧ مليء بالأسرار، وبالسحر. هناك ٧ كواكب و٧ ألوان و٧ أيام في الأسبوع، و٧ أنغام في النوتة، و٧ سماوات، و٧ أرضين و٧...

ـ حسناً! حسناً! أعتقد أني بحاجة إلى إجازة قصيرة من ٧ أيام.

ـ ولن تجد أجمل من هذه الجزيرة لقضاء الإجازة.

ـ أين هذه الجزيرة؟

ـ اسمها «ميدوسا». جزيرة يونانية. حجمها لا يزيد كثيراً عن حجم يختك. على شاطىء من شواطئها تقع ڤيلا جميلة يملكها صديقنا المشترك رافع رفعت وقد...

قاطعتها:

ـ رافع رفعت؟ هل سيكون موجوداً؟

ـ لا! لن يتمكن من الحضور. ولكنه وضع كل التسهيلات تحت تصرفنا. سوف نجتمع في أثينا، ومن هناك تقلنا طائرة هيلوكبتر إلى «ميدوسا»، حيث نقضي الأسبوع.

ـ ٧ رجال وامرأة واحدة؟!

ـ هل تخيفك الفكرة؟

ـ تثيرني أكثر مما تخيفني. أخبريني، الآن، كيف اخترت الضيوف.

ـ ببساطة شديدة، كل ضيف هو ألمع رجل في مجاله، ألمع رجل في الأمة العربستانية. أنت، مثلاً، ألمع وزير...

قاطعتها:

ـ العفو! العفو!

قالت:

ـ والشاعر المُجدّد هو أكثر الشعراء شعبية بين الجيل الجديد من القرّاء والدارسين. و...

ـ ومسعود أسعد؟!

ـ حسناً! لا يوجد صحفي تخاف الحكومات العربستانية منه كما تخاف من مسعود. هل تريد أن أستعرض بقية الضيوف؟

ـ أعتقد أنني استوعبت الفكرة.

ـ هل أعتبر موافقتك نهائية؟

ـ بطبيعة الحال. ما لم يطرأ طارىء. هل يمكن أن نتحدّث عن لندن؟

ـ تعني قصتي مع لندن؟

ـ نعم.

ـ ليس فيها جديد. القصة المألوفة. القصة المعتادة. القصة المشهورة. الرجل الذي يستطيع أن يحب ولا يستطيع أن يتزوج.

ـ آه! كان متزوجاً؟

ـ كل الرجال الجذّابين متزوّجون، كما لاحظت كل النساء الجذّابات.

ـ وانتهت القصة بالفراق؟

ـ الفراق الأبدي.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنه لم يعد هناك احتمال لأي لقاء. بخلاف قصتك مع كوليت.

ـ كنت أنوي أن أتزوج كوليت.

ـ ولماذا لم تفعل؟

ـ الواجب.

ـ تعني زعامة العشيرة.

ـ لم تكن الزعامة تهمني. حقيقة الأمر أن المرحوم أبي كان يهيّىء أخي الأكبر للزعامة، ولم يزعجني ذلك. على العكس، كنت أريد أن أعيش حراً أفعل ما أشاء. إلا أن القدر تدخل.

ـ ومات المرحوم أخوك.

ـ قتل في. . .

ـ أعرف الظروف. مأساة! وأصبحت أنت، رغماً عنك، ولي العهد.

ـ هذا ما حدث.

ـ وقررت أن الزعامة أهم من الحب. تركت المرأة التي تحبها لتتزوج المرأة المجهولة التي اختارها أبوك.

ـ هذا ما اقتضاه الواجب.

ـ الواجب؟

ـ نعم. هل تودين أن نذهب إلى غرفة الطعام لتناول العشاء؟

ـ غرفة طعام؟! في هذا القارب الصغير؟!

ـ غرفة صغيرة جداً.

ـ أفضّل البقاء هنا.

دخلتُ، وعدتُ بالأطباق، واستأنفت جلنار السؤال:

ـ الواجب؟ أي واجب؟

ـ الواجب نحو الوطن.

ـ تقصد نحو العشيرة؟

ـ هل هناك فرق؟

ـ ماذا تعني؟

ـ ما هو الوطن؟ هل هو هذا البحر؟ الشاطىء اللازوردي أجمل من هذا الساحل بكثير. هل هو تلك الجبال؟ الجبال السويسرية أكثر روعة. الوطن ليس أرضاً.

ـ ما هو الوطن، إذن؟

ـ الوطن هو رغيف الخبز والسقف والشعور بالإنتماء والدفء والإحساس بالكرامة. هنا لا يتحقق شيء من هذا إلا عبر العشيرة.

ـ هذا تمجيد للطائفية.

ـ لا! هذا تكريس للديمقراطية. في أوضاعنا لا يمكن أن تستقر الأمور إلا في ظل حكم عسكري غاشم أو توازن بين الطوائف. وأنا، شخصياً، أفضّل الديمقراطية الناقصة على الديكتاتورية الناضجة.

ـ ولهذا تركت كوليت؟

ـ لماذا لا تأكلين؟

تناولت جلنار قطعة صغيرة من الخبز مضغتها وابتعلتها ببطء، وقالت:

ـ ولهذا تركت كوليت؟

ـ لهذا ضحّيت بحبي لكوليت.

ـ وماذا عن زواجك بشتال؟ هل كان تضحية أخرى؟

ـ كان واجبي.
ـ هل تعرف أن كوليت متزوجة بجنرال ولها منه إبنتان؟
ـ بطبيعة الحال. نحن نتبادل التهنئة في المناسبات. ونتراسل أحياناً.
ـ أعتقد أنها لا تزال تحبك.
ـ بعد كل هذه السنين؟
ـ بعد كل هذه السنين.
ـ وكيف عرفت؟
ـ تحدثتُ معها.
ـ أنت. تحدثت مع كوليت؟
ـ طويلاً. كنت أعد نفسي للمقابلة معك.
ـ وقالت لك إنها لا تزال تحبّني؟
ـ لم تستعمل هذه الكلمات.
ـ ماذا قالت؟
ـ قالت إن الوقت الذي قضته معك كان اللحظة الذهبية في حياتها.
ـ اللحظة الذهبية! كان هذا تعبيراً من تعبيراتها المفضّلة.
ـ هل كان لديها الكثير من هذه التعبيرات؟
ـ أعتقد أنها خلقت لكي تكون شاعرة، ولكنها فضّلت أن تكون رسّامة.
ـ وحققت شهرة لا بأس بها.
ـ كانت ستحقق شهرة أكبر لو انصرفت إلى الشعر. كانت تحفظ الكثير من الشعر. كانت تتحدث حديثاً عادياً، حديث كل يوم، ويُخيّل إلى من يسمعها أنها تنشد قصيدة.
ـ يبدو أنك لا تزال تحبها؟
ـ الحب؟! هذا الترف العنيف!
ـ هل كان هذا تعبيراً من تعبيراتها المفضلة؟
ـ لا. لم تكن تعتبر الحب ترفاً. ولكنها كانت تدرك أن على كل رجل أن يواجه قدره.
ـ كل رجل؟!
ـ أعني كل إنسان، كل رجل وكل امرأة. كانت تعرف أن قدري تطلب مني أن

أتخذ الموقف الذي اتخذته.

ـ القدر أم الواجب؟

ـ كان الواجب قدراً.

ـ وهل أنت سعيد بقدرك الآن؟

وجمت أفكّر. فوجئت بدموع تتساقط من عينيّ. من أين جاءت الدموع؟ من الشمبانيا؟ من النجوم السابحة مع الأمواج؟ من جلنار؟ أم من كوليت؟ قالت جلنار:

ـ لم تجب.. هل أنت سعيد بقدرك؟

ـ بطبيعة الحال. أليس هذا واضحاً؟ ألا ترين كم هي مثيرة ومليئة حياتي؟ المؤتمرات والخطابات والقوانين والانتخابات والفنادق...

ـ والحفلات والفنّانات؟

ـ والعشيرة التي تقبّل يد زعيمها. والثروة الطائلة. والزوجة الجميلة. والبنت الوسيمة. والولد الجميل. أليست هذه هي السعادة؟

ـ السعادة الدامعة؟

ـ الدموع السعيدة.

فجأة، بطريقة سحرية غامضة، تحولت المرأة التي تجلس أمامي إلى كوليت. سمعت نفسي أقول:

ـ كوليت! كوليت! أنا لا أزال أحبك. أحبك فوق ما كنت أحبّك أيام اللقاء. لا تصدّقي هذه الأوهام التي أعيشها. هذه الكذبة الكبيرة التي...

قطع عليّ حديثي المجنون صوت قارب يدنو ويرسو عند سلم اليخت. وقفت جلنار وابتسمت، وقالت:

ـ منتصف الليل! لا بُدّ أن تغادر سندريلا وإلاّ تحوّل القارب إلى سمكة قرش.

بقيت في مقعدي، عاجزاً عن الحركة، والدموع تتساقط على وجنتيّ، أرقب جلنار تقترب مني، وتطبع قبلة على جبيني، وتقول:

ـ إلى اللقاء، أيها الوزير الرومانسي. في «ميدوسا»!

فيما بعد، سألتني شنتال:

ـ كيف كان الإجتماع؟

قلت شارد البال:

ـ أي اجتماع؟

قالت بدهشة:

ـ الإجتماع الذي كنت فيه. مع فخامة الرئيس.

استدركت بسرعة:

ـ اطمئني! اطمئني! الحكومة باقية.

ـ هذا خبر سار. كنت أخشى أن تكون الإشاعات صادقة. بالمناسبة، اتصل سعيد أبو بطحة عدة مرات ورجا أن تتصل به. قال إن الأمر عاجل جداً.

أدرت الرقم، واستمعت إلى حديث سعيد، ثم قلت بهدوء:

ـ ضيعانه! ضيعانه! شاب! راح في عز شبابه! اسمع يا سعيد! أريد أن تنشر النعي في الصحف بإسم الحزب. وترتّب المأتم اللائق. سوف أستقبل المعزّين بنفسي.

قالت شنتال:

ـ ماذا حدث؟

ـ عضو من أعضاء الحزب. مات في حادث سيّارة.

ـ من هو؟

ـ إسمه رزق البندورة. لا أعتقد أنك تعرفينه.

ـ وهل من الضروري أن تستقبل المعزين بنفسك؟

ـ شنتال! الحزب يقوم على ركيزة واحدة، ركيزة إسمها الولاء.

الجزيرة

ولا بُـدّ مـن يـومٍ أغـرَّ مُـحـجّـلِ
يطول استماعي، بعده، للنوادبِ
المتنبّي

رجالي السبعة المثيرون. وأسابيعهم السبعة المثيرة. أي رجل أنتقي للجائزة الكبرى. الليلة الأخيرة في «ميدوسا». ميدوسا التي عوقبت - وعاقبت. ميدوسا التي تحاول، الآن، أن تتقمصني. وأرفض. أقاوم. لا أريد أن يتحول شعري إلى أفـاع قاتلة. ميدوسا التي تحدّث عنها السيّاب في «المومس العمياء». كان السيّاب مولعاً بالأساطير اليونانية. أو الإغريقية. الإغريقية كلمة أجمل. خصوصاً في الشعر. آه! الشعر! هل أختار شاعرنا المُجدِّد، زوبعة الإلهام التي تزرنخ الشعر العربي. تنقذه من الاستحناط والاستبقار. وتطعّمه بكلمات جديدة. لم تُعرف من قبل. الكلمات الجديدة! لم لا؟ ألم تضق الكلمات القديمة بعواطفنا المتجدّدة؟ ألا يجب أن نخترع كلمات جديدة، جديدة تماماً، كل يوم؟ لا! كل ساعة! لا! كل لحظة! ألا تمرّ بنا مع كل لحظة تجارب جديدة لا نستطيع أن نعبّر عنها بكلمات ننقّب عنها في المعاجم. أو مجامع اللغة. تجمّدت المعاجم منذ ١٠ قرون. ووُلدت المجامع ميتة. ألا يستحق شاعرنا ليلة معي مكافأة على الكلمات الجديدة التي اخترعها؟ آه! كم أتمنّى لو استطعت أن أخترع كلمات غريبة. تصوّر حالاتي الغريبة. كم أحسّ بالإحباط - هذه كلمة قبيحة جداً! - وأنا أجد كلمة بعد كلمة عاجزة عن تصوير ما أحسّ به. وما هي الكلمات؟ كيف تستطيع كلمة واحدة أن تصف ألف تجربة، وتجربة؟ العرب القدامى الذين ابتكروا مئات الأسماء للغيم وللجمل وللسيف، كانوا يعرفون طاقة الكلمات المحدودة. أمّا نحن فأخذنا كلماتهم ولم نضف إليها شيئاً. حذفنا معظمها، إذا أردنا الدقة. جائع! كلمة واضحة جداً. وإذا أردنا إيضاحها أكثر قلنا جائع جداً. أو جائع بعض الشيء. ولكن هل يمكن إختزال الجوع في كلمة واحدة؟ أحوال الجوع التي لا تنتهي كيف يمكن أن تندرج تحت كلمة جائع؟ والحب! هل يوجد حب يشبه حُبّاً؟ والشبق! هل يوجد شبق كشبق؟ والشاعر الذي يعيش مع زوجة/بقرة

يحاول، على الأقل. يحاول أن يأتي بكلمات جديدة. قد تكون مضحكة، أو سخيفة. ولكنها تقول شيئاً يحسّ به. أليس هذا هو الشعر؟ التعبير بكلمات جديدة عن مشاعر جديدة؟ أليس هذا هو الفرق الأوحد بين الشعر والنثر؟ النثر هو الكلمات المألوفة التي تعبّر عن التجارب المألوفة. أليس هذا ما نعنيه عندما نقول عن كلام ما إنه نثري؟ نثر! في النثر تعني الكلمات نفس معانيها المخزونة في المعاجم. الحب هو الحب. حب عنتر أو حب قيس أو حب روميو. ولكن حب عنتر غير حب قيس وغير حب روميو. لا بد أن تكون هناك كلمة خاصة لكل حب خاص. وإذا لم توجد فيجب أن تُخترع. ولم الخوف؟ ألم تخترع كل كلمة موجودة في المعاجم؟ لماذا نظل أسرى المعاجم التي اخترعناها؟ لماذا نبقى، حتى نهاية العالم، عبيد القاموس؟ أسرى الكلمات التي لا تجيء إلاّ من القاموس. الشعر الذي يمكن إرجاعه، كلمة كلمة، إلى مواضعه من القاموس. وشاعرنا يخترع كلمات. قد لا نستسيغها اليوم. قد نضحك منها. ولكن من يعرف ماذا يحمله الغد؟ وشاعرنا يسرق أشعار الآخرين، الشعراء الغربيين المغمورين. والسرقة في الشعر كالسرقة في أي مجال آخر. هذا ما يقوله القاموس. إلاّ أن ما يقوله القاموس خطأ فاضح. هناك سرقة وهناك سرقة وهناك سرقة. هناك فرق بين أن تسرق الحليب من الرضيع وأن تسرق أبياتاً من شاعر مغمور. السرقة هنا جريمة قتل. والسرقة هناك تلاقح حضاري. ما أروع الحضارات المتلاقحة! حوار الحضارات! صدام الحضارات! وهل وُجد شاعر لم يسرق؟ وأين تُرتكب معظم جرائم السرقة؟ في الأزقة الضيّقة المظلمة؟ لا! في الجامعات المشهورة. كلّ رسائل الماجستير سرقات من الآخرين. سرقات ظاهرة. وكل رسائل الدكتوراه سرقات من الآخرين. سرقات خفيّة. تتستّر تحت ألف هامش. وألف مرجع. وألف صفحة من الهراء. لا أودّ الحديث عن الهراء الآن. أودّ الحديث عن الشعر. قصتي مع الشعر طويلة جداً. بدأتْ عندما كنت في الرابعة عشرة. وكتبتُ أول قصيدة في حياتي. كتبتها عن زميلة من زميلاتي. صديقة. لم تكن قصيدة غزل. لا أدري كيف أصنّفها. ألم أقل إن للكلمات طاقة محدودة؟ كتبت أني أفرح عندما أراها. وأحزن عندما تغيب. ولا أطيق أن أراها تبتسم لفتاة أخرى. هذا كل ما قلته. وأعطيتها القصيدة. ولم تحدّثني، بعدها، أبداً. إلى هذه اللحظة، إذا أردنا الدِقّة. لم أقل إلاّ ما كنت أحسّ به. أليس الشعر تعبيراً عن الإحساس؟ إلاّ أنها غضبت. وأنهت الصداقة. ورفضت أن تتحدث معي. وكتبتُ القصيدة الثانية بعد الأولى بسنة. أو أكثر قليلاً. عن مدرّسة هذه

المرّة. مدرّسة سمراء. ذات شعر أسود طويل. وأسنان بيضاء لامعة. مدرّسة كنت أنتظر حصتها بشوق. وأستمع إليها بإنتباه. وأحلم في الليل أنها أمّي. وأحياناً، أنها أختي، وأحياناً، أنها أنا. كتبت قصيدة قلت فيها: «أتمنى لو كنت أنت أنا». لم أقل شيئاً غير ما كنت أراه في الحلم. وأعطيتها الورقة الصغيرة. لا! لم يحدث ما حدث مع القصيدة الأولى. لم يحدث شيء، في البداية. بعد يومين أو ثلاثة أو أربعة طلبتْ مني المجيء إلى غرفة المدرسات بعد انتهاء الحصص. وذهبت. طلبتْ مني أن أجلس أمامها. وجلست. وبدأتْ تتحدّث عن الجغرافيا. هل قلت إنها كانت مدرّسة جغرافيا؟ ظلّتْ تتحدث حتى لم يبق سوانا، ثم قامت. وأغلقت الباب. واقتربتْ مني. وقالتْ إنها معجبة بالشعر الذي كتبته. ومعجبة بي. وبدأت تقبّلني. ثم ازدادتْ القبلات ضراوة. ثم بدأت تلامسني. وشلتني المفاجأة. تركتها تفعل ما تشاء. وبدأ صوتها يرتفع. تتأوّه. ويدها تتنقّل. وأنا مستسلمة. ثم زاد ضجيج التأوّهات. وأخذ البواب العجوز يقرع باب الغرفة. وأفاقت مدرّسة الجغرافيا. وسوّت ثيابها، بسرعة. وثيابي. وفتحت الباب. وقالت للبواب العجوز: «عم حسين! وصلت في الوقت المناسب. أحضرْ كأساً من الماء بسرعة. جلنار أصيبت بمغص. ألم تسمع تأوّهاتها؟!». وذهب البوّاب الطيّب. وابتسمتْ مدرّسة الجغرافيا. وشربتُ كأس الماء. وغادرتُ غرفة المدرّسات. ولم أر مدرّسة الجغرافيا بعدها. لم أعد إلى المدرسة. هربت إلى مدرسة أخرى. وعاهدت نفسي ألاّ أعود إلى كتابة الشعر. ولم أعد. ومع ذلك لم أفقد اهتمامي بالشعر. أو بالشعراء. الشعر غير التقليدي. والشعراء غير التقليديين. وفقدتُ اهتمامي بالكلمات المألوفة. التي تُفهم فهماً مألوفاً. تعلّمتُ الدرس من الطالبة ومن المدرّسة. ظنّت الطالبة أني كنت أتغزّل. وظنّت المدرّسة أني كنت أتغزل. ولم أكن أتغزّل لا في الطالبة ولا في المدرّسة. كنت أحاول التعبير عن تجربة خاصة. تجربة ليس فيها قبلات ولا ملامسات. وهاي بيبي يعتقد أني «الزبيان»، أو مثلّجة جنسياً. وهذه قضية أخرى. غير قضية الشعر التي تهمّني الآن. وشاعري المفضل كنعان يعيش مع امرأة/ بقرة تضربه على رأسه بقدر البامية. ومع ذلك لا يستسلم. يخترع كلمات. ويسرق قصائد. ويقتبس مشاعر. التناصّ! وفوق هذا كله، كتب عني ديواناً كاملاً. ديواناً كاملاً عني! بعضه يُفهم ومعظمه لا يُفهم. لا يزال مخطوطاً. كل قصيدة في الديوان عني. لم يسمّه جلنار، بطبيعة الحال. خوفاً من الزوجة/ البقرة. والسكرتيرة/ البقرة. والنقاد/ البقر. سمّاه «نارجل». هاه! هاه! هاه!. ولكن هل سيدرك البقر أن نارجل هي جلنار؟ لن ينشر الديوان إلاّ بعد

أن يحصل «التشابل». التشابل؟! ما هو التشابل؟ ت تعني تردّد. وش تعني شهوة. وا تعني إقدام. وب تعني. آه! نسيت ما تعنيه ب. ول تعني لفح. هل يكون كنعان هو الرجل الذي أختاره؟ هل يحصل «التشابل» في «ميدوسا»؟ ويُنشر الديوان الذي يبدأ بقصيدة تتحدث عن:

امرأة من نار
تعيش في جبال الثلج
تأكل الفاكهة الحلال
وتتسلّق الشجرة المحرّمة
امرأة من رجال
قتلتهم ذات يوم
وجعلت من أنوفهم
عقداً.
تزيّن به جبهتها

وصف مرعب، بعض الشيء. والقصيدة لا تتحدث عن أنوف. تتحدث عن أعضاء أخرى لا يجوز للمرأة ترديدها. امرأة من رجال؟! على الأقل، لم يقلْ امرأة كالغزال. أو الريم. أو المهاة. أو السمكة. امرأة من رجال! هل أنا «الزبيان» أم مثلّجة جنسياً؟ ليس هذا السؤال. السؤال هو «التشابل». من سيحظى بـ «التشابل»؟ الشاعر؟! وماذا عن الآخرين؟ ماذا عن فيلسوف الإنتقائية؟ الذي أعجب بي منذ كنت صبيّة مراهقة في الكلّية. وادّعى، على الهواء، أنه لا يذكرني. مع أنه لم ينسني، طرفة عين. ولم يكفّ عن المحاولة. فيلسوف العربستانيين الأوحد. الذي أتى بما لم تستطعه الأوائل. نظريّة عربستانية فلسفية. الإنتقائية! ألا تعبّر هذه الفلسفة، بدقة مدهشة، عن وضع الأمة العربستانية الحقيقي؟ الأمّة التي تنتقي سياراتها من اليابان. ومربّياتها من الفيلبين. وحرسها من أمريكا. وجلاّديها من إسرائيل. وأحذيتها من إيطاليا. وطغاتها من داخلها. الأمّة التي حوّلت الإنتقاء إلى فن رفيع. تأخذ ما تريد وتترك ما لا تريد. تأخذ من الغرب الموبايل وتترك بحوث السرطان. تأخذ من تراثها الجواري وتترك الجهاد. وتأخذ من اليابان الين وتهمل الزن. الأمة المنتقية. الأمة الإنتقائية. التي عبّر فيلسوف باشا عن روحها كما لم يفعل أيّ مفكّر عربستاني آخر. روحها الحقيقية. المتوارية. التي يعجز حتّى الشعراء عن الوصول إليها. ألم تعبّر الفلسفة الرومانية،

إن كان للرومان فلسفة، عن الغطرسة الرومانية؟ ألم تعبّر الفلسفة الإغريقية عن الصراع الإغريقي الدائم بين الطبقية والمساواة؟ ألم تعبّر الفلسفة المسيحية عن عقدة الذنب المتأصّلة في نفوس الذين اعتنقوا الدين الجديد، واعتنقوا معه الخطيئة الأصلية؟ وماذا عن الفلسفة الإسلامية؟ آه! الإنتقائية، مرة أخرى. التوفيق بين العقل والنقل. بين أرسطو والوحي. وماذا عن فلاسفة النهضة الأوروبية؟ ألم يعبّر الفلاسفة العقليون عن البركان الثائر في وجه قرون من الخرافات؟ وفلاسفة الحدس ألم يعبّروا عن الخوف من المعبود الجديد القادم، العلم؟ والفلسفة الوجودية ألم تكن إعلاناً عن إفلاس النظريات القديمة؟ والبراجماتية، ألم تعبّر عن أعمق خلجات أمريكا: ما لا فائدة فيه لا قيمة له! وفيلسوفنا، ألا يستحق الباشوية بجدارة؟ ألم يعبّر عن أعمق النزعات العربستانية؟ الإنتقاء. الخيار السهل. البعد عن التطرّف. الفضيلة وسط بين رذيلتين. خير الأمور الوسط. في كل شيء. الوسط بين القتال والسلام. الهدنة المؤبّدة. الوسط بين الإستقامة والإنحلال. الإستقامة في الداخل، والإنحلال في الخارج. الإستقامة في العلن والإنحلال في السرّ. الوسط بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الحادي والعشرين. السحر من القرن الأول وألعاب الكومبيتر من الحادي والعشرين. الأمّة الإنتقائية وفيلسوفها الإنتقائي الذي يقبل الهدية الثمينة ثم يعطيها المُسجّل. الذي يُسجل الطالب الثريّ وينوي إبقاءه طالباً إلى الأبد. الذي يصرّ على أن يحصل زوج ابنته على المشروع عبر منافسة حقيقية. الذي ينضمّ إلى مركز تموّله أمريكا ويحذّر من خطر الأصولية الأمريكية. فيلسوف باشا! المفكّر الذي تهيم به الأرامل. والعذارى. الجاذبية الفلسفية. الكارزما الفلسفية. ألم يكن كل الفلاسفة جذابين جنسياً؟ لا! هذه مبالغة! كان بعضهم على الأقل، جذّاباً. سارتر القميء كانت له علاقات نسائية تفوق علاقات مايكل جاكسون. هذا مثل رديء! تفوق علاقات كلارك جيبل. ألم يئِن الأوان لكي أكتشف الكارزما الفلسفية الجنسية؟ مجال الاختيار ضيّق. ضيّق جداً. فيلسوف واحد في أمة من ٢٥٠ مليون متفلسف. فرصة قد لا تعود أبداً. معه في جزيرة بعيداً عن بناته. وأزواجهن. وطلبته الأثرياء. والأستاذة الدكتورة تفاحة قوت القلوب. والآنسة دلال واصف. فرصة قد لا تتكرر، للانتقاء: إنتقاء الفيلسوف. انتقيتك أيها الفيلسوف الإنتقائي! لأني معجبة بفلسفتك. معجبة بواقعيّتها. وفوق ذلك، فأنا انتقيتك مدفوعة بحب الإستطلاع. هل يمكن فصل الجنس عن حب الإستطلاع؟ أليس حب الاستطلاع الدافع الرئيسي وراء الجنس عند الرجال؟ الفضول. إكتشاف المجهول. وماذا

يقول الرجل لأصحابه بعد كل امرأة جديدة؟ صدرها. خصرها. بطنها. لا يتحدّث رجل عن سعادته. أو سعادة المرأة. أو شقائها. أو شقائه. الأمر، بأكمله، مسألة اكتشاف. معلومة جديدة تضاف إلى سجل الإحصائيات. وماذا يقول له أصحابه: «هل كانت حارّة؟». «هل كانت تصرخ؟». «هل كانت تعض؟». معلومات! وماذا عن المرأة؟ ألا يسري نفس المبدأ؟ لماذا تريد امرأة أن تنام مع نجم السينما المشهور؟ أليس لأنها تودّ أن تعرف الفرق بين النجم وبين زوجها السابق؟ الفرق الجسدي. كيف كان شكله بلا ثياب؟ هل استمرّ طويلاً؟ معلومات! أليس الفيلسوف منطقة رجالية جديرة باهتمام المرأة، هذه المرأة؟ هل يتّبع فلسفته الإنتقائية في الفراش؟ هل ينتقي عضواً واحداً ويهمل بقيّة الأعضاء؟ هل يردد الجُمل الفلسفية أثناء «التشابل»؟ هل يصرخ؟ كما كانت مدرّسة الجغرافيا تصرخ؟ آه! تجربة مثيرة! فلجنسية! أي فلسفية/ جنسية! ولكن لا مُبرّر للعجلة في القرار. هناك متّسع من الوقت. قبل أن ينتصف الليل. وأنضم إلى رجالي السبعة. الذين طلبت منهم أن ينزلوا إلى الخليج الصغير. وينتظروني عند الساحل. قبل منتصف الليل. وأخبرتهم أني سأجيء في الساعة المسحورة. تماماً. وآخذ واحداً منهم. واحداً فقط! إلى مكان ما في الجزيرة. لا يعرفه غيري. ونقضي، أنا وهو، الليلة الأخيرة. لا مُبرّر للعجلة ـ الصحفي المبتزّ، بدوره، رجل مثير. يعيش حياة مثيرة إلى أبعد الحدود. قنبلة تنفجر في حقيبة. كان المفروض أن تحمل مليون دولار. وساحرة عجوز تقبّله بشراسة. أصالة عن نفسها، ونيابة عن ابنتها. وتجارة المعلومات تجارة مربحة. في كل مكان. المدّ القادم. معظم أصحاب الصحف من أصحاب البلايين. وأصحاب محطات التيلفزيون. لا شيء أكثر إثارة من المعلومة. في عصر السوق. المعلومة القابلة للتسويق. الأميرة ديانا مع عشيقها. والدوقة مع صديقها. الذي يحبّ لحس أصابع القدمين. وعضو البرلمان مع سكرتيرته. معلومات للبيع! هل يفعل مسعود أسعد سوى هذا؟ جمع المعلومات والمتاجرة بها. حسناً! حسناً! أنا أعرف أنّ ما يفعله ابتزاز. وماذا في ذلك؟ ألسنا جميعاً، على نحو أو آخر، من المبتزّين؟ دون أن نلفظ هذه الكلمة القذرة. أو نتحدّث عن السعر القذر. ألا يحوّلنا كل سر نحصل عليه من الآخرين إلى مبتزّين؟ دون أيّ مبرّر للكلام. أو التهديد. ألم ينقذني الإبتزاز من تحرّشات زوج أمي؟ عندما كنت في الحادية عشرة. وكان جسمي في الثامنة عشرة. لم يكفّ عن التحرّش بي إلاّ عندما صوّرتُه مع الخادمة. بالكاميرا البدائية. لم أقل له شيئاً. ولم يتحرّش بي بعدها. كان يعرف أن أي محاولة جديدة تعني وصول

الصورة إلى أمّي. التي لم تكن لتصدّقني لو قلت لها إنه يتحرّش بي. ولكن لم يكن بوسعها أن تكذّب الصورة. الزوج الأشيب المفلس مع الخادمة البدينة القبيحة. لا توجد عندي مشكلة مع الإبتزاز. ولا مع المبتزّين. على الذين يعترضون على الإبتزاز ألاّ يفعلوا ما يعرّضهم للإبتزاز. طلب معقول. لا أحد يبتزّ الشرفاء. لا أحد يبتزّ إمام مسجد. أو ربّة بيت مخلصة. أو تاجر عقارات لا يخدَع. المبتزّون يختارون ضحاياهم، أو زبائنهم!، بعناية فائقة. وضحايا الإبتزاز، في كثير من الحالات، من ممارسيه. أو كانوا من ممارسيه. ولولا الإبتزاز لخلت الحياة من جانب مثير جداً من جوانبها. جانب يحرق كالتوابل. ويبعث الشهيّة، كالتوابل. وصاحبنا مسعود أسعد يثير شهيّة أي امرأة. كنز المعلومات المتنقل! أليس من المثير تحويل تاجر المعلومات إلى معلومة؟ أليس من المثير إبتزاز المبتزّ؟ إذا عجز عن الأداء. أولم يرقَ إلى مستوى التوقعات. اسمع يا أستاذ مسعود! نصف مليون دولار وإلاّ أعلنت أنك لم تستطع عمل شيء. أو انتهيت قبل أن أنتهي من نزع ثيابي. أو كنت دون المعدّل العالمي. لعبة خطرة. عندما تلعب مع مبتز مخضرم. يستطيع أن يقلب الطاولة. نامي معي مرة ثانية وثالثة ورابعة. وإلاّ! وإلاّ أعلنت أن الصدر الذي فتن الناس مليء بالسيلوكين. وأن الفخذ تغطّيه البثور. وأن البئر بلا قرار. وفي الابتزاز لا يهمّ أن تكون المعلومة صادقة أو كاذبة. المهم أن يصدّقها الناس. أليست هذه مغامرة مثيرة؟ النوم مع المبتزّ ثم ابتزازه. أو الانتظار حتى يبتزّني هو. في «صوت الحقيقة». مغامرة لا تقل إثارة عن مغامرة النوم مع الطبيب النفساني. المثير جداً. الذي تحدّى فرويد في عقر حضارته. وألّف كتاباً سمّاه فيه «طبيب الفودو». بيعت منه ملايين النسخ. بمختلف اللغات. في العواصم الأجنبية. الطبيب الذي زرته عدة مرات. عندما كنتُ في لندن. في حالة عشق عنيف. مع ذلك الإنسان. وحاول الطبيب النفساني أن يقنعني كما حاول أن يقنع بستان. بما كنت أعرفه. وتعرفه بستان. هو يستمتع بك ولا ينوي الزواج. هو متزوّج بالفعل. إيضاح الواضحات! كنت أعرف، يا دكتور، أنه متزوج. وكنت أعرف، يا دكتور، أنه لن يتزوجني. وكنت أعرف، يا دكتور، أني لم أكن «الزبيان»، ولا مثلّجة جنسياً. ولم أكن، يا دكتور، أعاني أيّ صراع بين مثل قديمة وبين سلوك جديد. أتعرف السبب؟ السبب أني نشأت بلا مُثُل ولا قيم. نشأت محايدة أخلاقياً. أتعرف السبب؟ السبب أن أبي تحرّش بي وأنا في الخامسة. وقلتُ لأمّي. ورفضتْ أن تصدّق. وضربتني. وضربني هو. كان أبي يضربني. كل يوم. قبل التحرش،

وأثناء التحرش، وبعد التحرش. وكان يضرب أمّي كل يوم. بعد أن ينام معها. قلت لك إني نشأت بلا قيم. لم تكن مشكلتي الصراع بين القيم والسلوك. كانت مشكلتي الحب. كنت أريد، يا دكتور، علاجاً للحب وكنت أنت تحاول علاجي من القيم القديمة. وعندما حاولت أن أشرح لك رفضت أن تستمع. قلت إنك لا تؤمن بخرافات فرويد. ولا أساطير الطفولة. ولكن قصتي مع ذلك الإنسان لم تكن من خرافات فرويد. ولا من أساطير الطفولة. كنت أذوب عندما يلمسني. وأحترق عندما يقبّلني. وكنت أطير في الهواء عندما يكلّمني. ولم يكن يكلّمني إلا فيما ندر. كان ذلك الإنسان مشغولاً بقضاياه الخاصة. بعالمه الخاص وبحقوق الإنسان. وبنسائه الأخريات. كنت أعرف كل شيء عن نسائه الأخريات. هل يمكن لإمرأة تقابل ذلك الإنسان ألا تعشقه؟ كان ذلك الإنسان أكثر رجل عرفته إثارة. ولكنني لا أريد انتقاص حقك. أنت، يا دكتور، لا تخلو من إثارة. ربما كنت تستحق الجائزة الكبرى. مكافأة على أفكارك غير التقليدية. وعلاجك غير التقليدي. ونومك غير التقليدي مع مريضاتك. سوف نرى. لا مبرّر للعجلة. ربّ عجلة أعقبتْ ريثاً! قد تكون الليلة الأخيرة من نصيب رجل آخر. الفلكي الروحاني الساحر. الذي استخدم كل تعويذة يعرفها للوصول إليّ، ولم يفلح. الذي استخدم كل حيل التنويم المغناطيسي، ولم ينجح. الذي لم يفقد الأمل عبر السنين. والذي يحاول الآن إقناعي عن طريق صديقه الجديد. عطويت! الغلام الوردي. الجني! لا أزال أتذكّر العزيمة. ماذا لو بدأت أرددها؟ ماذا لو لم يحضر؟ ألا أكون غبية إذا صدقت سخافات دجّال يدّعي أنه دكتور؟ وماذا لو حضر؟ ماذا أفعل بغلام وردي جني وسيم؟ آه! أتحدّث معه. أطلب منه أن يساعدني على اختيار رجل من رجالي السبعة. لا بد أن لديه مصادر معلومات تختلف عن المصادر التقليدية. يستطيع، على أية حال، أن يحل لغز الإيدز. هل انتقلت العدوى إلى رجل من رجالي السبعة؟ وماذا لو أرادني الغلام الوردي لنفسه؟ أليس مثيراً أن تنام امرأة مع جني؟ كما فعلت نيران؟ لا! الروحاني أكثر إثارة من الغلام الوردي. الفلكي صانع الخوارق. الذي استطاع هزيمة فريق البرازيل. الأسلحة الروحانية النفسية! أليس النوم مع هذا الرجل مغامرة العمر؟ من يدري ماذا يمكن أن يحدث؟ أو لا يحدث! قد يطير بنا السرير. وقد يتم الاتصال روحانياً. وقد يشاركنا الغلام الوردي المغامرة. الفلكي الروحاني الذي أنساه حرصه عليّ نصيحة سيّده كبير الروحانيين. فركب طائرة خاصة. جاءت به إلى الجزيرة. أم ترى «الهيلوكبتر» لا تُصنّف، روحانياً، ضمن الطائرات الخاصة؟

ولكن ماذا عن هاي بيبي؟! ألا يستحق وقفة تأمّل؟ رجل العولمة. رجل الساعة. رجل المستقبل. الرجل الذي يجيد التعامل مع آليات السوق. ومع هيئات الرقابة الشرعية. ومع الصناعيين اليابانيين. ومع النساء الغربيات. الرجل/الكومبيتر. الرجل الذي أرسل لي هدايا تزيد قيمتها على مليون دولار. مليون! وأعدتها، كلّها، إليه. فاعتقد أنني «الزبيان» أو مثلّجة جنسياً. ألا يستحق هذا الكريم السخي ليلة واحدة؟ العربستاني الذي انتقم لكل العربستانيين. باع للأمريكيين لحماً مُلوّثاً ادّعى أنه لحم جمل. وقبلها، سبق أن باعهم شيئاً سمّاه «تذكار الصحراء». بعد أن ربح الملايين، اتّضح أن «تذكار الصحراء» لم يكن سوى روث بعير مصبوغ بمادة بلاستيكية لامعة. وأقيمت عليه قضايا كسبها كلها. لأنه لم يكذب. والقانون لا يحمي المغفّلين. العربستاني الذي أغوى امرأة يهودية (وصهيونية على الأرجح). على متن طائرة. ثم جيّرها لصديق عربستاني آخر. العربستاني الذي يسبي اليهوديات. الأب الذي يوظف ٣ مربيات من حاملات الدكتوراه لرعاية ولده. الرجل الذي علّب كل ما يمكن تعليبه: الجراد، والضفادع، والبقية تأتي. الرجل الذي يوزّع الظروف المنتفخة بالدولارات حيثما يذهب. الذي يحصل على الملايين حتّى في أفقر الدول. الذي يشتهيني كما لم يشتهني أحد من زملائه. الذي حاول كما لم يحاول أيّ منهم. وجرّب كل الطرق التي تخطر على البال. المشروعة وغير المشروعة. العلمية والسحرية الرجل الذي حذّره الجورو مني ولم يسمع التحذير. ألا يستحق هذا المعجب الولهان الجائزة الكبرى؟ الرجل الخارق الذي أرضعته ضبعة وأنقذته أسنان جمل من ذئب. رجل الصحراء القرمزية. و«بنك الصحراء القرمزية». رائد الإستثمارات الإسلامية. صديق الجميع، من المحيط إلى بحر قزوين. الرجل الذي أحبّ أباه فأطلق اسمه على مركز لعلاج البواسير. وأحب إبنه فحوّله إلى شاعر. وأحبّ زوجته فمنحها حياتها الخاصة. هل تكون الليلة الأخيرة من نصيب رجل الأعمال؟ لم لا؟ ولكن لحظة، يا جلنار! هل نسيت رجل الأعمال الآخر؟ الوزير الخطير الشهير. زوج شنتال. يا للإسم المثير! ولكنها تفضّل عليه «حرم معالي الوزير». الأمر الذي سيجعلني، لو منحته الليلة، عشيقة زوج حرم معالي الوزير. ترتيب معقّد! صاحب اليخت الذي يسمّيه قارباً. الوزير المعجزة. إلاّ أن الوزارة لا تثيرني. لا شيء أشد إثارة للملل من النوم مع الوزراء. وخاصة الوزير الذي وافق على البرنامج الذي نحتفل هنا بعيد ميلاده السابع. ما يثيرني في أبو شوكة ـ اسم جميل! ـ شيء آخر. مختلف تماماً. هو قدرته على القتل. القتل المريح. الفرامل التي ترفض العمل في اللحظة

المناسبة. القتل الحضاري. كما قتلتُ أنا أبي. أبي الذي تحرّش بي في الخامسة. وانتهك عذريتي في العاشرة. النبوغ المبكر! وهل أنا «الزبيان»، أو مثلّجة جنسياً؟! لا! لم أقتل أبي. قتله الغاز. الذي تركته يتسرب من إسطوانة الغاز. وانفجر في وجهه. عندما دخل المطبخ مخموراً. وأشعل عود الكبريت. ليصنع القهوة. إنفجر المطبخ. وصحونا، أمي وأنا، على صوت الانفجار. ورأينا النيران. وهربنا من المنزل. نزلنا إلى الشارع. وعلى الرصيف سألتها: «أين أبي؟»، ونظرت إلي نظرة أدركتُ منها أنها تعرف أني أعرف أين أبي. وكما قتلتُ ذلك الإنسان في لندن. في ليلة ليلاء. جميلة كلمة ليلاء هذه! على الأقل، كانت جميلة عندما اختُرعتْ. قبل أن تبتذل. قتلتُه حباً. أم تراه قتل نفسه؟ الليلة الأخيرة. ليلة الوداع. لم يعد بوسعه أن يراني. حياته وأولوياته وحقوق الإنسان وزوجته والأخريات وبقية الحكاية الرتيبة. ولكن كان بوسعه أن يراني مرّة واحدة. في الشقة المطلّة على «هارودز». مرة أخيرة. وحقّقتُ رغبته. وبقينا ساهريْن، حتى الساعات الأولى من الصباح، نتشابل. لا أعتقد أنني «لزبيان»، أو مثلجة جنسياً. ثم أصيب بنوبة قلبية. تحدث، أحياناً، هذه الأشياء. النوبة القلبية الجنسية. تفجّر العَرَق من وجهه. الذي اصفرّ فجأة. وأخذ يلهث. ويشير إلى التيلفون. سيارة الإسعاف! بطبيعة الحال! وتجاهلتُ إشارته. وارتديت ثيابي على مهل. وهو يلهث بصعوبة متزايدة. ثم اتجهتُ إليه. وقبّلته على جبينه المُغطّى بالعرق. المعروق! وابتسمتُ. وغادرتُ الشقة. وقرأت، بعد يومين، خبر وفاته في الصحف. دون تفاصيل. شهيد الحب! الذي قتلته عشقاً! في ليلة ليلاء في لندن. هل يحقّ لي أن أعترض على القتل بعد أن تمتعت بممارسته مرّتيْن؟ وصاحبنا الزعيم لم يفعل شيئاً سوى التصرف وفقاً لمنطق الفحولة. ألا تقتل ذكور الحيوانات دفاعاً عن حقها في أن تكون لها الكلمة الأخيرة في منطقتها؟ وفي إناث المنطقة؟ لم يفعل الزعيم سوى حماية منطقته وإناثه. من زعيم محتمل آخر. وفعل فعلته بإسلوب حضاري. وتولّى نفقات المأتم. واستقبل المعزّين بنفسه. كل القتلة مثيرون جنسياً. وكل القاتلات. والدليل في مذكرات جدي. العشماوي! الذي لم يكن يجيد الكتابة. وأملى المذكرات على صحفي صاغها بأسلوب جميل. إلاّ أن الصحفي مات قبل أن يكتمل الكتاب. وجدّي مات قبل العثور على صحفي آخر. ووقعت المخطوطة في يدي. «مذكرات شانق»! لا تهمّ المذكرات، ما يهمّ الاعترافات الجنسية المثيرة التي كان جدي يسمعها من المشنوقين. والمشنوقات (كانت هناك ٣ منهن!). قبل الشنق، بطبيعة الحال.

العلاقة بين القتل والجنس مؤكدة. حتّى الحيوانات القاتلة تثير جنسياً. بخلاف الحيوانات الأليفة. الأفعى الرقطاء. منذ الأزل، كانت الأفعى رمزاً جنسياً. وسوف تظل رمزاً جنسياً، إلى الأبد. لماذا؟ لأنها تقتل. تغرز عضوها القاتل في الجسد. وتحدث الرعشة النهائية. من رأى إمرأة تشتهي خروفاً؟ أو أرنباً؟ أنا أشتهي النمر، بعنف. لو كان في الجزيرة نمر لمنحته الليلة الأخيرة. ولكن لا توجد نمور في الجزيرة. لا يوجد سوى ٧ رجال. شاعر يسرق أشعار الآخرين. وفيلسوف يسطو على فلسفة الآخرين. وصحفي يبتزّ الناس. وطبيب نفساني مدمن يعالج المدمنين. ودجّال يحلم بغلام وردي جنّي. وتاجر ربح الملايين من بيع اللحم الفاسد. وزعيم يقتل منافسه ويحضر العزاء. لا بُدّ أن أختار واحداً من هؤلاء. صفوة الأمة العربستانية! وميدوسا الآن تتقمصني، ولا أقاوم. وجدّي، الآن، يتقمّصني، ولا أقاوم. تصرخ ميدوسا: «حكمتُ على رجالك السبعة بالموت». ويصرخ جدّي: «بتهمة إهانة النساء وإذلالهن». وتصرخ ميدوسا: «وبتهمة الفساد والإفساد». ويصرخ جدّي: «وبتهمة السرقة والنهب». وتصرخ ميدوسا: «وبتهمة القتل». وتدور الدنيا في وجهي. وأفكّر في الغلام الوردي. وأبدأ في قراءة العزيمة: «عزمت عليك...».

وأغمض عينيّ. ثم أفتح عينيّ. فلا أرى ميدوسا. ولا أرى جدي. أرى غلاماً وردياً وسيماً يبتسم لي ويقول:

- أهلاً! جلنار! أنا عطويت! أغلقي هذا الدفتر. ولنتحدّث عن رجالك السبعة[1].

---

(١) نهاية ما كتبته جلنار في دفتر يوميّاتها.

أثينا

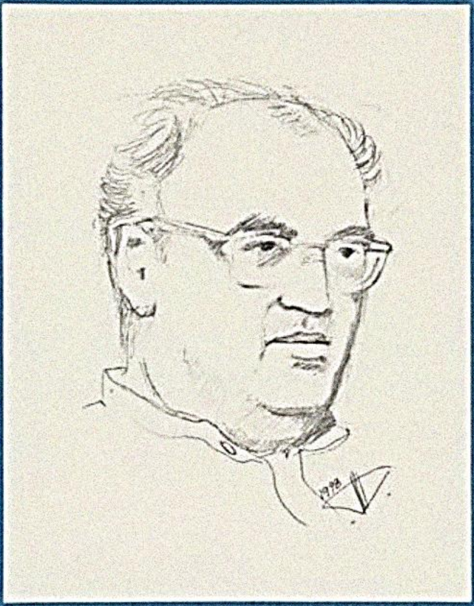
وما الموتُ إلاّ سارقٌ دقَّ شخصُه
يصول بلا كفٍّ . . . ويسعى بلا رجلِ
المتنبي

. . . وأوضح تقرير الطبيب الشرعي أن الرجال السبعةِ ماتوا غرقاً. وقد تبيّن من التحليل أنهم تعاطوا كميات كبيرة من المخدرات والكحول. . .

. . . أمّا المرأة، التي وُجدت على الشاطىء عارية، فلم يتّضح للطبيب الشرعي، بعد، سبب موتها. ولم يعثر في دمها على أيّ آثار لمخدّرات أو كحول. ولم تظهر بجسمها أيّ إصابات. كما ظهر من الفحص أنها عذراء[1] . . .

---

(١) من تقرير شرطة أثينا.



المؤلف بريشة المهندس باسم الشهابي

ISBN 1 85516 520 1

DAR AL SAQI
دار الساقي